غنية الطالبين

في

إيضاح طريق المشايخ العارفين

تأليف المولى الأكمل ، والسيد المبجّل ، المرشد الكامل ، والتقي الواصل
مُربي السالكين، وموصل المنقطعين، وردة الدوحة الصيادية ، وتاج رؤوس العصابة الرفاعية
بدر البدور، وفخر الصدور، صاحب السيادة والرشادة والسماحة ، والعلم والفضل والرجاحة

السيد محمد أبو الهدى الصيادي الرفاعي

رضي الله عنه وقدس سره الواعي

١٢٦٦ - ١٣٢٨ هـ

قال مُشطِّراً بيتين لسيدنا السيد أحمد الكبير الرفاعي قدس سره :

منـزلـنـا رحـب لمـن زارنـا	ما عاقـنـا في سوحـه عائقٌ
شِيدت مبـانيه بأيدي الـرضا	نحـنُ سواءٌ فيه والـطارقُ
فمـن أتـانـا نال مايـبـتـغي	وقـلـبـنـا بربـنـا واثـقٌ
ودارنـا للكـل دار الـرجـا	وربُّـنـا الـواسـعُ والـرازقُ

* * *

عُنيَ بنسخه وتنظيمه وتحقيقه ، ووضع عناوينه وفهرسته وتدقيقه
طفيلي مائدتهم الزكية المبذولة المشهورة ، وخويدم نعال نائبهم بدائرتهم المباركة المعمورة
أفقر الورى ، وأحقر من ترى

عبد الحكيم بن سليم عبد الباسط

السقباني الدمشقي غفر الله له ولوالديه ولأشياخه والمسلمين آمين

الطبعة الأولى سنة ١٣٩٠ هجرية

وقلتُ أفْخَم شأن الاختصاص وهو فخيم

وفي كتاب الله تعالى ﴿يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾

لاتَســلْ عن مَزِيَّة الإختصــاص — يا ابن وِدِّي فتلك حظُّ الخواص
تقلب التُّـربَ لو تدبُّـرتَ تِبْـراً — وتُفيد العِـرفـانَ أهـل المعـاصي
ويســرٌّ من نفحــة الغيب تغني — عن فنـون الـوُعـاظ والقُصّـاص
وبمحض الفضل القديم تُوافي — لحمى القُـرب بالرجال الأقاصي
فاختصاص الرحمن للعبد بالرحـ — ـمة مَنـح له يُشيب النـواصي
فتحـقـق بالـصـدق خِلٍّ ولازم — باب رب الأربـاب بالإخـلاص
واحْسِن الـظنَّ لا تُبـارح حِماه — فحمـاه حِصن المسيء العاصي
وخُـذِ المصـطفى ظهيراً وغـوثـاً — وهـو نعم الشفيع يوم القِصاص
وعـليه الـصــلاة في كل آنٍ — ما تلا النــاس سورة الإخـلاص

* * *

غنية الطالبين

في

إيضاح طريق المشايخ العارفين

تأليف المولى الأكمل، والسيد المبجل، المرشد الكامل، والتقي الواصل
مُربي السالكين، وموصل المنقطعين، وردة الدوحة الصيادية، وتاج رؤوس العصابة الرفاعية
بدر البدور، وفخر الصدور، صاحب السيادة والرشادة والسماحة، والعلم والفضل والرجاحة

السيد محمد أبو الهدى الصيادي الرفاعي

رضي الله عنه وقدس سره الواعي

١٢٦٦ - ١٣٢٨ هـ

قال مُشطِّراً بيتين لسيدنا السيد أحمد الكبير الرفاعي قدس سره :

منزلنا رحب لمن زارنا ... ما عاقنا في سوحه عائقُ
شيدت مبانيه بأيدي الرضا ... نحنُ سواءٌ فيه والطارقُ
فمن أتانا نال مايبتغي ... وقلبنا بربنا واثقُ
ودارنا للكل دار الرجا ... وربُّنا الواسعُ والرازقُ

* * *

عنيَ بنسخه وتنظيمه وتحقيقه، ووضع عناوينه وفهرسته وتدقيقه
طفيليّ مائدتهم الزكية المبذولة المشهورة، وخويدم تعالى تابعهم بدائرتهم المباركة المعمورة
أفقر الورى، وأحقر من ترى

عبد الحكيم بن سليم عبد الباسط

السقباني الدمشقي غفر الله له ولوالديه ولأشياخه والمسلمين آمين

الطبعة الأولى سنة ١٣٩٠ هجرية

﴿ فذلكة شريفة أنوارها مُنيفة ﴾

دع جهل من ضلَّ الطريق وتاها ... وخُذ الطريقة من شريعة طه

واقطع حبال الزور والدعوى وكن ... عبداً نأى عن نفسه وهواها

واعمل بسُنَّة أحمد خير الورى ... فهي الطريقة والضلال سواها

هي في الحقيقة لو دريت شريعة ... أنوارها الغراء لا تتناهى

رَفعتْ لواء حقيقة نبوية ... قد شيَّد القرآن ركن علاها

برزت لنا من خِدر سُدَّة عِزِّها ... حِكَمٌ بها أهل النُّهى تتباهى

وأتت ببرهانٍ مَحجَّةُ حُكْمِه ... بيضاء أشرق في الوجود سناها

من حاد عنها كان أيسر أمره ... أن حارب الحسنى ومن والاها

لو كان موسى بيننا حيّاً لما ... أخذ الطريق لربه بسواها

قد نُظِّمت حداً لكل حقيقة ... وطريقة لله ما أرضاها

وبها تسلسلت الأسانيد التي ... بعض الثقاة العارفين رواها

وأبت لعمرك زُخرف القول الذي ... يهواه مطموس الفؤاد سفاها

وجلت لأهل الدين نصاً صادقاً ... من رَدَّه بالمنكرات تلاهى

وعليه قد درج الصحابة كلهم ... والتابعون ومن أحب الله

عَضَّت عليه بالنواجذ عُصْبة ... للعلم تخشى دائماً مولاها

رَغمت أُنوف ذوي الضلالة بالذي ... عَرفت به بين الأنام هداها

كم قد تصوَّف مُحدث في ديننا ... وأتى لَبْثُ الزيغ يرصد جاها

ورأى مخالفة الرسول طريقة ... جهلاً وظنَّ بأنه يرضاها

فأباده سيف الشريعة فانطوى ... بحجاب ظُلمة بدعة أحياها

فاعجب لها عثرات جهل بدؤها ... حُمق وزيغ ظاهر عقباها

قام الغبي بها يُريد تصدراً ... ببضاعة تُعتّت فما أدناها

شبكات سفسطة تُصاد بمثلها ... بلهاء قوم جهلها أعماها

قل للذي رام التسلق للعُلا ... بعزيمة دون الحضيض مداها

خَلِّ العزائم يا خَليّ لأهلها ... ودع العُلى ما أنت من ذكراها

• • •

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي فجّر من قلوب العارفين ينابيع الحِكَم ، وجعلهم أعلام الهدى بعد النبيين والمرسلين لجميع الأمم ، وأجرى على ألسنتهم أوجز العبارات ، وأبلغ الإشارات ، والصلاة والسلام على سيدنا وسندنا ومولانا وشفيعنا وذخرنا وهادينا ونبينا محمد صاحب جوامع الكَلِم وسيد سادات المخلوقات ، وعلى آله وأصحابه الذين أحسنوا اتّباعه في الحركات والسكنات ، وعلى التابعين لهم بإحسان مادامت الأرض والسماوات ، آمين .

أما بعد فيقول العبد الفقير إلى الله تعالى محمد أبو الهدى نقيب أشراف (حلب) الشهباء ، إبن السيد الشيخ حسن وادي بن السيد علي بن السيد خزام بن السيد علي الخزام بن المولى العارف بالله السيد حسين برهان الدين البصري الصيادي الرفاعي الخالدي غفر الله له ولوالديه ، وأحسن بدار الجزاء جزاءهم بين يديه ، آمين :

لايخفى أنه لما اندلست البِدع والمحدثات في بعض الطرائق ، وانقلبت بسببها من الطُرق العلية على الغالب أكثر الحقائق ، وكثُرت المحدثات في مسالك القوم ، ترتّب لأجلها على سُلاّك الطريق المبارك اللوم ، وأفرط بعض الناس في الطعن والاعتراض ، وأدخل على عصابة الصوفية ماهم

بُرءاء منه لكثرة الضغائن والأغراض ، فأردت أن أكتب كتاباً كافياً لحلّ مشكلات طريق الصوفية الكرام ، موضحاً أصول سلوكهم وما هم عليه تبرئة لأعراضهم الطاهرة مما أحدثه في طريقهم الجهّال واللئام ، وتوكلت على الله ، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله ، وجمعت هذا الكتاب المستطاب ، الناهج من مناهج الشريعة والطريقة طريق الصواب ، وسمّيته ﴿ غنية الطالبين ، في إيضاح طريق المشايخ العارفين ﴾ سلكت به الطريقة الوسطى المرضية تفاؤلاً بخبر « خير الأمور أوسطها » وإشارة للتوسط بين تفريط المعترضين ، وإفراط أهل الغلوّ من المتصوفة الممقوتين ، ملتزماً فيه سلوك الطريقة الشرعية ، آخذاً بكل ما أخذ به أئمة طريق السادة الصوفية ، وهاهو بفضل الله كالدُّرة اليتيمة ، موشّح بالنصوص الثابتة الكريمة ، وقد رتّبته على مقدّمة وثلاثة أبواب وخاتمة ، نسأل الله حُسنها إنه على كل شيء قدير ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

المقدمة

ينبغي لكل مسلم أحسن الله إليه بنعمة الإسلام ، والاعتراف برسالة سيدنا محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام ، أن يكون في الأحوال والأقوال والأفعال ، متابعاً للنبي المفضال ، عاضاً بالنواجذ على سنّته السنيّة ، وسنّة خلفائه الراشدين أهل السّيرة المرضية ، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ الآية، وانقياداً لقول الله تعالى: ﴿ فلا وربك لايؤمنون حتى يُحَكِّموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويُسلِّموا تسليمًا ﴾ وقد حذّر القرآن العظيم عن مخالفة سُنّة هذا النبي الكريم ، بقوله تعالى: ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تُصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ وقال تعالى: ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبيّن له الهدى ويتّبع غير سبيل المؤمنين نُوَلِّه ما تولّى ونُصْلِه جهنم وساءت مصيرا ﴾ وغير ذلك من الآيات الكريمة ، والنصوص القرآنية العظيمة ، وأمرنا بذلك نبينا عليه الصلاة والسلام، وفّقنا الله لاتّباعه ، وجعلنا من أخصّ أتباعه، آمين، فيما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: « إن أحسن الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد وشرُّ الأمور محدثاتها » وقال عليه الصلاة والسلام: « من اقتدى بي فهو مني ومن رغب عن سُنّتي فليس مني » وورد أيضاً عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: « عليكم بسُنّتي وسُنّة

الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإيّاكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار » وقال عليه الصلاة والسلام : « من أحدث في أمرنا هذا ماليس منه فهو ردّ » وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : سنّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر بعده سُنناً الأخذ بها تصديق لكتاب الله ، واستعمال لطاعة الله ، وقوّة على دين الله ، ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها ولا النظر في رأي من خالفها ، من اقتدى بها فهو مهتدٍ ، ومن انتصر بها فهو منصور ، ومن خالفها واتّبع غير سبيل المؤمنين ولّاه الله ماتولّى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا .

وعن عطاء ـ رضي الله عنه ـ في قوله تعالى : ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول ﴾ أي إلى كتاب الله وسُنّة رسول الله ﷺ .

وقال سهل التستري ـ رضي الله عنه : أُصول مذهبنا (يعني الصوفية) ثلاثة : الاقتداء بالنبي ﷺ في الأخلاق والأفعال ، والأكل من الحلال ، وإخلاص النيّة في جميع الأعمال .

وقال سيد الطائفة الصوفية الإمام الجُنيد البغدادي ـ رضي الله عنه ـ : طريقنا هذا مضبوط بالكتاب والسُّنّة ، إذ الطريق إلى الله تعالى مسدود على خلقه إلّا على المقتفين آثار رسول الله ﷺ .

وقال الإمام داوود الطائي ـ رضي الله عنه ـ : لا سبيل إلى معرفة الله إلّا باتّباع نبيّه صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقال الإمام الحسن البصري ـ رضي الله تعالى عنه ـ : المؤمن مُتّبع لا مُبتدع إنّا وجدنا السلف يقول قائلهم الحق ولايخاف في الله لومة لائم .

وقال سيدنا الإمام الكبير السيد أحمد الرفاعي الحسيني قدس سره ورضي الله عنه لولده القطب الفرد الأنجب إمام وقته أبي إسحاق السيد إبراهيم الأعزب قدس سره : ما أخذ جدّك طريقاً لله إلّا اتّباع رسول الله ﷺ فإن من صَحَّت صحبته مع سر رسول الله ﷺ اتّبع آدابه وأخلاقه وشريعته وسُنّته ، ومن سقط من هذه الوجوه فقد سلك سبيل الهالكين .

وقال أيضاً - رضي الله عنه - : إن سرّك أن تكون من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فاتّبع ولاتبتدع ، ولا تتّبع غير سبيل المؤمنين ، واعلم أن كل طريقة تخالف الشريعة زندقة .

وقال صاحب الجوهرة :

وكل خيرٍ في اتّباع من سلف   وكلُّ شرٍّ في ابتداع من خلف

* * *

﴿ تنبيه ﴾

الأحكام الشرعية تنقسم إلى قسمين أصول وفروع ، فالأصول هي المعتقدات ، والفروع هي المعاملات الظاهرة ، وقد ذكر العلماء أن البدعة في الأصول أشدّ منها في الفروع وقالوا إن البدعة في الأصول لايعرفها إلاّ من أحاط علماً بالأحاديث النبوية ، وتغلغل في معرفة الأدلّة السمعية والعقلية .

قال الإمام الشافعي - رضي الله عنه - : المحدثات من الأمور ضربان ، أحدهما إحداث مايخالف كتاباً أو سُنّة أو أثراً أو إجماعاً فهذه

بدعة الضلالة ، والثاني ما أُحدث من الخير لا خلاف فيه لواحد فهذا محدث غير مذموم وهذا عين ماقرّره الجمّ الغفير من العلماء من أن البدعة إلى نوعين مقسومة ، بدعة محمودة والأخرى مذمومة .

وقال الشيخ الإمام عبد العزيز بن عبد السلام في كتابه (قواعد العقائد) كما نقله عنه غير واحد من الفضلاء الأماجد : البدعة مقسومة إلى واجبة ومحرّمة ومندوبة ومكروهة ومباحة ، قال : والطريق في ذلك أن تعرض البدعة على قواعد الشرع فإن دخلت في قواعد الإيجاب فهي واجبة ، أو في قواعد التحريم فمحرّمة ، أو في الندب فمندوبة ، أو المكروه فمكروهة ، أو المباح فمباحة ؛ وللبدعة الواجبة أمثله منها الاشتغال بعلم النحو الذي يُفهم به كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ وذلك واجب لأن حفظ الشريعة واجب ولايتأتّى حفظها إلاّ بذلك ، وما لايتم الواجب إلاّ به فهو واجب ، ومنها حفظ غرائب الكتاب والسُّنّة ، ومنها تدوين أُصول الفقه ، ومنها الكلام في الجرح والتعديل وتمييز الصحيح من السقيم ، وقد دلّت قواعد الشريعة على أن حفظ الشريعة فرض كفاية فيما زاد على المتعيّن ولا يتأتّى ذلك إلاّ بما ذكرناه ، وللبدعة المحرّمة أمثله منها مذهب القدرية والجبرية والمرجئة والمجسّمة والردّ على هؤلاء من البدع الواجبة ، وللبدع المندوبة أمثلة مثل إحداث الرُّبُط والمدارس وكان إحداثها لم يُعهد في العصر الأول ، ومنها التواريخ والكلام في دقائق التصوُّف وفي الجدل ، ومنها جمع المحافل للاستدلال في المسائل إن قصد بذلك وجه الله تعالى ، وللبدعة المكروهة أمثلة كزخرفة المساجد وتزويق المصاحف ، وللبدعة المباحة أمثلة منها المصافحة عقيب صلاة الصبح والعصر ، ومنها التوسّع في اللذائذ من المآكل والمشارب والملابس

والمساكن ولبس الطيالسة وتوسيع الأكمام ، وقد اختلف في ذلك بعض العلماء أنها من البدع المكروهة ، ويجعلها آخرون من السُّنن المفعولة في عهد رسول الله ﷺ ومابعده . انتهى .

فعلى ماذكر تبينَّ لك شأن كل بدعة تراها في الطُرق السائرة فلك أن تعرض ماتراه وتسمعه فيها من البدع القولية والفعلية على قواعد الشرع بأن تردّ كل بدعة إلى القاعدة التي تنتهي إليها كما تقرَّر ، وسيأتي إن شاء الله ذكر ذلك مفصلاً ، وليعلم أن حديث « كل بدعة ضلالة » لايفيد أن كل مالم يقع في زمن رسول الله ﷺ بدعة ضلالة ، فإن العلماء صرَّحوا ببيان معنى هذا الحديث الشريف تصريحاً كافياً ، وأوضحوه إيضاحاً شافياً ، ولهم أدلّة من السُّنّة وإجماع الأمة منها مارواه كثير بن عبد الله عن أبيه عن جدّه أن النبي ﷺ قال لبلال بن الحارث : « إعلم يابلال » قال : أعلم يارسول الله . قال : « إعلم يابلال » قال : أعلم يارسول الله . قال : « إنه من أحيى سُنّة من سُنّتي قد أُميتت بعدي فإن له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أُجورهم شيئاً ومن ابتدع بدعة ضلالة لايرضاها الله ورسوله كان عليه مثل آثام من عمل بها من غير أن ينقص ذلك من أوزار الناس شيئاً » فقد صرَّح صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث المبارك أن بدعة الضلالة هي مالم يُرض الله ورسوله عليه الصلاة والسلام من قول وفعل ، وأما الذي يرضيها فلايكون بدعة ضلالة أصلاً ، ومثل ذلك ماروي عن النبي ﷺ أنه قال : « من سنَّ في الإسلام سُنّة حسنة يُعمل بها من بعده كان له أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أُجورهم شيئاً ومن سنَّ في الإسلام سُنّة سيئة يُعمل بها من بعده

كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً » فنبّه صلى الله عليه وسلم على أن البدعة نوعان حسنة وسيّئة .

قال الشافعي ـ رضي الله عنه ـ : ما أُحدث وخالف كتاباً أو سُنّة أو إجماعاً أو أثراً فهو البدعة الضلالة ، وما أُحدث من الخير ولم يخالف شيئاً من ذلك فهو البدعة المحمودة ، ويدلُّ لذلك مارُوي عن ابن مسعود رضي الله عنه « ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رآه المسلمون سيِّئاً فهو عند الله سيِّء » رواه أبو داوود .

والحاصل أن البِدَع الحسنة متّفق على ندبها ، وهي ماوافق كتاباً أو سُنّة أو إجماعاً أو أثراً ولم يلزم من فعله محذور شرعيّ ، بل من البدع ماهو فرض كفاية كتصنيف العلوم ونحوها ، وأما البدع السيئة فهي ماخالف الكتاب والسُّنّة والإجماع صريحاً أو التزاماً ينتهي إلى التحريم تارة والكراهة تارة . انتهى .

فعلى هذا المقياس يقتضي أن يكون إنكار المنكر وموافقة الموافق ، والوقوف على جادة الاعتدال المشروع مع السلامة من الميل إلى جانب التفريط أو الإفراط فإن كلا الطريقين طريق هلاك والعياذ بالله تعالى ، على أن التفريط استخفاف ، والإفراط غلوّ ، وكلاهما أشدُّ داهية من الآخر ، والسلامة باتّباع السُّنّة السنية المحمدية ، والتمسُّك بآثار عصابة السلف أهل السيرة الزكية ، والتبري من البدع السيئة والمحدثات والتحقق تمكناً بطريقة شريعة أشرف المخلوقات عليه من الله أكمل الصلوات وأتم التسليمات ، وهذا أوان الشروع في ذكر الباب الأول ، وعلى كرم الله ولطفه المعوَّل .

الباب الأول

﴿ في أصل طريق السادة الصوفية ، واختلاف مشاربهم الزكية ﴾

نبّه العارفون من أهل هذا الطريق القويم ، والمنهج المبارك المستقيم ، أن أصل هذا الطريق المبارك مبنيٌّ على أربع أركان ؛

الأول : الوفاء بالعهود ، والثاني : الرضا بالموجود ، والثالث : الصبر على المفقود ، والرابع : الوقوف عند الحدود ، ولكل من هذه الأركان معانٍ تدلُّ على الله ، وتُقرب من الله ، وتُلزم بحسن اتباع رسول الله ﷺ ، ومن الركن الأول يتبينُ للعاقل أن الوفاء بالعهد باب يدخل منه على ساحة الطريق الموصل إلى الله تعالى ، على أن الوفاء بالعهد فيه سبعة فوائد :

﴿ ركن الوفاء بالعهود ﴾

الأولى إعظام جلال الله الذي وصل إليه عهده بواسطة نبيّه صلّى الله عليه وسلّم ، فإذا قرّ في قلبه إعظام جلال الله تنبّه عقله ، وتيقظ قلبه لامتثال أوامر الله ، واجتناب نواهيه ، وبذلك يصل إلى ذروة النجاح في أمري الدنيا والآخرة ، ويجتمع له شتات أمره بتوفيق الله .

والفائدة الثانية معرفة قدر رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم الذي منّ الله تعالى عليه بواسطته أن هداه للإيمان ، وأخرجه من الظلمات إلى النور ، وفيها شأن التمكن باتّباعه عليه الصلاة والسلام ، والحياء منه أعزّ

الله رفيع مكانته أن ينحرف عن سُنّته ، أو أن يبادر إلى مخالفته ، فإن من عرف قدر المنعم وأدرك قدر النعمة أيضاً عظّم النعمة بدوام الطاعة للمنعم ، والتقرُّب إليه بكل مايرضيه .

والفائدة الثالثة احترام الواسطة التي مَنّ الله تعالى عليه بسببها أن عرّفه عِظَم جلاله ، ورفيع قدر نبيّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم فأحكم رابطة الحب إعظاماً لهذين الأصلين الرفيعين للواسطة ، وأقام لها في قلبه دعائم الودّ وبذلك ينقطع العاقل عن الأغيار الذين يقطعونه عن طريق الله ورسوله عليه الصلاة والسلام ، فلايزال حينئذ مقبلاً بسبب الواسطة على إحكام مابينه وبين الله من الرابطة .

والفائدة الرابعة محبة كل من أصحاب شرف العهد المنسوبين إلى الله ورسوله عليه السلام ، ووراّث شريعته وطريقته الأعلام ، وفي ذلك من بركة التعاون على البِرّ والتقوى ماهو ظاهر باهر ، وفيه أيضاً السلامة من قرين السوء الذي يصرف قلب قرينه بتسويلاته الأبليسية إلى الغفلة والحالة الدنية ، وفيه الوقوف تحت راية الفلاح بالاندراج في حزب الله الذين قال فيهم ﴿ أُولَئك حزب الله ألاَ إن حزب الله هم المفلحون ﴾ والأمْن من خيبة خُلّة قرين سيّء تسربله لأجله أثواب الندامة يوم القيامة ، فيقول بعد أن يبكي كثيراً ويضحك قليلاً ﴿ ياليتني لم أتّخذ فلاناً خليلا ﴾ وفيه شرف الانتساب لأمر رب الأرباب بقوله تعالى : ﴿ واتّبع سبيل من أناب ﴾ .

والفائدة الخامسة عُلوّ الهمة التي يلحق بسببها الوضيع بأعلام الأمة ، على أن الهمة لاتصح إلاّ بسائق طلب متين يتعلق بمطلوب عزيز ، وهذا

السر لايكشفه إلاّ أصحاب الوفاء بالعهود الذين صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، فانحرفوا عن الأغيار والتجؤوا إليه .

ويناسب هذا مانقله شيخنا ومولانا إمام الصوفية ، ومقتدى السادة الأحمدية ، الغوث الأكبر ، والعَلَم الأشهر ، سيدنا السيد أحمد الرفاعي الحسيني رضي الله عنه في كتابه (البرهان) بما نصّه : لايقرب المحب من محبوبه حتى يبعد من عدوّه ، رمى بعض المريدين ركوته في بعض الآبار ليستقي الماء فخرجت مملوءة بالذهب فرمى بها في البئر وقال : ياعزيزي وحقك لا أُريد غيرك . من أثبت نفسه مريداً صار مُراداً ، من أثبت نفسه طالباً صار مطلوباً ، من عكف على الباب دخل الرحاب ، ومن أحسن القصد بعد الدخول تصدَّر في غرفة الوصلة ، دخل عليّ كرّم الله وجهه ورضي الله عنه مسجد رسول الله ﷺ فرأى أعرابياً في المسجد يقول : إلهي أُريد منك شويهة . ورأى أبا بكر الصديق رضي الله عنه في زاوية أُخرى يقول : إلهي أُريدك . شتّان مابين المرادَيْن ، شتّان مابين الهمّتين ، تلعب الآمال بالعقول ، تلعب بالهمم ، كل يطير بجناح همته إلى أمله ومقصد قلبه ، فإذا بلغ غاية همته وقف فلم يجاوزها ، قال تعالى: ﴿ قل كلٌّ يعمل على شاكلته ﴾ أي على نيّته وهمّته . انتهى .

وقد ورد في الخبر الرفيع الشان « علوّ الهمّة من الإيمان » وعلى قدر ترقّي الهمّة إلى مرتبة الوفاء بعهد الله يكون ازدياد نور الإيمان ، وانكشاف حجب القلب الساترة له عن درك الحقائق التي استودعها الخالق في كلٍّ من الخلائق .

والفائدة السادسة النصيحة لكل من المخلوقين ، تقرُّباً لرب العالمين ،

بالحثُ على الوفاء بعهد الله ، بالقيام بتعظيم ماكان عليه رسول الله ﷺ شفقة على خلق الله ، وعملاً بقول رسول الله ﷺ : « إن الدين النصيحة إن الدين النصحية إن الدين النصيحة » وقد كنت قد أوضحت في بعض رسائلي معنى هذا الحديث الشريف حسبما قرّره أئمة الدين رضي الله عنهم أجمعين ، فقلت : النصح لله تعالى هو الإقرار والتصديق بوحدانيته وكماله وقدرته وتنزيهه عن كل نقص مع الخضوع له والرضا منه في كل حال ، والائتمار بما أمر به ، والانتهاء عما نهى عنه ، والنصيحة لكتابه تعالى بحفظه من التحريف والتأويل الباطل ، وتعظيم أحكامه الشريفة بالتأويلات الصحيحة ، وقراءته وتلاوته بالأدب والتجويد ورعاية معانيه وتعلمها لذي القدرة من عباد الله تعالى .

والنصح لرسوله ﷺ التصديق بكافة الأحكام التي جاء بها ﷺ مع حُسن التخلُق بأخلاقه الجميلة الشريفة ، والعمل بطريقته وشريعته ، والترغيب بالوسائل الممدوحة للتأدُّب بآدابه عليه الصلاة والسلام .

والنصح لأئمة المسلمين (يعني من حاز الإمامة الكبرى والخلافة العظمى) هو أنه إذا غفل الأمير حسب البشرية عن قضية لازمة في مُلكه لإصلاح أمر الرعية ، وتشييد الأركان الدينية ، يعرض له الناصح حقيقة الحال بحسن التعبير بلاغرض ولا آمال ، وأن يجمع له القلوب النافرة عنه ويجلبها بالأساليب الممدوحة لمحبته ويدفع عنه حركة الفساد ، ويقطع بحسن نصيحته عنه ألسنة أهل البغي والعناد ، ويشتغل بصالحه وقضاء مصالحه على مقتضى إمكانه .

والنصح للمسلمين هو الشفقة عليهم والتعظيم لكبيرهم والمرحمة

لصغيرهم والفرح لفرحهم والحزن لحزنهم ، وهذا هو المقصود من قوله تعالى في كتابه الكريم ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ﴾ .

والفائدة السابعة الانتصار لله والحب في الله والبغض لله ومعنى الانتصار لله الانتصار لأوامر الله تعالى بأن يعظمها في نفسه وأن يسوق إلى تعظيمها غيره ، وقال غير واحد : الانتصار لله تأييد كل أمر يؤول إلى الله . وقال مولانا السيد سراج الدين المخزومي الرفاعي رضي الله عنه : الانتصار لله مجاهدتك نفسك في الله ، وإرشاد غيرك إلى الله ، وتعظيمك ماكان عليه رسول الله ﷺ . ولهذا قال المشايخ قدّست أرواحهم : لن يتم النصر لمجاهد في الله حتى ينتصر لأوامر الله في نفسه وغيره ؛ وقالوا : الانتصار لله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتلوا قوله تعالى : ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ الآية .

وذكر صاحب (مكاشفة القلوب) في الباب الخامس عشر من كتابه عند قوله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ مانصّه قال الكلبي : هذه الآية تتضمن بيان حال هذه الأمة في الفضل على غيرها من الأمم وفيها دليل على أن هذه الأمة الإسلامية خير الأمم على الإطلاق ، وأن هذه الخيرية مشتركة بين أوّل هذه الأمة وآخرها بالنسبة إلى غيرها من الأمم ، وإن كانت متفاضلة في ذاتها كما ورد في فضل الصحابة على غيرهم ، ومعنى أُخرِجَتْ أُظهرت للناس أي لنفعهم ومصالحهم في جميع الأعصار حتى تميّزت وعُرفت ، وقوله تعالى: ﴿ تأمرون بالمعروف وتنهون

عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ كلامٌ مُستأنف يتضمن بيان كونهم خيراً مع مايشتمل عليه من أنهم خير أُمة ما أقاموا على ذلك واتّصفوا به ، فإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر زال عنهم ذلك فجعلهم الله خير الناس للناس لأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقاتلون الكفار ليسلموا فترجح منفعتهم على غيرهم ، كما قال ﷺ : « خير الناس من ينفع الناس وشر الناس من يضر الناس » ، ﴿ تؤمنون بالله ﴾ أي تصدّقون بتوحيد الله ، وتثبتون على ذلك ، وتُقرّون أن محمداً نبي الله ، لأن من كفر بمحمد ﷺ لم يؤمن بالله ، لأنه يزعم أن الآيات المعجزات أتى بها من عند نفسه ، وقال ﷺ : « من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » يعني أضعف فعل أهل الإيمان .

قال بعضهم : التغيير باليد للأُمراء ، وباللسان للعلماء ، وبالقلب للعوام .

وقال بعضهم : كل من يقدر على ذلك فالواجب عليه أن يُغيّره كما قال الله تعالى: ﴿ وتعاونوا على البرّ والتقوى ولاتعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ الآية . ومن التعاون الحثّ عليه ، وتسهيل طُرق الخير إليه ، وسدُّ سبيل الشرور والعدوان بحسب الإمكان ، وقال ﷺ في حديث آخر : « من انتهر صاحب بدعة ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً ومن أهان صاحب بدعة آمنه الله يوم الفزع الأكبر ومن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في الأرض وخليفة كتابه وخليفة رسوله » عن حذيفة رضي الله عنه قال : يأتي على الناس زمان لئن تكون فيهم جيفة حمار أحبّ إليهم من مؤمن يأمرهم وينهاهم .

قال موسى : يارب ما جزاء من دعا أخاه وأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر ، قال : أكتب له بكل كلمة عبادة سنة وأستحيي أن أعذّبه بناري .

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى : « ياابن آدم لاتكن ممن يؤخر التوبة ويطوّل الأمل ، ويرجع إلى الآخرة بغير عمل ، يقول قول العابدين ، ويعمل عمل المنافقين ، إن أُعطي لم يقنع ، وإن مُنع لم يصبر ، ويحب الصالحين وليس منهم ، ويُبغض المنافقين وهو منهم ، يأمر بالخير ولا يفعله ، وينهى عن الشر ولم ينته عنه » .

وعن عليٍّ كرّم الله وجهه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيأتي قوم في آخر الزمان أحداث الأسنان نواقص العقل ، يقولون من قول خير البرية لايجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة » وقال رسول الله ﷺ : « رأيت ليلة أُسري بي إلى السماء رجالاً تُقرَض شفاههم بمقاريض من النار قلت من هؤلاء ياجبريل ؟ » قال : هؤلاء خطباء أُمّتك الذين يأمرون الناس بالبرّ وينسون أنفسهم . كما قال الله تعالى في حقّهم : ﴿ أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ يعني تتلون كتاب الله ولاتعملون بما فيه ، فكانوا يأمرون بالصدقة ولايتصدّقون ، فيجب على المؤمنين أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ولاينسوا أنفسهم كما قال الله تعالى: ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ﴾ الآية فقد نعت المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف فالذي هجر الأمر بالمعروف خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين في هذه الآية ، وقد ذمّ الله أقواماً بترك الأمر بالمعروف ، فقال: ﴿ كانوا لايتناهون عن منكر

فعلوه ﴾ يعني لاينهى بعضهم بعضاً ﴿ لبئسما كانوا يفعلون ﴾ . رُوي عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال : « لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليسلِّطن الله عليكم سلطاناً ظالماً لايجلُّ كبيركم ، ولايرحم صغيركم ، ويدعو خياركم فلايستجاب لهم ، ويستنصرون فلاينصرون ، ويستغفرون فلايغفر لهم » .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « عذّب الله أهل قرية فيها ثمانية عشر ألفاً عملهم عمل الأنبياء » قالوا : يارسول الله كيف ؟ قال : « لم يكونوا يغضبون لله ولايأمرون بالمعروف ولاينهون عن المنكر » . وقال أبو ذرّ الغفاري : قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : يارسول الله هل من جهاد غير قتال المشركين ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم يا أبا بكر إن لله تعالى مجاهدين في الأرض أفضل من الشهداء أحياء مرزوقين يمشون على الأرض يباهي الله بهم ملائكة السماء وتُزيَّن لهم الجنة كما تزيَّنت أُمُّ سلمة لرسول الله » فقال أبو بكر رضي الله عنه : يارسول الله ومن هم ؟ قال : « الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والمحبون في الله والمبغضون في الله ، ثم قال : والذي نفسي بيده إن العبد ليكون في الغرفة فوق الغرفات فوق غُرف الشهداء لكل غرفة منها ثلاثمائة باب منها الياقوت والزمرد الأخضر على كل باب نور وإن الرجل منهم ليتزوّج بثلاثمائة ألف حوراء قاصرات الطرف عين كلما ألتفت إلى واحدة منهن فنظر إليها تقول له أتذكر يوم كذا وكذا أمرت فيه بالمعروف ونهيت عن المنكر ؟ وكلما ألتفت إلى واحدة منهن ذكرت له مقاماً أمر فيه بالمعروف ونهى عن المنكر » .

وأما الحب في الله والبغض في الله فهو عين الانتصار لله سبحانه ، لأن

صاحب هذا المقام يدور مع الحق منحرفاً عن غرض نفسه يحب من أحبّه الله ، ويبغض من أبغضه الله ، على أن حبّ من أحبّه الله ينفع المرء عند الله ، وقد سأل رسول الله ﷺ هذا الشأن من ربه في دعائه فقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم ارزقني حبك وحب من ينفعني حبه عندك » . وقال الشيوخ : من كمال الإيمان بالله حب ما أحبّه الله ، وبغض ما أبغضه الله . وقد كان رسول الله ﷺ لاينتصر من مظلمة ظُلِمَها قط مالم تكن حرمة من محارم الله تعالى ، وكان لايغضب لنفسه الزكية ويغضب إذا انتهكت محارم الله ، وهذا هو الوفاء بعهد الله سبحانه وتعالى .

﴿ الركن الثاني الرضا بالموجود ﴾

الركن الثاني من الأركان التي بُني عليها أصل هذا الطريق المبارك الرضا بالموجود كما تقرّر آنفاً وهو : أي الرضا تمام الذبول تحت مجاري الأقدار الربانية بالتسليم المحض لكل ما أنفذه سبحانه وتعالى علماً بأن الله تعالت قدرته هو الفعّال المتصرف في كل أمر قليل أو كثير ، وهو على كل شيء قدير .

وقال بعضهم : الرضا من الله هو أن يُنسب إليه سبحانه كل فعل حسن مليح ، وأن يَنسب أي العبد إلى نفسه كل فعل سيّء قبيح ؛ وأن يتم شأن هاتين النسبتين بامتثال أوامر الله ومخالفة النفس ، وعلى ذلك درج أكابر أصحاب الخرقة رضي الله عنهم أجمعين .

ويؤيّد قول هذا القائل مارواه أبو ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يروي عن الله عزّ وجلّ أنه قال : « ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلاتظالموا ياعبادي كلكم ضال إلاّ من هديته

فاستهدوني أهدكم ياعبادي كلكم جائع إلاّ من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ياعبادي كلكم عار إلاّ من كسوته فاستكسوني أكسكم ياعبادي إنكم تخطؤون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم ياعبادي إنكم لم تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك في ملكي شيئاً ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم مانقص ذلك من ملكي شيئاً ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته مانقص ذلك مما عندي إلاّ كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر ياعبادي إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم ثم أُوفيكم إيّاها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلايلومنّ إلاّ نفسه » .

وإن من شأن القوم رضي الله عنهم الرضا عن الله تعالى في كل حالة يكونون عليها فلايكون عندهم سخط لشيء مما يجريه عليهم ، ولا ازدراء لما أعطاه كائناً ماكان ، فإن الحق سبحانه وتعالى أعلم بمصالحهم منهم فلايفعل بهم إلاّ خيراً ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾ الآية ، فالحكمة الإلهية كاملة لاتقتضي أن يُعطى العبد غير ما أُعطي من أعلى وأدنى ، فلو أُعطي غير ذلك فسد حاله كما يشير إليه الحديث القدسي « إن من عبادي من لايصلح له إلاّ الفقر ولو أغنيته لفسد حاله » إذا علمت ذلك وعلمت أن كل من أُعطي شيئاً فهو الأكمل في حقه والأصلح حكمة بالغة من حكيم عليم ، فالأكمل في حق الأنبياء النبوّة ، وفي حق الولي الـولاية ، وفي المؤمن الإيمان ، وفي العـالم العلم ، وفي حق المحـترف

الحرقة ، وفي حق غير المحترف عدمها ، وهكذا وهنا أسرار يعلمها أهل الله تعالى فطلب العبد الانتقال من الحالة التي هو فيها اختيار غير ما اختار الله له ، وهو مؤذن بأنه يدّعي أنه أعلم بمصالحه من الله وكفى به جهلاً وكفراً ، وكل ماذكرناه مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ فافهم ، وقد جمع صاحب (آداب الأقطاب) في الرضا نبذة صالحة وهاهي بنصّها :

قال : قد أكثر المتصوفة في ذكر الرضا واختلفوا فيه فمنهم من قال : حال . ومنهم من قال : مكتسب . وقالوا : الراضي بالله لايعترض على مقاديره . قال أبو علي الدقاق : الرضا أن لاتعترض على الحُكم والقضا . قال المشايخ : الرضا باب الله الأعظم . يعني من لزم الرضا فقد لُقي بالترحيب الأوفى ، وأُكرم بالتقريب الأعلى ، فالرضا لايقع من العبد إلا بعد الرضا عنه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ وقد جاء أن موسى عليه السلام قال : إلهي دلّني على عمل إذا عملته رضيت عني . فقال : إنك لاتطيق ذلك . فخرّ موسى عليه السلام ساجداً متضرّعاً ، فأوحى الله تعالى إليه يا ابن عمران رضائي في رضاك بقضائي . وقد سُئلت رابعة متى يكون العبد راضياً . فقالت : إذا سرّته المصيبة كما تسرّه النعمة . وقيل للحسين بن علي عليهما السلام إن أبا ذر يقول : الفقر أحبُّ إليّ من الغنى ، والسقم أحبُّ إليّ من الصحة . فقال : رحم الله أبا ذر أمّا أنا فأقول : من اتكل على حسن اختيار الله تعالى لم يتمنّ غير ما اختاره الله عزّ وجل له . وسُئل أبو عثمان عن قول النبي ﷺ : « أسألك الرضا بعد القضاء » فقال : لأن الرضا بعد القضاء هو الرضا .

وقال أبو سليمان الداراني : أرجو أن أكون عرفت طرفاً من الرضا لو أنه أدخلني النار لكنت راضٍ بذلك . قال المحاسبي : الرضا سكون القلب تحت مجاري الأحكام . وقال الحريري : من رضي بدون قدره رفعه فوق غايته . وقال أبو تراب النخشبي : لاينال الرضا من للدنيا في قلبه مقدار . قال رسول الله ﷺ : « ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً » وقال أبو عثمان : منذ أربعين سنة ما أقامني الله في حال فكرهته وما نقلني إلى غيره فسخطته .

وقال في (مكاشفة القلوب) في شأن الرضا : أما أفضل الرضا من الآيات فقوله تعالى : ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ وقد قال تعالى : ﴿ هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان ﴾ ومنتهى الإحسان رضا الله عن عبده وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى ، وقال تعالى: ﴿ ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ﴾ فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ﴾ فكما أن مشاهدة المذكور في الصلاة أكبر من الصلاة فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة بل هو غاية مطلب سكان الجنان . وفي الحديث « إن الله تعالى يتجلّى للمؤمنين فيقول سلوني فيقولون رضاك فسؤالهم الرضا بعد النظر نهاية التفضيل » وأما رضا العبد فسنذكر حقيقته ، وأمّا رضوان الله تعالى عن العبد فهو بمعنى آخر يقرب مما ذكرناه في حب الله للعبد ، ولايجوز أن يكشف عن حقيقته إذ تقصر أفهام الخلق عن دركه ، ومن يقوى عليه فيستقل بإدراكه من نفسه ، وعلى الجملة فلارتبة فوق النظر إليه فإنما سألوا الرضا لأنه سبب دوام النظر ،

فكأنهم رأوه غاية الغايات وأقصى الأماني لما ظفروا بنعيم النظر ، فلما أُمروا بالسؤال لم يسألوا إلاّ دوامه وعلموا أن الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب ، وقال الله تعالى : ﴿ ولدينا مزيد ﴾ قال بعض المفسرين : يأتي أهل الجنة في وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين :

إحداها : هدية من عند الله تعالى ليس عندهم في الجنان مثلها فذلك قوله تعالى : ﴿ فلاتعلم نفس ما أُخفي لهم من قرّة أعين ﴾ .

والثانية : السلام عليهم من ربهم فيزيد ذلك على الهدية فضلاً ، وهو قوله تعالى : ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ .

والثالثة : يقول الله تعالى : إني عنكم راض فيكون ذلك أفضل من الهدية والتسليم ، فذلك قوله تعالى : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ أي من النعيم الذي هم فيه فهذا أفضل رضا الله تعالى وهو ثمرة رضا العبد .

وأما فضله من الأخبار فقد رُوي أن النبي ﷺ سأل طائفة من أصحابه « ما أنتم ؟ » فقالوا : مؤمنون . فقال : « ماعلامة إيمانكم ؟ » فقالوا : نصبر على البلاء ، ونشكر عند الرخاء ، ونرضى بمواقع القضاء . فقال : « مؤمنون ورب الكعبة » . وفي خبر آخر أنه قال : « حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء » وفي الخبر « طوبى لمن هدي للإسلام وكان رزقه كفافاً ورضي به » وقال ﷺ : « من رضي من الله تعالى بالقليل من الرزق رضي الله تعالى منه بالقليل من العمل » وقال : « إذا أحبّ الله تعالى عبداً ابتلاه فإن صبر اجتباه فإن رضي اصطفاه » وقال أيضاً : « إذا كان يوم القيامة أنبت الله تعالى لطائفة من أُمتي أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها ويتنعمون فيها كيف

شاؤوا ، فتقول لهم الملائكة هل رأيتم الحساب ؟ فيقولون : مارأينا حساباً . فتقول لهم : هل جزتم الصراط ؟ فيقولون : مارأينا صراطاً . فتقول لهم : هل رأيتم جهنم ؟ فيقولون : مارأينا شيئاً . فتقول الملائكة : من أُمّة من أنتم ؟ فيقولون : من أُمّة محمد ﷺ . فتقول نشدناكم الله حدّثونا ماكانت أعمالكم في الدنيا ؟ فيقولون : خصلتان كانتا فينا فبلغنا هذه المنزلة بفضل رحمة الله . فيقولون : وما هما ؟ فيقولون : كنا إذا خلونا نستحيي أن نعصيه ونرضى باليسير مما قسم لنا . فتقول الملائكة : يحق لكم هذا .

وقال ﷺ : « يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلاّ فلا » وفي أخبار موسى عليه السلام أن بني اسرائيل قالوا له : سل لنا ربك أمراً إذا نحن فعلناه يرضى به عنا . فقال موسى عليه السلام : إلهي قد سمعت ماقالوا : فقال : ياموسى قل لهم يرضون عني حتى أرضى عنهم ويناسب هذا المعنى قولي :

إن كُنت ممن يرتجي حُسن الرضا   من ربه فارْضَ الزمانَ بفعله
فلئن يعاقب عبده فبعدله   ولئن يُبلِّغه المنى فبفضله

* * *

﴿ الركن الثالث الصبر على المفقود ﴾

والركن الثالث من الأركان التي بُني أصل الطريق عليها الصبر على المفقود ، وهو الصبر عن كل شيء دون الله ، ولقد أحسن القائل :

الصبر يجمل في الأُمور جميعها   إلاّ عليه فإنه لا يجمل

* * *

ومعنى الصبر هو ثبات داعي الدين والعقل في مقابلة داعي الشهوة والغضب ، فإذا تجاذب المرء داعيان متضادان فدفع الداعي إلى الإقدام والمبادرة ومال إلى داعي التأخير فوافقه دخل في أعداد الصابرين الذين أكرمهم الله بمعية معونته بقوله تعالى : ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾ ولايتم شأن الصبر للعبد إلاّ بالمقاساة والمجاهدة وقهر النفس ، وفي الصبر من التخلُّق بأخلاق الله تعالى شأن حميد لاتخفى بركته على متشرع أبداً ، وقد أمرنا بذلك نبيّنا حبيب الله عليه الصلاة والسلام فقال : « تخلّقوا بأخلاق الله تعالى » والصبور اسم من أسمائه سبحانه وتعالى ، قال العلماء في معناه : هو الذي لاتحمله العجلة على المسارعة إلى الفعل قبل أوانه ، بل ينزل الأمور كلها بقدر معلوم ، ويُجريها على سنن محدود ، ولايؤخرها عن آجالها المقدّرة لها تأخير متكاسل ، ولايقدّمها على أوقاتها تقديم مستعجل ، بل يودع كل شيء في أوانه على الوجه الذي يجب أن يكون وكما ينبغي ، كل ذلك من غير مُقاساة وداع على مضادة الإرادة ، فإن المُقاساة شأن العبد في صبره لتغلُّب باعث العجلة إليه ، وباعث العجلة في حق الله معدوم ، تعالى الله عما يقول الظالمون عُلوّاً كبيراً . وقد جاء في فضل الصبر من الآيات القرآنية ، والأخبار النبوية ، مايسرّ قلب المؤمن ؛ قال الغزالي : ذُكر الصبر في القرآن في نيف وتسعين موضعاً ، وأضاف القرآن أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له ، وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم ، فقال تعالى : ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين ، واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول .

وأما الأخبار فقد قال ﷺ : « الصبر نصف الإيمان » وقال ﷺ : « من أقلّ ما أُوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أُعطي حظه منهما لم يبالِ بما فاته من قيام الليل وصيام النهار ولئن تصبروا على ما أنتم عليه أحبُّ إليَّ من أن يوافيني كل امرىءٍ منكم بمثل عمل جميعكم ولكني أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدي فينكر بعضكم بعضاً وينكركم أهل السماء عند ذلك فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه » ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ ماعندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم ﴾ الآية ، وروى جابر أنه سُئل ﷺ عن الإيمان فقال : « الصبر والسماحة » وقال أيضاً : « الصبر كنز من كنوز الجنة » وسُئل مرة ما الإيمان ؟ فقال : « الصبر » وهذا يُشبه قوله ﷺ : « الحج عرفة » معناه مُعظم الحج عرفة ، وقال أيضاً ﷺ : « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس » وقيل : أوحى الله تعالى إلى داوود عليه السلام : تخلّق بأخلاقي وإن من أخلاقي أني أنا الصبور . وفي حديث عطاء عن ابن عباس لما دخل رسول الله ﷺ على الأنصار فقال : « أمؤمنون أنتم ؟ » فسكتوا فقال عمر : نعم يارسول الله .. قال : « وما علامة إيمانكم ؟ » قالوا : نشكر على الرخاء ، ونصبر على البلاء ، ونرضى بالقضاء . فقال ﷺ : « مؤمنون ورب الكعبة » ، وقال ﷺ : « في الصبر على ماتكره خير كثير » ، وقال المسيح عليه السلام : إنكم لاتدركون ماتحبون إلاّ بصبركم على ماتكرهون . وقال رسول الله ﷺ : « لو كان الصبر رجلاً لكان كريمًا والله يحب الصابرين » . وكان ﷺ كثير الصبر والتحمُّل للأذى ، وكان يقابل المسيء بالإحسان ، وإذا صدر من قوم في شأنه عليه السلام حال لايناسب عِظَم قدره الكريم يقول عافياً ﷺ : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لايعلمون » .

قال القاضي أبو الفضل رحمه الله تعالى : انظر ما في هذا القول من جماع الفضل ، ودرجات الإحسان ، وحُسن الخُلق ، وكرم النفس ، وغاية الصبر والحلم ، إذ لم يقتصر صلى الله عليه وسلم على السكوت عنهم حتى سامح وعفا ، ولم يقابلهم بالجفا ، ثم لم يكتف بذلك حتى منحهم بمحض الجود والعناية ، فدعا لهم بالمغفرة والهداية ، فقال : « اللهم اغفر » وفي رواية « اللهم اهدِ » وبيّن انتسابهم إليه ، وخصوصيتهم لديه ، فقال : « قومي » ولم يكتف بجميع ذلك حتى أتى عنهم بالاعتذار ، رجاء عدم المؤاخذة على ماصنعوه من الأوزار ، فقال : « فإنهم لايعلمون » .

وذكر في (آداب الأقطاب) مانصّه : جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ فاصبر صبراً جميلاً ﴾ أن يكون صاحب المصيبة في القوم لايُدرى من هو ؛ وجاء في الحديث إن رسول الله ﷺ سُئل عن الإيمان فقال : « الصبر والسماحة » وقال : « الصُبَّر جُلساء الله يوم القيامة » وأوحى الله عزّ وجل إلى بعض أنبيائه : أنزلت بعبدي بلائي فدعا لي فماطلته بالإجابة فشكاني فقلت عبدي كيف أرحمك ؟ من شيء به أرحمك . وقال الجنيد : الصبر تجرُّع المريد من غير تعبُّس . وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من البدن . وقال ذو النون : الصبر التباعد عن المخالفات بالشكوى عند تجرُّع غصص البلية ، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة . وقال ابن عطاء : الصبر الوقوف مع البلاء بحسن الأدب . وقيل : هو الفناء في البلوى من غير شكوى . وقد قال الله تعالى : ﴿ ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون ﴾

وقال بعض المشايخ : الصبر هو الثبات مع الله تعالى ، وتلقّي البلاء بالرحب والسعة . وقال الخواص : الصبر على أحكام الكتاب والسُّنَّة . وقال رويم : الصبر ترك الشكوى . وقال عليّ بن أبي طالب عليه السلام : الصبر مطية لاتكبُو . وقال أبو محمد الحريري : الصبر أن لايفرّق بين حال النعمة والمحنة مع سكون الخاطر فيهما . وما أحسن قول بعض الشعراء :

صبرت ولم أُطلع سواك على صبري   وأخفيت مابي منك عن موضع الصبر

مخافة أن يشكو ضميري صبابتي   إلى ادمُعي سراً فتجري ولا أدري

* * *

ويعجبني قول القائل من البحر والقافية : سأصبر . البيت إلى آخره فضمّنته وجعلته ذيلاً وقلت :

يُكلّفني الصبر المرير أحبّتي   على الهجر واويلاه من ألم الهجر

ومن أين لي صبر على الهجر إنما   إذا كنت موعوداً يُعلّلني فكري

صبرت عليهم راضياً ماقضوا به   وصابرت جهدي في الهوى ووهى أمري

(سأصبر حتى يعلم الصَّبْر أنني   صبرت على شيء أمرُّ من الصبر)

* * *

وحَسنٌ مارُوي عن بعضهم وهو : الصبر لله عناء ، والصبر بالله بقاء ، والصبر في الله بلاء ، والصبر مع الله وفاء ، والصبر عن الله جفاء .

﴿ الركن الرابع الوقوف عند الحدود ﴾

والركن الرابع من الأركان التي بُني عليها أصل الطريق : الوقوف عند الحدود ، قال العارفون : الوقوف عند الحدود التي حدّها الله ورسوله ﷺ باب شرف لايُغلق ، وقالوا : الوقوف عند حدود الله حصن لايُقلب ، وجاه لايُغلب ، والوقوف عند الحدود : هو الجمع بين إحياء السُنّة وإماتة البدعة . وقد قال بعضهم : الوقوف عند الحدود مقام من أحبّ الله ورسوله ، وتلا ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتّبعوني يحببكم ﴾ الآية ، وقد ورد أن أقواماً على عهد رسول الله ﷺ قالوا : يارسول الله إنا لنحبّ ربنا . فأنزل الله هذه الآية . وقال جمّ من العلماء العاملين رضي الله عنهم : الوقوف عند الحدود الأمانة على الأوامر والنواهي .

قال في (مكاشفة القلوب) قال الله تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ﴾ أي امتنعن من قبولها وأشفقن منها ، أي خفن من الأمانة أن لايؤدّينها فيلحقهن العقاب ، أو خفن من الخيانة فيها ، ومعنى الأمانة في هذه الآية الطاعة والفرائض التي يتعلق بأدائها الثواب والعقاب .

قال القرطبي : الأمانة تعمّ جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال وهو قول الجمهور ، واختلف في تفاصيل بعضها ، فقال ابن مسعود : هي في أمانة الأموال كالودائع وغيرها ، ورُوي عنه : انها في كل الفرائض وأشدّها أمانة المال . وقال أبو الدرداء : غسل الجنابة أمانة . وقال ابن عمر : أوّل ماخلق الله من الإنسان فرجه وقال : هذه أمانة استودعتكها فلاتلبسها إلاّ بحق فإن حفظتها حفظتك ، فالفرج أمانة ،

والأُذن أمانـة ، والعـين أمانة ، واللسان أمانة ، والبطن أمانة ، واليد أمانة ، والرِّجل أمانة ، ولا إيمان لمن لا أمانة له .

قال الحسن : إن الأمـانـة عرضت على السماوات والأرض والجبال فاضـطربت ومـا فيها ، فقال الله لها : إن أحسنتِ أجرتك وإن أسأتِ عذَّبتك . فقالت : لا . قال مجاهد فلما خلق الله آدم عرضها عليه وقال له ذلك . فقال : قد تحملتهـا ، ولايخفى أن عرض هذه الأمانة على السماوات والأرض والجبال عرض تخيير لا عرض إلزام ، ولو ألزمهن لم يمتنعن من حملها .

وقـال القفّـال وغيره : العرض في هذه الآية ضرب مثل ، أي أن السماوات والأرض والجبال على كبر أجرامها لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تقلُّد الشرائع لما فيها من الثواب والعقاب ، أي أن التكليف أمر عظيم ، حقّه أن تعجز عنه السماوات والأرض والجبال ، وقد كُلِّفه الإنسان كما قال تعالى : ﴿ وحملها الإنسان ﴾ أي ألتزم بحقّها آدم بعد عرضها عليه في عالم الذر عند خروج ذرِّيته من ظهره ، وأخذ الميثاق عليهم ﴿ إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ أي وهو في ذلك الحَمْل ظلوم لنفسه ، جهول بقدر مادخل فيه أو جهول بأمر ربه .

وعن ابن عباس قال : عُرضت الأمانة على آدم فقيل:خذها بما فيها ، فإن أطعت غفرت لك ، وإن عصيت عذَّبتك . قال : قبلتها بما فيها ، فما كان إلاّ مابين العصر إلى الليل من ذلك اليوم حتى أكل من الشجرة لولا أن تداركه الله برحمته فتاب عليه وهدى . والأمانة مشتقة من الإيمان

فمن حفظ أمانة الله حفظ الله إيمانه . قال ﷺ : « لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له » وقال الشاعر :

تبّاً لمن رضيَ الخيانة مهيعا وازوَرّ عن صون الأمانة جانبه
رفض الديانة والمروءة فاغتدى تترى عليه من الزمان مصائبه

* * *

وقال آخر :

أخلق بمن رضيَ الخيانة شيمة أن لايرى إلّا صريع حوادث
مازالت الأرزاء تنزل بُؤسها أبداً بغادر ذِمّة أو ناكث

* * *

وقال رسول الله ﷺ : « يُطبع المؤمن على كل خُلُق إلّا الخيانة والكذب » وقال رسول الله ﷺ : « لاتزال أُمّتي بخير مالم تر الأمانة مغنمًا والصدقة مغرماً » وقال ﷺ : « أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولاتخن من خانك » . وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « آية المنافق ثلاث إذا حدَّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتُمن خان » أي إذا ائتمنه أحد بكلمة خانه بإفشائها للناس ، أو بوديعة خانه بإنكارها وعدم حفظها أو استعمالها بغير إذنه . فحفظ الأمانة صفة الملائكة المقربين ، والأنبياء والمرسلين ، وشيمة الأبرار المتقين ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ قال المفسرون : هذه الآية مشتملة على كثير من أُمهات الشرع ، والمخاطَب بها عموم المكلفين الولاة وغيرهم ، فيجب على الولاة إنصاف المظلوم وإظهار حقه وذلك أمانة ، وحفظ أموال المسلمين لاسيما اليتامى ، ويجب على العلماء

تعليم العوام أحكام دينهم فهي أمانة اختار لحفظها العلماء ، ويجب على الوالد رعاية ولده بحسن التأديب إذ هو أمانة عنده . قال ﷺ : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » .

قال الإمام شهاب الدين السهروردي رضي الله عنه في كتابه (العوارف) : أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين أبو أحمد عبد الوهاب بن علي قال : أخبرنا أبو الفتح عبد الملك بن أبي القاسم الهروي قال : أخبرنا أبو نصر عبد العزيز بن محمد التِرياقي قال : أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي قال : أخبرنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي قال : أخبرنا أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي قال : حدَّثنا مسلم بن حاتم الأنصاري قال : حدَّثنا محمد بن عبد الله الأنصاري عن أبيه عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيِّب قال : قال أنس بن مالك رضي الله عنه : قال لي رسول الله ﷺ : « يابُنَيَّ إن قدرت أن تصبح وتمسي وليس في قلبك غش لأحد فافعل ثم قال يابُنَيَّ وذلك من سُنَّتي ومن أحيا سُنَّتي فقد أحياني ومن أحياني كان معي في الجنة » . وهذا أتم شرف ، وأكمل فضل أخبر به الرسول ﷺ في حق من أحيا سُنَّته ، فالصوفية هم الذين أحيوا هذه السُّنَّة ، وطهارة الصدور من الغلِّ والغش عماد أمرهم ، وبذلك ظهر جوهرهم وبان فضلهم ، وإنما قدروا على إحياء هذه السُّنَّة ونهضوا بواجب حقها لزهدهم في الدنيا وتركها على أربابها وطلاَّبها ، لأن مثار الغل والغش محبة الدنيا أو محبة الرفعة والمنزلة عند الناس ، والصوفية زهدوا في ذلك كله ، كما قال بعضهم : طريقنا هذا لايصلح إلاّ لأقوام كُنست بأرواحهم المزابل . فلما سقط عن قلوبهم محبة الدنيا وحُب الرفعة أصبحوا وأمسوا

وليس في قلوبهم غش لأحد ، فقول القائل : كُنست بأرواحهم المزابل إشارة منه إلى غاية التواضع وأن لايرى نفسه تتميّز على أحد من المسلمين لحقارته عند نفسه ، وعند هذا ينسدُّ باب الغلّ والغش ، وجرت هذه الحكاية فقال بعض الفقراء من أصحابنا : وقع لي أن معنى كُنست بأرواحهم المزابل : أن الإشارة بالمزابل إلى النفوس ، لأنها مأوى كل رجس ونجس كالمزبلة ، وكنسها بنور الروح الواصل إليها لأن الصوفية أرواحهم في محالّ القُرب ونورها يسري إلى النفوس ، وبوصول نور الروح إلى النفس تطهر وتطمئن ويذهب عنها المذموم من الغل والغش والحقد والحسد ، فكأنها تكنس بنور الروح . وهذا المعنى صحيح وإن لم يُرد القائل بقوله ذلك ، قال الله تعالى في وصف أهل الجنة : ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين ﴾ .

قال أبو حفص : كيف يبقى الغل في قلوب ائتلفت بالله ، واتفقت على محبته ، واجتمعت على مودته ، وأنِسَت بذكره ، إن تلك قلوب صافية من هواجس النفوس وظلمات الطبائع ، بل كحلت بنور التوفيق فصارت إخواناً ، فالخلق حجابهم عن القيام بإحياء سُنَّة رسول الله ﷺ قولاً وفعلاً وحالاً صفات نفوسهم ، فإذا تبدّلت النفس ارتفع الحجاب وصَحّت المتابعة ، ووقعت الموافقة في كل شيء مع رسول الله ﷺ ووجبت المحبة من الله عند ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتّبعوني يحببكم الله ﴾ جعل متابعة الرسول ﷺ آية محبة العبد ربه ، وجعل جزاء العبد على حُسن متابعة الرسول محبة الله إيّاه ، فأوفر الناس حظاً من متابعة الرسول ﷺ أوفرهم حظاً من محبة الله ، والصوفية من بين طوائف الإسلام

ظفروا بحسن المتابعة لأنهم اتّبعوا أقواله فقاموا بها أمرهم ووقفوا عمّا نهاهم ، قال الله تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ ثم اتّبعوه في أعماله من الجد والاجتهاد في العبادة والتهجد والنوافل من الصوم والصلاة وغير ذلك ، ورُزقوا ببركة المتابعة في الأقوال والأفعال والتخلُّق بأخلاقه من الحياء والحلم والصفح والعفو والرأفة والشفقة والمداراة والنصيحة والتواضع ، ورُزقوا قسطاً من أحواله من الخشية والسكينة والهيبة والتعظيم والرضا والصبر والزهد والتوكل ، فاستوفوا جميع أقسام المتابعة وأحيوا سنّته بأقصى الغايات .

وقال سيدنا السيد أحمد الرفاعي الكبير رضي الله عنه في كتابه (البرهان) مانصّه : درج السلف على الحدود بلاتجاوز ، بالله عليكم هل يتجاوز الحد إلاّ الجاهل ؟ هل يدوس عثرة في الجب إلاّ الأعمى ؟ ماهذا التطاول ؟ وذلك المتطاول ساقط بالجوع ، ساقط بالعطش ، ساقط بالنوم ، ساقط بالوجع ، ساقط بالفاقة ، ساقط بالهرم ، ساقط بالعناء ، أين هذا التطاول من صدمة صوت (لمن المُلك اليوم) العبد متى تجاوز حدّه مع إخوانه يُعدُّ في الحضرة ناقصاً ، التجاوز علَم نقص يُنشر على رأس صاحبه ، يشهد عليه بالدعوى ، يشهد عليه بالغفلة ، يشهد عليه بالزهو ، يشهد عليه بالحجاب ، يتحدّث القوم بالنِّعم لكن مع ملاحظة الحدود الشرعية ، الحقوق الإلهية تطالبهم في كل قول وفعل ، الولاية ليست بفرعونية ولا بنمرودية قال فرعون : أنا ربكم الأعلى ، وقال قائد الأولياء وسيد الأنبياء ﷺ : « لست بملك » نزع ثوب التعالي والإمرة والفوقية ، كيف يتجرأ على ذلك العارفون ؟ والله يقول : ﴿ وامتازوا اليوم

أيها المجرمون ﴾ وصف الافتقار إلى الله وصف المؤمنين قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ﴾ هذا الذي أقوله علم القوم ، تعلّموا هذا العلم فإن جذبات الرحمن في هذا الزمان قلّت ، اصرفوا الشكوى إلى الله في كل أمر ، العاقل لايشكو لا إلى ملك ولا إلى سلطان ، العاقل كل أعماله لله ؛

أي سادة ماقلت لكم إلّا مافعلته وتخلّقت به فلا حجّة لكم عليّ ، إذا رأيتم واعظاً أو قاصاً أو مدرّساً فخذوا منه كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ وكلام أئمة الذين الذين يحكمون عدلاً ويقولون حقاً واطرحوا مازاد ، وإن أتى بما لم يأتِ به رسول الله ﷺ فاضربوا به وجهه ، الحذر الحذر من مخالفة أمر النبي العظيم صلوات الله وسلامه عليه ، قال تعالى : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ كان العراق أخّاذة المشايخ وعيبة العارفين ، مات القوم الله الله بمتابعتهم ، اخلفوهم بحُسن التخلّق ، أعقبوهم بصحة الصدق ، لاتلبسوا ثوب قوله تعالى : ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلوة واتّبعوا الشهوات ﴾ .

أي إخواني لاتخجلوني غداً بين يدي العزيز سبحانه وقد سبقكم أصحاب الأعمال المرضيات ، كل نَفَس من أنفاس الفقير أعزّ من الكبريت الأحمر إياكم وضياع الأوقات فإن الوقت سيف إن قطعه الفقير قطعه قال تعالى : ﴿ ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً ﴾ عليكم بالأدب فإن الأدب باب الأرب . انتهى .

حُكي عن سعيد بن المسيّب أنه قال : من لم يعرف ما لله عليه في

نفسه ، ولم يتأدّب بأمره ونهيه كان من الأدب في عزلة قال الله تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماءُ ﴾ .

وقد قال أئمة القوم : إن الوقوف عند حدود الله لايتوصل إليه إلاّ بجناحي الخشية والخوف ، وقد بالغ القوم في ذكر الخوف وأطال الإمام الغزالي في تفصيل شأن الخوف فقال :

حال الخوف ينتظم من علم وحال وعمل ، أما العلم فهو العلم بالسبب المفضي إلى المكروه ، وذلك كمن جنى على ملك ثم وقع في يده فيخاف القتل مثلاً ويجوز العفو أو الإفلات ، ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله ، وهو تفاحش جنايته ، وكون الملك في نفسه حقوداً غضوباً منتقمًا ، وكونه محفوفاً بمن يحثّه على الانتقام خالياً عمن يتشفع إليه في حقه ، وكان هذا الخائف عاطلاً عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك ، فالعلم بتظاهر هذه الأسباب سبب لقوّة الخوف وشدّة تألّم القلب وبحسب ضعف هذه الأسباب يَضعُف الخوف ، وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية قارفها الخائف بل عن صفة المخوف كالذي وقع في مخالب سبع فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهي سطوته وحرصه على الافتراس غالباً وإن كان افتراسه بالاختيار ، وقد يكون من صفة جِبِلّيّة للمخوف منه كخوف من وقع في مجرى سيل أو جوار حريق فإن الماء يُخاف لأنه بطبعه مجبول على السيلان والإغراق وكذا النار على الإحراق فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لاحتراق القلب وتألّمه وذلك الاحتراق هو الخوف، فكذا الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله ومعرفة صفاته وأنه لو أهلك

العالمين لم يبالِ ولم يمنعه مانع ، وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي ، وتارة يكون بهما جميعاً ، وبحسب معرفته بعيوب نفسه ومعرفته بجلال الله وتعاليه واستغنائه وأنه لايُسأل عما يفعل تكون قوة خوفه فأخوف الناس لربه أعرفهم بربه وبنفسه ، ولذلك قال ﷺ : « أنا أخوفكم لله » ولذلك قال تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماءُ ﴾ ، ثم إذا كملت المعرفة أورثت حال الخوف واحتراق القلب ، ثم يفيض أثر الحرقة من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات ، أما في البدن فبالنحول والصفار والغشية والزعقة والبكاء وقد تنشقُّ به المرارة فيفضي إلى الموت أو يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل أو يقوى فيورث القنوط واليأس ، وأما في الجوارح فيكفّها عن المعاصي ويقيّدها بالطاعات تلافياً لما فرط واستعداداً للمستقبل ، ولذلك قيل : ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه ، بل من يترك مايخاف أن يعاقب عليه ؛

وقال أبو قاسم الحكيم : من خاف شيئاً هرب منه ، ومن خاف الله هرب إليه . وقيل لذي النون : متى يكون العبد خائفاً ؟ قال : إذا نزّل نفسه منزلة السقيم الذي يحتمي مخافة طول السقم ؛

وأما في الصفات فهو أن يقمع الشهوات ويكدّر اللذات فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة ، كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا عرف أن فيه سُمّاً فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدّب الجوارح ، ويحصل في القلب الذبول والخشوع والذلّة والاستكانة ويفارقه الكبر والحقد والحسد بل يصير مستوعب الهم بخوفه والنظر في خطر عاقبته فلايتفرّغ لغيره ، ولايكون له شغل إلّا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضِنّة بالأنفاس

واللحظات ، ومؤاخذة النفس في الخطرات والخطوات والكلمات ، ويكون حاله حال من وقع في مخالب سبع ضاري لايدري أنه يغفل عنه فيفلت أو يهجم عليه فيهلك ، فيكون ظاهره وباطنه مشغولاً بما هو خائف منه لامتّسع فيه لغيره ، هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه ، وهكذا كان جماعة من الصحابة والتابعين ، وقوّة المراقبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذي هو تألم القلب واحتراقه ، وقوّة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى وصفاته وأفعاله وبعيوب النفس ومابين يديها من الأخطار والأهوال ، وأقلّ درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال أن يمنع المحظورات ويُسمّى الكفّ الحاصل عن المحظورات ورعاً ؛ فإن زادت قوّته كفّ عما يتطرّق إليه إمكان التحريم ، فكيف عما لايتيقّن أيضاً بجرائمه ويُسمّى ذلك تقوى الله ، إذ التقوى أن يترك مايريبه إلى ما لايريبه ، وقد يحمله إلى أن يترك ما لابأس به مخافة ما به بأس وهو الصدق في التقوى ، فإذا انضمّ إليه التجرُّد في الخدمة فصار لايبني ما لايسكنه ، ولايجمع ما لايأكله ، ولايلتفت إلى دنيا يعلم أنها تفارقه ، ولايصرف إلى غير الله نَفَساً من أنفاسه فهو الصدق ، وصاحبه جدير بأن يُسمّى صِدِّيقاً ، ويدخل في الصدق التقوى ، ويدخل في التقوى الورع ، ويدخل في الورع العفّة فإنها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة ، فإذاً الخوف يؤثّر في الجوارح بالكفّ والإقدام ويتجدد له بسبب الكفّ إسم العفّة ، وهو كفّ عن مقتضى الشهوة وأعلى منه الورع فإنه أعمّ لأنه كفٌّ عن كل محظور ، وأعلى منه التقوى فإنه إسم للكفّ عن المحظور والشُّبَه جميعاً ، ووراءه إسم الصدّيق والمقرّب وتجري الرتبة الأخيرة مما قبلها مجرى الأخصّ من الأعمّ ، فإذا ذكرت الأخصّ فقد ذكرت الكل إما أنك تقول الإنسان إما عربي أو

عجمي والعربي إما قرشي أو غيره ، والقرشي إما هاشمي أو غيره ، والهاشمي إما علوي أو غيره ، والعلوي إما حسني أو حسيني ، فإذا ذكرت أنه حسني مثلاً فقد وصفته بالجميع ، وإن وصفته علويّ وصفته بما فوقه مما هو أعمّ منه ، فكذلك إذا قلت صدّيق فقد قلت إنه متقي وورع وعفيف ، فلاينبغي أن يظن أن كثرة هذه الأسامي تدلُّ على معاني كثيرة متباينة فيختلط عليك كما اختلط على كل من طلب المعاني من الألفاظ ولم يتُبع الألفاظ المعاني ، فهذه إشارة إلى مجامع معاني الخوف وما يكتنفه من جانب العلوّ كالمعرفة الموجبة له ، ومن جانب السفل كالأعمال الصادرة منه كفاً وإقداماً .

وقال الإمام الهمام شيخ الإسلام الشيخ عبد العزيز الديريني رضي الله عنه في كتابه (طهارة القلوب) في شأن الخوف والخشية وحال أهله رضي الله عنهم في قول الله عزّ وجلّ ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجلَت قلوبهم وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ﴾ المؤمن حقاً من كانت هذه صفاته ، الوَجَل عند ذكر الله ، والخشوع عند سماع كتاب الله ، والتوكل على الله ، ولزوم طاعة الله ، والجود بما أعطاه الله ، وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لايدخل النار من بكى من خشية الله حتى يلج اللبن في الضرع » وقال رسول الله ﷺ : « لايدخل النار عين سهرت في سبيل الله ، لايدخل النار عين غضّت عن محارم الله ، لايدخل النار عين بكت من خشية الله » قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ﴿ إذا الشمس كُوِّرت ﴾ فلما بلغ ﴿ وإذا الصُّحف نُشرت ﴾ خرّ مغشياً عليه ، وسمع مرّة أخرى قارئاً يقرأ سورة الطور فوقف فلما بلغ قوله

تعالى: ﴿ إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع ﴾ استند إلى الحائط ساعة ، وذهب إلى منزله فمرض شهراً والناس لايدرون سبب مرضه ؛

وكان سفيان الثوري إذا جلس مع الناس كأن النار أحاطت به لما يُرى من شدّة خوفه وجزعه ؛ ولما نزل قوله تعالى: ﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين ﴾ صاح سلمان الفارسي صيحة ووضع يده على رأسه وهام على وجهه ثلاثة أيام ؛ وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا ، فوالله لو يعلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته ، وصلّى حتى ينكسر صلبه ؛

واجتمع أصحاب الحديث يوماً على باب الفضيل رحمه الله فاطّلع عليهم من كوّة وهو يبكي ويرجف فقال : عليكم بالقرآن ، عليكم بالصلاة ، هذا زمان بكاء وتضرّع ودعاء كدعاء الغريق ، هذا زمان احفظ لسانك ، واخف مكانك ، وعالج قلبك ، وخذ ماتعرف ودع ماتنكر ؛ وهذا أخذه الفضيل من حديث عقبة بن عامر لما ذكر النبي ﷺ اختلاف الزمان ، فقال : ما النجاة ؟ يارسول الله . قال : « امسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك » وكان الفضيل يوماً يمشي فقيل له إلى أين ؟ قال : لاأدري . وكان والهاً من الخوف ؛

ووقف قوم بعابد وهو يبكي فقالوا له : مايبكيك . قال : روعة يجدها الخائفون في قلوبهم . قالوا : وماهي . قال : روعة النداء بالعرض على الله عزّ وجلّ . وجاءت مولاة لعمر بن عبد العزيز فقصّت عليه أنها رأت في المنام كأن الصراط قد مُدّ على جهنم وهي تفور على أهلها ، وذكرت أنها رأت رجالاً مرّوا على الصراط فأخذتهم النار ، قالت : ثم رأيتك ياأمير

المؤمنين قد جيء بك فوقع عمر مغشياً عليه وبقي زماناً يضطرب وهي تصيح في أذنه رأيتك والله قد نجوت . قال أبو طارق : شهدت ثلاثين رجلاً أتوا إلى مجلس الذكر صحاحاً فتصدعت قلوبهم من خشية الله فماتوا كلهم في مجلس واحد .

قُصّوا عليّ حديث من قتل الهوى   إن التأسي روح كل حزين

* * *

قال منصور بن عاد دخلت الكوفة فبينما أنا أمشي في ليلة مظلمة إذ سمعت بكاء رجل بصوت شجيّ من داخل دار وهو يقول : إلهي وعزّتك وجلالك ما أردت بمعصيتي مخالفتك ولكن عصيتك بجهلي ، فالآن مِنْ عذابك مَنْ يستنقذني ، وبحبل مَن أعتصم إن قطعت حبلك عني ، واذنوباه واغوثاه يا الله قال منصور : فأبكاني كلامه وبكاؤه فوقفت وقرأت ﴿ ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون ﴾ فسمعت للرجل اضطراباً شديداً وصياحاً فوقفت حتى انقطع الصوت ومضيت ، فلما أصبحت أتيت إلى الدار فوجدت الرجل قد مات والناس في تجهيزه وعجوز تبكي فسألت عنها ؟ فقيل لي هي أمه فتقدمت إليها وسألتها عن حاله ؟ فقالت : كان يصوم النهار ويقوم الليل ويكتسب الحلال فيقسم كسبه أثلاثاً ثلث يفطر عليه وثلث ينفقه عليّ وثلث يتصدق به ، فلما كان البارحة مرّ به إنسان وهو يقرأ آية من القرآن ففارق الدنيا .

وسمع مسروق بن محمد قارئاً يقرأ ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا ﴾ فشهق شهقة لحق منها الآخرة . وسمع

يحيى البكـار رجلاً يقرأ ﴿ ولو ترى إذ وُقفوا على ربهم ﴾ فصاح صيحة مرض منها أربعة أشهر يُعاد من أطراف البصرة .

ولقد قيل إن الخائفين على مراتب ، فخوف العارفين إجلال وتعظيم لما غلب على قلوبهم من ذكر جلال الله عزَّ وجل وعظمته من غير فكر في شيء من أفعاله ؛ وهذا خوف الأنبياء والملائكة وخواص الأولياء .

وأما خوف أكثر المؤمنين فبذكر الوعد والوعيد وأهوال القيامة مع فكرتهم في الجنايات والتفريط واتهامهم لنفوسهم أن يكون فيها من الآفات الباطنة مايربـو على المعاصي الظاهرة كالعُجب والرياء والحسد والكبر ونحوها ، وأشـد مايهيج خوف هؤلاء ويزعج قلوبهم خوف السابقة والخاتمة ، فإن العبد لايدري هل سبق له في علم الله السعادة أو الشقاوة ؟ والخاتمة تجري على ماجرت عليه السابقة ، فمن سبق له في علم الله السعادة ختم له بخاتمة الإيمان ، ومن سبق له في علم الله تعـالى الشقاوة ختم له بخاتمة الكفر والخذلان ، قال الله تعالى : ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ وقال رسـول الله ﷺ : « يصبـح الـرجـل مؤمنـاً ويمسي كافراً ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً » وأكثر مايمكر عند الموت بأرباب البدع وأصحاب الآفات الباطنة والظَّلَمة المجاهرين بالمعاصي ، فمن كان في ظاهره الصلاح ومُكر به فلآفات باطنة . وقال سهل بن عبد الله : خوف الصديقين خوف سوء الخاتمة عند كل خطرة وحركة . وكان سفيان الثوري كثير البكاء والجزع فقيل له يأبا عبد الله : عليك بالرجا فإن عفو الله أعظم من ذنوبك . فقـال : أوعلى ذنوبي أبكي ؟ لو علمت أني أموت على التوحيد لم أُبالِ بأمثال الجبال من الخطايا . ومرض بعض العارفين فقال لبعض إخوانه :

اقعد عند رأسي حتى أموت فإن متُّ على الإسلام فاشتر بجميع ما أملكه لوزاً وسُكّراً وفرِّقه على صبيان البلد ، وقل هذا عرس فلان ، وإن لم يكن كذلك فأعلم الناس حتى لايغتروا بجنازتي ، فقعد عند رأسه حتى مات على الإيمان فاشترى اللوز والسُّكَّر وفرّقه على صبيان البلد ؛ هذا كان خائفاً فسلم ؛ ومن لم يخف من سلب الإيمان فهو على خطر. وشكى نبيٌّ من الأنبياء الجوع والفقر إلى الله تعالى فأوحى الله تعالى إليه : عبدي أمَا رضيت أن عصمت قلبك أن تكفر بي حتى تسألني الدنيا ؟ فأخذ التراب ووضعه على رأسه وقال: بلى يارب قد رضيت. ويقال في قول الله تعالى إخباراً عن أهل الجنة : ﴿ إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين ﴾ أي وكنا ونحن في الدنيا بين أهلنا خائفين مشفقين من سوء الخاتمة ﴿ فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السموم ﴾ أي مَنَّ علينا وتوفّانا على الإيمان .

وكان عليّ بن أبي النجم يبكي ويقول : اللهم إن ابتليتني بكل معصية فلاتبتلني بأن أجحدك فتخلدني في النار . وكان حبيب العجمي يبكي ويقول : من ختم له بلا إله إلاّ الله دخل الجنة ثم يبكي ويقول : ومن لي بأن يختم لي بلا إله إلاّ الله ؟. هذا ماقرّره العارفون في أصل أركان الطريق .

ويعجبني ما أجمله الإمام الكبير مولانا السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه بقوله في كتابه (البرهان المؤيد) : الطريق واضح صلاة وصوم وحجّ وزكاة والتوحيد والشهادة بشهادة الرسول عليه الصلاة والسلام أوّل الأركان وهذا هو الطريق .

فإذا أيّد الرجل طريقه على أركان الإسلام الخمسة المذكورة واجتنب

محارم الله هيّئت له نسائم القرب ، فطارت بقلبه إلى حضرة الرب :

أشمّ منك نسيمًا لست أعرفه   أظنّ لمياء جرّت فيك أردانا
أرى شؤونك فيما أنت تقبله   كأن حُسنك فيه ظلّ سكّانا

* * *

هذا أصل الطريق المبارك وإنما اختلاف طُرق أهله رضي الله عنهم فإنما مثاله كأناس يدخلون الحرم المكي يقصدون الكعبة المشرفة من أبواب متعددة فطُرقهم والأبواب التي طرقوها مختلفة ومقصدهم واحد ؛ وكذلك القوم رضي الله عنهم ، اجْتنبوا محارم الله وامْتثلوا أوامره وقاموا بإحياء سُنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم ونهضوا بواجبات حقوقها ، إلا أنّ منهم من تغلّب عليه الطلب من طريق الصوم ، ومنهم من تغلّب عليه الطلب من طريق الصلاة ، ومنهم من طريق الذكر ، ومنهم من طريق الفكر ، وهذا معنى ماذُكر من أن الطُرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق .

ويعجبني ماذكره جدّنا الخامس السيد العارف بالله الشيخ حسين برهان الدين الرفاعي الصيادي رضي الله عنه حين سُئل عن أقرب الطرق إلى الله فقال للسائل : الطريق إلى الله الشرع ، وأما ماسمعته من الطُرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق فتلك طُرق القبول الداخلة في دائرة الشرع كقول القائل : « الله » وقبوله عند قولها ، أو كصلاة في جوف الليل وقبوله عندها ، أو كصدقة وغير ذلك ، فإذا تشرّعت فإنك دخلت حيطة في دائرتها تجد الطُرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق .

شريعة المختار للطرائق   دائرة تجمع للحقائق
بعدّ أنفاس الخلائق انطوت   طرائق الوصل بها للخالق

* * *

وقال سيدنا ومفزعنا الغوث الأكبر مولانا السيد أحمد الرفاعي الأشهر رضي الله عنه في (برهانه) الأولياء قناطر الخلق يعبر الموفقون عليهم إلى الله تعالى ، أولئك العاملون المخلصون الخالصون استخلصهم تعالى لعبادته ، وقرّبهم من حضرته ، فما حجب قلوبهم حجاب الغين طرفة عين ، أخرجوا البين من البين ، أقاموا طلاسم الكتم على الأسرار ، وقاموا الليل وصاموا النهار ، بعضهم غلب عليه الفكر ، وبعضهم غلب عليه الذكر ، وبعضهم جمع شتات الأمر ﴿ رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ أوصيكم كل الوصية بعد علم واجبات الدين بصحبتهم فإنها ترياق مجرّب ، عندهم رأس الأمر كله ، عندهم الصدق والصفاء ، والذوق والوفاء ، والتجرُّد من الدنيا ، والتجرُّد من الأخرى ، والتجرُّد إلى المولى ، وهذه الخصال لاتحصل بالقراءة والدرس والمجالس لاتحصل إلاّ بصحبة الشيخ العارف الذي يجمع بين الحال والمقال ، يدلُّ بمقاله ، وينهض بحاله ﴿ أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده ﴾ .

وذكر العارف بالله الشيخ شهاب الدين السهروردي في كتابه (العوارف) تفصيلاً حسناً في اختلاف طُرُقهم رضي الله عنهم فقال : قوم من الصوفية خُصُّوا بالاجتباء الصِّرف ، وقوم منهم خُصُّوا بالهداية بشرط مقدّمة الإنابة ، فالاجتباء المحض غير معلَّل بكسب العبد وهذا حال المحبوب المراد يباديه الحق بمنحه ومواهبه من غير سابقة كسب منه تسبق كشوفه اجتهاده ، وفي هذا أخذ بطائفة من الصوفية رُفعت الحجب عن قلوبهم وباداهم سُطوع نور اليقين ، فأثار نازل الحال فيهم شهوة الاجتهاد والأعمال ، فأقبلوا على الأعمال باللذاذة والعيش فيها قرّة أعينهم ، فسهُل

الكشف عليهم الاجتهاد كما سهّل على سحرة فرعون لذاذة النازل بهم من صفو العرفان تحمّل وعيد فرعون ﴿ فقالوا لن نُؤثرك على ماجاءنا من البيّنات ﴾ قال جعفر الصادق : وجدوا روح العناية القديمة بهم فالتجؤوا إلى السجود شكراً ﴿ وقالوا آمنا برب العالمين ﴾ أخبرنا أبو زرعة طاهر بن أبي الفضل إجازة قال : أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف إجازة قال : أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي قال : سمعت منصوراً يقول : سمعت أبا موسى الزقاق يقول : سمعت أبا سعيد الخراز يقول : أهل الخالصة الذين هم المرادون تولاّهم الله تعالى وأكمل لهم النعمة وهيّأ لهم الكرامة فأسقط عنهم حركات الطلب ، فصارت حركاتهم في العمل والخدمة على الألفة والذكر والتنعم بمناجاته والانفراد بقربه ، وبهذا الإسناد إلى أبي عبد الرحمن السلمي قال : سمعتُ عليّ بن سعيد يقول : سمعت أحمد بن الحسن الحمصي يقول : سمعت فاطمة المعروفة بجويرية تلميذة أبي سعيد تقول : سمعت الخراز يقول : المراد محمول في حاله ، مُعان على حركاته وسعيه في الخدمة ، مكفيٌّ مصون عن الشواهد والنواظر . وهذا الذي قاله الشيخ أبو سعيد هو الذي اشتبه حقيقته على طائفة من الصوفية ولم يقولوا بالإكثار من النوافل ، وقد رأوا جمعاً من المشايخ قلّت نوافلهم فظنّوا أن ذلك حال مستمر على الإطلاق ، ولم يعلموا أن الذين تركوا النوافل واقتصروا على الفرائض كانت بداياتهم بدايات المريدين ، فلما وصلوا إلى روح الحال وأدركتهم الكشوف بعد الاجتهاد امتلؤوا بالحال وطرحوا نوافل الأعمال ، فأما المرادون تبقى عليهم الأعمال والنوافل وفيها قرّة أعينهم وهذا أتم وأكمل من الأول ، فهذا الذي أوضحناه أحد طريقي الصوفية ؛

فأما الطريق الآخر طريق المريدين وهم الذين شرط لهم الإنابة فقال تعالى : ﴿ ويهدي إليه من ينيب ﴾ طولبوا بالاجتهاد أوّلاً قبل الكشوف قال الله تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبُلنا ﴾ يدرجهم الله تعالى في مدارج الكسب بأنواع الرياضات والمجاهدات وسهر الدياجر ، وظمأ الهواجر ، تتأجج فيهم نيران الطلب ، وتتحجب دونهم لوامع الأرب ، يتقلّبون في رمضاء الإرادة ، وينخلعون عن كل مألوف وعادة ، وهي الإنابة التي شرطها الحق سبحانه وتعالى لهم وجعل الهداية من مغدوقاتها ، وهذه الهداية آنفاً هداية خاصة لأنها هداية إليه غير الهداية العامة التي هي التّهدّي إلى أمره ونهيه بمقتضى المعرفة الأوّلة وهذا حال السالك المحب المريد ، فكانت الإنابة عين الهداية العامة فأثمرت هداية خاصة ، واهتدوا إليه بعد أن اهتدوا له بالمكابدات فخلصوا من مضيق العُسر إلى فضاء اليسر ، وبرزوا من وهج الاجتهاد إلى روح الأحوال فسبق اجتهادهم كشوفهم ، والمرادون سبق كشوفهم اجتهادهم .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقي قال : أخبرنا أبو الفضل حمد بن أحمد قال : أخبرنا الحافظ أبو نعيم الأصفهاني قال : حدّثنا محمد بن الحسين بن موسى قال : سمعت محمد بن عبد الله الرازي يقول : سمعت أبا محمد الحريري يقول : سمعت الجنيد يقول : ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات . وقال محمد بن خفيف : الإرادة سمو القلب لطلب المراد ، وحقيقة الإرادة استدامة الجدّ وترك الراحة . وقال أبو عثمان : المريد الذي مات قلبه عن كل شيء دون الله فيريد الله وحده

ويريد قربه ، ويشتاق إليه حتى تذهب شهوات الدنيا عن قلبه لشدة شوقه إلى ربـه . وقـال أيضـاً : عقـوبة قلوب المريدين أن يحجبوا عن حقيقة المعـامـلات والمقـامات إلى أضدادها . فهذان الطريقان يجمعان أحوال الصوفية ودونهما طريقان آخران ليسا من طُرق التحقق بالتصوف، أحدهما مجذوب أبتر على جذبته مارِدٌ إلى الاجتهاد بعد الكشف ، والثاني مجتهد متعبد ماخلص إلى الكشف بعد الاجتهاد ، والصوفية في طريقهم بأن مزيدهم وصحة طريقهم بحُسن المتابعة ، ومن ظن أن يبلغ غرضاً أو يظفر بمراد لا من طريق المتابعة فهو مخذول مغرور .

أخبرنـا شيخنا أبو النجيب السهروردي قال : أخبرنا عصام الدين عمر بن أحمد الصفار قال : أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف قال : أخبرنا أبو عبد الرحمن قال : سمعت نصر بن أبي نصر يقول : سمعت قسيّاً غلام الزقاق يقول : سمعت أبا سعيد السكري يقول : سمعت أبا سعيد الخراز يقـول : كل باطن يخالفـه ظاهر فهو باطل . وكان يقول الجُنيد : علمنا هذا مشبك بحديث رسول الله ﷺ . وقال بعضهم : من أمّر السُّنّة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ، ومن أمّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة .

حُكي أن أبا يزيد البسطامي قال ذات يوم لبعض أصحابه : قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية ، وكان الرجل في ناحيته مقصوداً مشهوراً بالزهد والعبادة قال فمضينا ، فلما خرج من بيته يقصد المسجد رمى بصاقه نحو القبلة . فقال أبو يزيد : انصرفوا فانصرف ولم يسلّم عليه ، وقـال : هذا رجـل ليس بمأمون على أدب من آداب

رسول الله ﷺ فكيف يكون مأموناً على مايدّعيه من مقامات الأولياء والصدّيقين ؟!

وسُئل خادم الشبلي ماذا رأيت منه عند موته ؟ فقال لما أُمسك لسانه وعرق جبينه أشار إليّ أن وضّئني للصلاة فوضّأته فنسيت تخليل لحيته فقبض على يديّ وأدخل أصابعي في لحيته يُخلّلها !

وقال سهل بن عبد الله : كل وجْدٍ لايشهد له الكتاب والسُّنّة باطل .

هذا حال الصوفية وطريقهم ، وكل من يدّعي حالاً على غير هذا الوجه فمدّعٍ مفتون كذاب .

ومن الطائفة المباركة الصوفية قوم يقال لهم الملامتية ، قال في العوارف : أخبرنا أبو زرعة إجازة قال : أخبرنا أبو بكر أحمد بن عليّ بن خلف إجازة قال : أخبرنا أبو عبد الرحمن قال : سمعت أبا عثمان المغربي يقول : الإخلاص ما لايكون للنفس فيه حظ بحال ، وهذا إخلاص العوام ، وإخلاص الخواص مايجري عليهم لا بهم فتبدوا منهم الطاعات وهم عنها بمعزل ولايقع لهم عليها رؤية ولا بها اعتداد فذلك إخلاص الخواص ، وهذا الذي فصّله الشيخ أبو عثمان المغربي يفرّق بين الصوفي والملامتي لأن الملامتي أخرج الخلق عن عمله وحاله ولكن أثبت نفسه فهو مخلص ، والصوفي أخرج نفسه عن عمله وحاله كما أخرج غيره فهو مخلَص وشتان مابين المخلِص والمخلَص . قال أبو بكر الزقاق : نقصان كل مخلص في إخلاصه رؤية إخلاصه ، فإذا أراد الله أن يخلص إخلاصه أسقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه فيكون مخلَصاً . قال أبو سعيد الخراز : رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين ، ومعنى قوله لأن

الإخلاص معلول برؤية الإخلاص ، والعارف منزّه عن الرياء الذي يبطل العمل ، ولكن لعله يظهر شيئاً من حاله وعلمه بعلم كامل عنده فيه لجذب مريد أو معاناة خُلق من أخلاق النفس في إظهاره الحال والعمل ، وللعارفين في ذلك علم دقيق لايعرفه غيرهم فيرى ناقص العلم صورة رياء وليس برياء إنما هو صريح العلم لله بالله من غير حضور نفس ووجود آفة فيه .

قال رويم : الإخلاص أن لايرضى صاحبه عليه عوضاً في الدارين ولا حظاً من الملكين . وقال بعضهم : صدق الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الحق ؛ والملامتي يرى الخلق فيخفي عمله وحاله وكل ماذكرنا من قبل وصف إخلاص الصوفي ، ولهذا قال الرقاق : لابدّ لكل مخلص من روية إخلاصه وهو نقصان عن كمال الإخلاص ، والإخلاص هو الذي يتولى الله حفظ صاحبه حتى يأتي به على التمام . قال جعفر الخلدي : سألت أبا القاسم الجُنيد قلت : بين الإخلاص والصدق فرق . قال : نعم ، الصدق أصل وهو الأول ، والإخلاص فرع وهو تابع وقال : بينهما فرق لأن الإخلاص لايكون إلّا بعد الدخول في العمل ، ثم قال : إنما هو إخلاص ومخالصة الإخلاص ، وخالصة كائنة في المخالصة . فعلى هذا الإخلاص حال الملامتي ، ومخالصة الإخلاص حال الصوفي ، والخالصة الكائنة في المخالصة ثمرة مخالصة الإخلاص وهو فناء العبد عن رسومه برؤية قيامه بقيومه بل غيبته عن رؤية قيامه وهو الاستغراق في العين عن الآثار ، والتخلص عن لوث الاستتار ، وهو نقد حال الصوفي ، والملامتي مقيم في أوطان إخلاصه غير متطلّع إلى حقيقة

خلاصه وهذا فرق واضح بين الملامتي والصوفي ، ولم يزل في خراسان منهم طائفة ولهم مشايخ يمهدون أساسهم ويعرفونهم شروط حالهم وقد رأينا في العراق من يسلك هذا المسلك ولكن لم يشتهر بهذا الاسم ، وقلّ ماتتداول ألسنة أهل العراق هذا الاسم . حُكي أن بعض الملامتية استدعي إلى سماع فامتنع فقيل له في ذلك قال : لأني إن حضرت يظهر عليّ وجد ولا أوثر أن يعلم أحد حالي . وقيل إن أحمد بن أبي الحواري قال لأبي سليمان الداراني : إني إذا كنت في الخلوة أجد لمعاملاتي لذة لا أجدها بين الناس . فقال له : إنك إذاً لضعيف . فالملامتي وإن كان متمسكاً بعروة الإخلاص مستفرشاً بساط الصدق ولكن عليه بقية رؤية الخلق ، وما أحسنها من بقية تحقق الإخلاص والصدق ، والصوفي صفي من هذه البقية في طرفي العمل والترك للخلق وعزلهم بالكلية ورآهم بعين الفناء والزوال ولاح له ناصية التوحيد وعاين سرّ قوله تعالى : ﴿ كل شيء هالك إلاّ وجهه ﴾ كما قال بعضهم في بعض غلباته : ليس في الدارين غير الله ، وقد يكون وجه إخفاء الملامتي الحال على وجهين ، أحد الوجهين لتحقيق الإخلاص والصدق ، والوجه الآخر وهو الأتم لستر الحال عن غيره بنوع غيرة ، فإن من خلا بمحبوبه يكره اطّلاع الغير عليه بل يبلغ في صدق المحبة أن يكره اطّلاع أحد على حُبّه لمحبوبه ، وهذا وإن علا فإنه في طريق الصوفي علة ونقص ، فعلى هذا يتقدم الملامتي على المتصوّف ويتأخر عن الصوفي ؛ وقيل : إن من أُصول الملامتية أن الذكر على أربعة أقسام ، ذكر باللسان وذكر بالقلب وذكر بالسر وذكر بالروح ، فإذا صحّ ذكر الروح سكت السر والقلب واللسان عن الذكر وذلك ذكر المشاهدة ، وإذا صحّ ذكر السر

سكت القلب واللسان عن الذكر وذلك ذكر الهيبة ، وإذا صحَّ ذكر القلب فتر اللسان عن الذكر وذلك ذكر الآلاء والنعماء ، وإذا غفل القلب عن الذكر أقبل اللسان على الذكر وذلك ذكر العادة ، ولكل واحد من هذه الأذكار عندهم آفة ، فآفة ذكر الروح اطِّلاع السر عليه ، وآفة ذكر السر اطِّلاع القلب عليه ، وآفة ذكر القلب اطِّلاع النفس عليه ، وآفة ذكر النفس رؤية ذلك وتعظيمه أو طلب ثواب به أو ظن أنه يصل إلى شيء من المقامات به ، وأقلّ الناس قيمة عندهم من يريد إظهاره وإقبال الخلق عليه بذلك ، وسرّ هذا الأصل الذي بنوا عليه أن ذكر الروح ذكر الذات ، وذكر السر ذكر الصفات بزعمهم ، وذكر القلب من الآلاء ، والنعماء ذكر أثر الصفات ، وذكر النفس متعرض للعلّات ، فمعنى قولهم اطِّلاع السر على الروح يشيرون إلى التحقق بالفناء عند ذكر الذات ، وذكر الهيبة في ذلك الوقت ذكر الصفات مشعر بنصيب الهيبة وهو وجود الهيبة ، ووجود الهيبة يستدعي وجوداً أو بقية وذلك يناقض حال الفناء ، وهكذا ذكر السر وجود هيبة وهو ذكر الصفات مشعر بنصيب القرب ، وذكر القلب الذي هو ذكر الآلاء والنعماء مشعر ببُعد مّا لأنه اشتغال بذكر النعمة وذهول عن المنعم ، والاشتغال برؤية العطاء عن رؤية المعطي ضرب من بُعد المنزلة واطِّلاع النفس نظر إلى الأعواض اعتداد بوجود العمل وذلك عين الاعتلال حقيقة ، وهذه أقسام هذه الطائفة وبعضها أعلى من بعض والله أعلم .

ومن هذه الطائفة المباركة أيضاً قوم يقال لهم أهل التجريد ومقامهم هذا تجريد النفس عن علائق الأكوان ، فلاينصرف أحدهم إلى غرض من

الأغراض ولا إلى شأن من الشؤونات الكونية ، ولايطلب مقاماً ولايعوِّل على إرادة منزلة من المنازل ولا على مرتبة من المراتب .

وقد تمكن في هذا الشأن سيدنا السيد أحمد الكبير الرفاعي رضي الله عنه وقد نقل في شأنه صاحب (سواد العينين) مولانا الشيخ عبد الكريم الرافعي القزويني مانصّه : سألت الشيخ العارف بالله ركن الدين بن نبهان الشيباني عن سبب اشتهار السيد أحمد الرفاعي بأبي العَلَمين ؟ قال : لأن عَلَم الغوثية العظمى والقطبية الكبرى رُفع له مرتين في الأكوان ، وهو أن الغوث أحمد بن خلف البلخي الحسيني نزيل بغداد لما مات رُفع لواء الغوثية للسيد أحمد الكبير فوقف في باب الله وتذلل وتململ على عتبة جده رسول الله ﷺ وقال : العفو العفو فقبل الحق منه مقاله ، فتمكن في مقام غوثيته بالترقي إلى ماهو فوق الغوثية والقطبية فرُفع لواء الغوثية إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني وهو في صحراء العراق وله من العمر خمس وثمانون سنة ، فأقام ببغداد وظهر أمره لأنه لما خرج من بلدته جيلان بلدة من بلاد العجم كان عمره عشرين سنة وقيل ثماني عشرة سنة ، فمكث خمساً وعشرين سنة متجرداً سائحاً في صحارى العراق وبراريه ثم صار يأوي إلى بعض المعمورات ، فاشتغل بالقيام أربعين سنة يصلي الصبح بوضوء العشاء ، وكان في هذه الأربعين سنة يأوي تارة إلى المقابر وأخرى يذهب إلى البصرة ، ومكث منها إحدى عشرة سنة مقيماً في البرج المسمى برج العجمي خارج سور بغداد ولإقامته فيه سُمّي برج العجمي ، ثم لقي الخضر ثم أمر الشيخ أبو سعيد المخزومي بإلباسه الخرقة فألبسه إيّاها وأدخله بغداد ، وقد كان مع كل مجاهداته يُحسن

التلقي عن العلماء ويَعدّ أخذ العلوم الشرعية سلوكاً ، فما دخل بغداد إلاّ وهو على جانب عظيم من العلم ، وُلد بجيلان بكسر الجيم وهي بلاد متفرقة وراء طبرستان في سنة سبعين وأربعمائة ، وتفقه بأبي الوفاء علّي بن عقيل وأبي الخطاب محفوظ بن أحمد الكلوذاني وبأبي الحسين محمد بن القاضي أبي يعلى ، وأخذ علم الطريقة عن شيخه الشيخ العارف حّماد الدباس صاحب الشيخ منصور البطائحي الرباني خال الأستاذ السيد أحمد الرفاعي ولبس الخرقة من يد القاضي أبي سعيد بن المبارك المخزومي وتعلّقت به القلوب وهو في الصحارى ، فكادت تطير إليه بأجنحة الأشواق ، لما قام له من حُسن الظن أيام سلوكه عند أهل العراق ، فلما دخل بغداد ومنحته الموهبة الأزلية رتبة الغوثية اُلقيت الدنيا تحت رجليه وبين يديه وعلا صيته وكبر شأنه . قال الشيخ أبو عبد الله الهروي : أُمر الشيخ بالزواج حالة سلوكه ففعل وأقام بعياله وأولاده على حال التجريد والفقر ، فلما دخل بغداد طاول الخليفة صولة ودولة وقد خدمته حال تجريده مدة أربعين سنة فكان يصلي الصبح بوضوء العشاء ، وتصدر على بساط الغوثية العظمى ثمان سنين على الصحيح وقيل ستاً ، وتوفي في بغداد سنة إحدى وستين وخمسمائة عن إحدى وتسعين سنة فرُفع عَلَم الغوثية والتصرف في الأكوان مرة ثانية للسيد أحمد الرفاعي ، فوقف على الباب فأحاط به النداء من كل جانب يقول له ﴿ فاستقم كما أُمرت ﴾ فلزم الباب ممتثلاً وامتدت مدة غوثيته الثانية ست عشرة سنة وأشهراً على الصحيح فلهذا اشتهر بين أولياء الله في الكونين بأبي العَلَمين . انتهى .

وقد نقل هذا التمكن عن سيدنا الإمام علي الرضا بن سيدنا الإمام

موسى الكاظم رضي الله عنهما فإنه تحقق بهذا المقام تحققاً كاملاً . وكان من أصحاب هذا الشأن إمام الصوفية سيدنا الإمام الجُنيد البغدادي رضي الله عنه ، وقد انتسب لهذا المقام الشيخ أبو السعود بن الشبل قدّس سرّه إلاّ أنه لم يدر به في مقامه هذا محور التصرف كالإمام الجنيد والإمام الرفاعي والسلف الصالح من أجداده أئمة أهل البيت رضوان الله عليهم بل بقي الشيخ أبو السعود في مقام الإعراض عن التصرف ولم تخلع عليه خلعته ، وعلى كل فهو أكمل مقاماً ممن يقبل مستبشراً على التصرف زاهياً بخلعته .
وقد ذكر الإمام الشعراني في كتابه الجواهر والدرر مانصّه : سألت شيخنا رضي الله عنه عن أن أدّخر قوت عامي ؟ فقال رضي الله عنه : إن كنت على بصيرة أنه قوتك وحدك ليس لأحد فيه شيء فادّخره ، وإن كنت على ظن في ذلك فلاتدّخر ، ثم إذا ادّخرت فلايخلو إما أن يكون ادّخارك عن أمر إلهي فأنت عبد محض والواجب عليك الوقوف على حد ما أُمرت به ، وإما أن يكون ادّخارك عن اطّلاع أن هذا القدر المدّخر لفلان لايصل إليه إلاّ على يدك فتمسكه لهذا الكشف . فقلت له : فإن عرفت أنه لفلان ولابد ولكن لم أطلع على أنه على يدي . فقال رضي الله عنه : إمساكك لمثل هذا إنما هو لشح في الطبيعة وفرح بالموجود فلاينبغي لك حينئذ إمساكه . فقلت له : فإن كشف لي أن ذلك المال مثلاً لايصل لصاحبه إلاّ على يدي في زمان مُعينّ ؟ فقال رضي الله عنه : أنت حينئذ بالخيار فإن شئت أمسكته إلى ذلك الوقت وإن شئت أخرجته عن يدك فإنك ما أنت حارس ولا أمرك الحق بإمساكه ، وإذا وصل ذلك الوقت المعينُ فإن الحق تعالى يردّه إلى يدك حتى توصله إلى صاحبه ، وهذا أَوْلى لأنك بين الزمانين تكون غير موصوف بالادّخار لأنك خزانة الحق تعالى ما أنت خازنه ،

وتفرغت حينئذ إليه وفرّغت قلبك من غيره ، ثم قال رضي الله عنه : وهذا كان شأن الشيخ أبي السعود بن الشبل من أصحاب السيد عبد القادر الجيلي رضي الله تعالى عنهما ، فكان يقول : نحن قوم تركنا الحق تعالى يتصرف لنا . قلت : من الأدب قبوله فقلت له : إني أسمع بالشيخ أبي السعود هذا فهل كان من الأكابر ؟ فقال رضي الله عنه : كان الشيخ محيي الدين رضي الله عنه يقول : الشيخ أبو السعود عندي أكمل من الشيخ عبد القادر ، وقد اطلعت على مقامات كثير من الرجال فما عرفت لهذا الرجل قرار . انتهى .

ومن هذه الطائفة المباركة قوم اختطفهم إلى ساحة بساط الحق جواذب المحبة والشوق والعشق فأذهلهم هذا الشأن بعد أداء الواجبات عن سلوك غيره من الطرقات ، فتارة تهبُّ عليهم نسائم الجمال فتهزهم واردات الدلال ، وتارة تزعجهم عواصف رياح الجلال فتأخذهم من حال إلى حال ، إذا مسّهم طائف تذكّروا وإذا نظروا إلى الذرّات المصنوعات اعتبروا ، هم كما قيل فيهم : أمـطرت عليهم سحـائب الأشجـان ، وأنضـوا الركب والأبدان ، وتسربلوا الخوف والأحزان ، وشربوا بكأس اليقين ، وراضوا أنفسهم رياض المتقين ، كحلوا أعينهم بالسهر ، وغضوها عن النظر ، وألزموها العبر ، وأشعروها الفكر ، فقاموا ليلهم أرقاً ، وتبادرت دموعهم فرقاً ، حتى ضنيت منهم الأبدان ، وتغيّرت منهم الألوان ، صحبوا القرآن بأبدان ناحلة ، وشفاه ذابلة ، ودموع وابلة ، وزفرات قاتلة ، فحال بينهم وبين نعيم المتنعمين ، وشغلهم عن مطامع الراغبين ، فاضت عبراتهم من وعيده ، وشابت ذوائبهم من تهديده ، فكأنَّ زفرات النار تحت أقدامهم ،

وكأنَّ الوعيد نصب قلوبهم ، جعلوا التراب للجباه وسادا ، والركب مهادا ، جعلوا القرآن صراطهم المستقيم ، وكان بهم إلى الخير داعياً ، وإلى النجاة دليلاً هادياً ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ إسمع صفات القوم ، يا أسير الغفلة والنوم ، كان أيوب السجستاني يحيي الليل كله ، فإذا كان وقت الصبح رفع صوته كأنه قام في ذلك الوقت من النوم ؛ ومكث إبراهيم التيمي عشرين سنة يصلي الصبح بوضوء العشاء ، وكانت رابعة تحيي الليل كله ، ذهب السادة ، وبقي أهل الوسادة ، واشوقاه إلى تلك الأرواح ، سلام الله على تلك الأشباح ، كان السري يقوم من أول الليل إلى وقت السحر ثم يجلس فيبكي حتى يطلع الفجر ، كانوا مع الطاعات يبكون ، وأنتم مع التفريط تضحكون ، هان والله عليهم السهر لما علموا أن الملك يراهم ، ويسمع أصواتهم ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ أول نقدة في مهر المحبة الضنا والتلذذ بالبلا ؛ كان حسان بن أبي سنان كأنه سوط ، وكان إبراهيم بن أدهم كأنه سفود ، وكانت رابعة كأنها شنٌّ بالٍ ، وكان سريّ قد يبس جلده على عظمه .

جزى الله المسير إليه خيرا وإن ترك المطايا كالمراد

* * *

كان داوود الطائي ينادي في الليل همّك عطّل عليّ الهموم ، وحال بيني وبين الرقاد ، وشوقي إلى لقاك حال بيني وبين اللذات وأنا في سجنك ياكريم . صدق القوم في الطلب فجاءت المعونة ، وقهروا أنفسهم فباتت مسجونة ، وزرعوا حَبَّ التُّقى وقاموا يسقونه ، ووجدوا لذّة ذكر مولاهم

فما طلبوا دونه ، إنهم ليشتهون كما تشتهون ، ولكن لابُغية لهم دونه ، يُحِبّهم ويُحِبّونه :

علّل سقاماً بجسم أنت متلفه   أبــرد غراماً بقلب أنت مُضرمه
ولاتكلني على بُعد الـديار إلى   صبري الضعيف فصَبْري أنت تعلمه
تلقَّ قلبي فقد أرسلته قُدُماً   إلى لقاك والأشــواق تقدمه

* * *

قال أبو جعفر الصفار : تهت في البرية آياماً فعطشت وضعفت فرأيت رجلاً واقفاً شاخصاً فاتحاً فاه ، فقلت له : ماهذه الوقفة ؟ فقال : مالك والدخول بين الموالي والعبيد ، ثم أشار بيده نحو الطريق فمشيت نحو إشارته قليلاً وإذا أنا برغيفين ولحم حار وكوز ماء بارد فأكلت وشربت ثم رجعت إليه فقلت له : ما التصوُّف ؟ فقال : لايح لاح فاصطلم ، وأشباح ، إذا أقلقهم الخوف ناحوا ، وإذا أزعجهم الوجد صاحوا ، وإذا أدهشهم الحب ساحوا ، وإذا غلبهم الوجد باحوا .

وحرمة الودّ مالي عنكم عوض   وليس لي في سوى لُقياكم غرض
ومن جنوني بكم قالوا به مرض   فقلت لازال عني ذلــك المرض

* * *

وذكر صاحب (آداب الأقطاب) في أدب الشوق مانصّه : قد فرّق المشايخ بين الشوق والاشتياق ، فالشوق يسكن باللقاء ، والاشتياق لايسكن باللقاء . قال النصرابادي : الخلق كلهم في مقام الشوق وليس لهم مقام الاشتياق ، فمن دخل في حال الاشتياق هام فيه حتى لايُرى له أثر ولا قرار . قال أحمد الأسواري لعبد الله بن المبارك : رأيت في المنام

كأنك تموت بعد سنة فاستعد للخروج . فقال عبد الله بن المبارك : لقد أجّلتنا إلى أجل بعيد أعيش أنا إلى سنة . قال معاذ بن جبل : الشوق فطام الجوارح عن الشهوات . وقد حُكي أنه قدم لبعض العجائز قرابة فبكت فقيل لها في ذلك فقالت : ذكرت بقدوم هذا قدومي على الله تعالى . وسُئل ابن عطاء عن الشوق فقال : احتراق الأحشاء وتقطيع الأكباد . وقيل له : الشوق أعلى أم المحبة ؟ فقال : المحبة ، لأن الشوق منها يتولّد . وقال بعضهم : الشوق لهيب ينشأ من بين أثناء الحشا يسنح عن الفرقة فإذا وقع اللقاء طُفي ، وإذا كان الغالب على الأسرار مشاهدة المحبوب لم يظهر الشوق . وقيل لبعضهم : هل تشتاق ؟ قال : لا إنما الشوق إلى غايب وهو حاضر . وقال أبو خفيف : الشوق ارتياح القلوب بالوجد .

قال أبو يزيد : إن لله عباداً لو حجبهم في الجنة عن رؤيته لاستغاثوا في الجنة كما يستغيث أهل النار في النار ، فقلوب المشتاقين مُنوّرة بنور الله عزّ وجلّ فإذا تحرك اشتياقهم أضاء النور مابين السماء والأرض ، فيعرضهم الله على الملائكة فيقول هؤلاء المشتاقون أُشهدكم أني إليهم أشوق . قيل : إن المشتاقين يجدون حلاوة الموت عند وُروده لما قد كشف لهم من روح الوصول أحلى من الشهد . قال أبو عثمان الحيري في قوله تعالى : ﴿ فإن أجل الله لآت ﴾ هذه تعزية للمشتاقين ، معناه أني أعلم أن اشتياقكم إليّ غالب وأنا أجّلت للقائكم أجلاً وعن قريب يكون وصولكم إلى من تشتاقون إليه . أوحى الله عزّ وجل إلى بني اسرائيل : قل لشبّان بني إسرائيل لِمَ تشغلون أنفسكم بغيري وأنا مشتاق إليكم ماهذا الجفاء . وأوحى الله تعالى إلى داوود عليه السلام : لو يعلم المدبرون عني كيف

انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقاً إليّ وانقطعت أوصالهم من محبتي ، ياداوود وهذه إرادتي للمذنبين فكيف إرادتي للمقبلين عليّ ؛ مكتوب في التوراة شوّقناكم فلم تشتاقوا ، وخوّفناكم فلم تخافوا ، وتحننا لكم فلم تتوددوا . بكى شعيب حتى عمي فردّ الله تعالى بصره ، ثم بكى حتى عمي ، فأوحى الله إليه إن كان هذا البكاء لأجل الجنة فقد أبحتها لك ، وإن كان لأجل النار فقد أجرتك منها . فقال : لا بل شوقاً إليك . فأوحى الله إليه : لأجل ذلك أبحتك جنتي . سُئل الجنيد : عن أي شيء يكون بكاء المحب إذا لقي المحبوب ؟ فقال : يكون ذلك سروراً به ووجلاً من شدة الشوق إليه انتهى .

لايخفى أن العشق والله يفعل فوق ماذكر ، ويحدث في القلب شؤوناً فوق ماسُطّر ، كيف لا وقد :

رأينا عاشقاً أوداه عشق لميّ فاعتراه لها صقار

* * *

الله أكبر ولله المثل الأعلى .

محب الله لا يلويه شيء ولا تؤويه في الأكوان دار

* * *

وقد نقل الرواة من أخبار من عشق الأغيار مايدلّك على رفيع مقام الحب للواحد الجبار ، منها ماقيل : أن الصمّة بن عبد الله بن الطفيل القشيري الشاعر الشهير أحد شعراء الدولة الأموية كان يهوى امرأة من قومه وكانت ابنة عمه ، فخطبها إلى أبيها فاشتط عليه عمه في المهر فسأل أباه أن يعاونه فأبى فسأل عشيرته فأعطوه مائة من الإبل ، فأتى بها إلى عمه فقال : لاأقبل هذه إسأل أباك أن يبدّلها لك ، فسأل أباه أن يُبدّلها له فأبى فسأله بعيراً فأبى وحلف

عمه لايأخذها إلاّ كاملة ، فلما رأى فعل أبيه وعمه قطع عقال الإبل وخلاّ عنها فعاد كل بعير إلى أهله ، وقال : مارأيت ألأم منكما ، وأنا ألأم منكما إن أقمت بينكما ، ورحل إلى الشام . فقالت ابنة عمه حين رأته : مارأيت كاليوم : رجل باعه أهله ببعير . فأقام بالشام حتى مات .

ثم ندم على خروجه فقال :

أتبكي على ريّا ونفسك باعدت مزارك من ريّا وشعباهما معـا؟
فما حسن أن تأتي الأمـر طائعـاً وتجزع إن داعي الصبابة أسمعا

* * *

قال بعضهم : رأيت الصمّة القشيري بالشام وهو جالس يحدّث نفسه ويبكي ويقـول : والله ماصدقتك فيما قالت : فقلت : من تعني ؟ فقال : التي أقول فيها :

أمـا وجـلال الله لو تذكـريتني كذكرك ما كفكفتِ للعين مدمعا
فقـالت بلى والله ذكـراً لو انـه يُصبّ على صُمّ الصفا لتصدعا

* * *

إنها لو ذكرتني كما ذكرتها لكان حالها كحالي . وقال رجل من أهل طبرستان : بينا أنا أمشي في بستان لي إذا أنا بالصمّة القشيري مطروح في البستان وهو يحرّك شفتيه فأصغيت إليه فإذا هو يقول :

تعـزّ بصـبرك لا وجدّك لاترى سنام الحمى أُخرى الليالي الغوابر
كأنّ فؤادي مِنْ تذكُّـره الحـمى وأهـل الحمى يهفو به ريش طائر

* * *

ولم يزل يردّدها حتى فاضت روحه . ومثل ذلك ماوقع لعروة بن حزام الشاعر الإسلامي الشهم العاشق الشهير ، وحكايته أن أباه قد مات وتركه

في حجر عمه عقال ، فتربى هو وابنة عمه عفرا وكانا يلعبان جميعاً وأحبها وأحبته ، وكان عمه يعده بزواجها إلاّ أن أمّها كانت تكرهه لفقره ، فقال له عمه يوماً : اضطرب في الأرض لعل الله يرزقك مالاً تتزوج به عفرا ، فتوجه إلى ابن عم له فكساه وأعطاه مائة من الإبل، وجاء في خلافه رجل من أهل الشام فخطب عفرا فأبى أبوها فلم تزل به زوجته حتى زوّجها له فدخل بها وارتحل بها إلى الشام، وعمد أبوها إلى قبر عتيق فجدّده وسأل الحيّ كتمان أمرها عن عروة، فلما قدم عروة أخبره أبوها أنها قد ماتت وقال: هذا قبرها ، وكان عروة يأتي في كل وقت إلى ذلك القبر ويبكي ، ثم قالت له أهل الحيّ خبرها فارتحل إلى الشام ونزل على زوجها فأكرمه وأقام مدة وهو لايعرفه ولم تعلم به عفرا ، ثم أنه دفع خاتمه يوماً إلى جارية عفرا وقال : ادفعي هذا الخاتم إلى مولاتك فأبت وقالت : أما تستحي ؟ فسكت أياماً ثم أعاد عليها القول فأبت . فسكت أياماً وأعاد عليها القول أيضاً فأبت . فسكت وأتته يوماً بقعب لبن فشرب ورمى الخاتم في فضلته فدخلت به إلى عفرا فلما شربت بان الخاتم فعرفته فشهقت حتى كادت روحها تخرج وسألت الجارية فأخبرتها الخبر ، فلما جاء زوجها قالت له : أتدري من ضيفك ؟ قال : لا . قالت : هو عروة بن حزام ابن عمي وقد كتمك نفسه حياء منك . فدعاه الرجل ورحّب به وقال : نشدتك الله إلاّ برحت في هذا المكان ولا خرجت منه ، وخرج وتركه مع عفرا وأوصى خادماً له أن يسمع مايقولان ، فلما خليا تشاكيا وبكيا ، ثم أتته بشراب ليشربه فقال : والله مادخل جوفي حرام قط ولا ارتكبته عمري ، ولو استحللت حراماً لاستحللته منك ياعفرا وأنتِ حظي من الدنيا وقد أحسن هذا الرجل وتفضّل وأنا مستحي منه ، ووالله لا أُقيم هنا بعد

علمه بي أبداً ، وأنا راحل إلى منيّتي ، ثم بكى وانصرف ولما جاء زوجها أخبره الخادم بما سمع فقال : ياعفرا إمنعي ابن عمك من الرحيل ، فقالت : مايفعل هو أشدُّ حياء من ذلك . فدعاه الرجل وقال : ياأخي اتّقِ الله في نفسك فإنك إن رحلت هلكت ، وأنا والله ما أمنعك من الاجتماع معها أبداً ، وإن شئت فارقتها لك . فشكره عروة وقال : لابدَّ من سفري فإن وجدت قوّة وإلاّ عُدت . فزوّده الرجل ورحل وقال :

لعمرك إني يوم (بُصرى) وناقتي — لمختلف الأهواء مصطحبان
هوى ناقتي خلفي وقُدّامي الهوى — وإني وإيّاها لمختلفان
متى تحملي شوقي وشوقك تضلعي — ومالك بالحمل الثقيل يدان
جعلت لعرّاف اليمامة حكمة — وعرّاف نجد إن هما شفياني
فما تركا رُقية يعرفانها — ولا شربة إلاّ وقد سقياني
وقالا شفاك الله والله مالنا — بما ضمنت منك الضلوع يدان

* * *

ومات عروة في طريقه قبل أن يصل إلى أهله ، وقيل : إنه وصل وحجَّ فلما وقف بعرفات بكى حتى خفت فإذا هو قد مات ؛ فقال ابن عباس : هذا قتيل الحب لاعقل ولا قود . فهذا حال من عشق فانياً ، وأحب ماضياً ، فكيف بمن أحبَّ الله ، واجتذبه الشوق إلى الله ، وعشق كل مايقرِّب إلى الله ، أو يدلّ على الله .

أُولئك أهل الله ، والصفوة الأولى :

أكرم بقوم رسول الله قائدهم — إذا تفرّقت الأهواء والشِّيَع

* * *

رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، ونفعنا بهم وببركاتهم والمسلمين أجمعين آمين .

الباب الثاني

في ذكر خرقة الصوفية ، وسند تشرفنا بالخرقة الرفاعية العلية وفيه نبذة يسيرة تُشير إلى جلالة قدر الغوث الأكبر مولانا السيد أحمد الرفاعي الحسيني الأطهر قدّس سرّه الأنور

سند هذه الخرقة المباركة ينتهي إلى الإمام عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه ورضي الله عنه من طريق الحسن البصري رضي الله عنه ، وإليه ينتهي سند لبس الخرقة الذي عليه طوائف الصوفية قُدّست أسرارهم ، وقد كتبت في كتابي الذي سمّيته (العناية الربانية في مُلخّص الطريقة الرفاعية) تلخيصاً كافياً في هذا الباب ، يجمع ملخّص ماعليه ساداتنا الرفاعية من القول في شرح خرقة الصوفية ، وها أنا سأُدرجه تبرُّكاً فأقول :

صحح الجلال السيوطي قدس سره لبس الحسن البصري رضي الله عنه الخرقة من سيدنا الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه ، كما صرّح بذلك الإمام عبد الوهاب الشعراني في طبقاته الوسطى ، وبطريق الاستئناس ذكر جماعة أن عمر بن الخطاب وعلياً رضي الله عنهما ألْبسا أُويساً القرني خرقة بإذن نبوي . قلت : وإن صحّ هذا فلايكون إلّا استئناساً للقوم لأن خرقة الصوفية تصل إليهم أسانيدها من الحسن البصري رضي الله عنه فلذلك يكون ماصححه الحافظ السيوطي دليلاً وحجة للقوم ، وذلك لأن علياً كرّم الله وجهه كساه رسول الله ﷺ بشيء

من أثوابه الشريفة فعلى هذا اتّصلت أسانيد الخرقة . وذكر الشيخ العارف العلاّمة ناصر السويدي البغدادي في كتابه (معراج السالكين إلى المقام الأمين) وهو الكتاب الذي استفاده من شيخه جدنا الخامس العارف المكين ، مولانا السيد حسين برهان الدين قدس سره مانصّه : سألته أحياه الله الحياة الطيبة عن معنى لبس الخرقة فقال : حقيقة التزيي بزيّ المرشد في الأفعال والأحوال ، وقد وصفوا هذا الأمر بوصف الكسوة وعظّموا شأنه وجعلوه كالمحسوس ، وأتبعوه بالمحسوس أيضاً ليتعيّن عند من سلك طريق القوم أن الشرط عندهم أنْ يتزيّا صاحبهم بزيّهم ، فمتى تزيّا بزيِّهم ترتّب عليه العمل بأعمالهم ، والتخلّق بأخلاقهم ، والوقوف معهم في أحواله ، ألا ترى الرجل الجندي متى لبس كسوة الجند تعيّنَ عليه خوض المعامع والمعارك واختراق الصفوف والوقوف أمام السهام ، وإذا رآه أحد عرف بالبداهة أنه ممن ترتّب عليه هذه الأفعال بدليل كسوته لاغير ، وإذا لبس لباس العامّة لم يُنظر مَنْ راه بذلك النظر ، ولاتمرُّ على خاطر مَنْ يراه هذه الأفعال ، وتنسلخ عنه واجباتها بمجرّد تجرُّده من كسوة الجند ، وكذلك من لبس الخرقة ، ولذلك قال سيدنا السيد أحمد الكبير الرفاعي رضي الله عنه لفقير رأى عليه جبّة صوف : ياولدي أُنظر بزيِّ مَنْ تزييت وبخلعة من تلبّست ، لبست لباس الأنبياء والمرسلين ، وتزييت بزيّ الأولياء والصالحين ، فاحفظ حقَّ زيِّهم بالتخلّق بأخلاقهم والعمل بأعمالهم وإلاّ فاخلعه عنك . وإن للقوم خوافي حِكَم قلبية في إلباس الخرقة يطوونها حالة الإلباس للمريد ، فيصلح الله تعالى شأنه كما طوى رسول الله ﷺ الأمن والإيمان في بُردته الشريفة التي ألْبسها كعباً الصحابي

صاحب بانت سعاد ، وهناك وراثة محمدية أخذها أهل القلوب عن الرسول المحبوب صلى الله عليه وسلم انتهى .

وهذا أوجه ما أراه على أن مقاصد القوم محكمة بالنيات لا دخل للمحسوس بها وإن كان المحسوس فلأصل قائم بالنيّة لاغير ، وقالوا : خرقة التصوف هي مايلبسه المريد من يد شيخه الذي يدخل في إرادته ويتوب على يده لأمور ؛ منها التزيي بزيّ المراد ليتلبس باطنه بصفاته كما يتلبس ظاهره بلباسه وهو لباس التقوى ظاهراً وباطناً ؛ ومنها وصول بركة الشيخ الذي ألبسه من يده المباركة إليه ، ومنها نيل مايغلب على الشيخ في وقت الإلباس من الحال الذي يرى الشيخ ببصيرته النافذة المنوّرة مايحتاج إليه لرفع حجبه العائقة وتصفية استعداده ، فإنه إذا وقف على حال من يتوب على يده علم بنور الحق مايحتاج إليه فيستنزل من الله ذلك حتى يتصف قلبه فيسري من باطنه إلى باطن المريد ؛ ومنها المواصلة بينه وبين الشيخ ليبقى بينهما الاتصال القلبي والمحبة دائما ، ويذكره الاتّباع على الأوقات في طريقته وسيرته وأخلاقه وأحواله حتى يبلغ مبلغ الرجال ، فإنه أب حقيقي كما قال عليه الصلاة والسلام : « الآباء ثلاثة أب وَلَدَك وأبٌ علّمك وأبٌ ربّاك » وما أحسن ماقيل :

أرى فضل أُستاذي على فضل والدي — وإن زادني براً وإن زادني لطف
فهـذا مربي العقـل والعقـل جوهر — وهذا مربي الجسم والجسم من صدف

* * *

وذكر السهروردي قدس سره في كتابه العوارف مانصّه : ويد الشيخ في لبس الخرقة تنوب مناب يد رسول الله ﷺ وتسليم المريد تسليم لله

ورسوله ، قال الله تعالى : ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ ويأخذ الشيخ على المريد عهد الوفاء بشرائط الخرقة ويعرّفه حقوق الخرقة فالشيخ للمريد صورة يستشفّ المريد من وراء هذه الصورة المطالبات الإلهية والمراضي النبوية ، ويعتقد المريد أن الشيخ بابٌ فتحه الله تعالى إلى جناب كرمه منه يدخل وإليه يرجع ، ويُنزل بالشيخ سوانحه ومهامّه الدينية والدنيوية ، ويعتقد أن الشيخ يُنزل بالله الكريم ماينزل المريد به ويرجع في ذلك إلى الله للمريد كما يرجع المريد إليه ، وللشيخ باب مفتوح من المكالمة والمحادثة في النوم واليقظة فلايتصرف الشيخ في المريد بهواه فهو أمانة الله عنده ، ويستغيث إلى الله لحوائج المريد كما يستغيث لحوائج نفسه ومهامّ دينه ودنياه ، قال الله تعالى : ﴿ وماكان لبشر أن يكلّمه الله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً ﴾ فإرسال الرسول يختصُّ بالأنبياء والوحي كذلك، والكلام من وراء حجاب بالإلهام والهواتف والمنام وغير ذلك للشيوخ الراسخين في العلم ، واعلم أن للمريدين مع الشيوخ أوان ارتضاع وأوان فطام ، وقد سبق شرح الولادة المعنوية ، فأوان الارتضاع أوان لزوم الصحبة ، والشيخ يعلم وقت ذلك فلاينبغي للمريد أن يفارق الشيخ إلاّ بإذنه قال الله تعالى تأديباً للأمّة : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنوك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ﴾ وأيّ أمر جامع أعظم من أمر الدين ، فلايأذن الشيخ للمريد في المفارقة إلاّ بعد علمه بأنه آن له أوان الفطام، وأنه يقدر أن يستقلّ بنفسه واستقلاله بنفسه أن

ينفتح له باب الفهم من الله ، فإذا بلغ المريد رتبة إنزال الحوائج والمهام بالله والفهم عن الله بتعريفاته وتنبيهاته سبحانه وتعالى لعبده السائل المحتاج فقد بلغ أوان الفطام ، ومتى فارق قبل أوان الفطام يناله من الاعلال في الطريق بالرجوع إلى الدنيا ومتابعة الهوى ماينال المقطوم لغير أوانه في الولادة الطبيعية ، وهذا التّلزُّم بصحبة المشايخ للمريد الحقيقي ، والمريد الحقيقي يلبس خرقة الإرادة ، واعلم أن الخرقة خرقتان خرقة الإرادة وخرقة التبرك ، والأصل الذي قصده المشايخ للمريدين خرقة الإرادة وخرقة التبرك تشبُّه بخرقة الإرادة ، فخرقة الإرادة للمريد الحقيقي وخرقة التبُّرك للمتشبُّه ومن تشبَّه بقوم فهو منهم ، وسُرّ الخرقة أن الطالب الصادق إذا دخل في صحبة الشيخ وسلَّم نفسه وصار كالولد الصغير مع الوالد يُربِّيه الشيخ بعلمه المستمَد من الله تعالى بصدق الافتقار وحسن الاستقامة ، ويكون للشيخ بنفوذ بصيرته الإشراف على البواطن فقد يكون المريد يلبس الخشن كثياب المتقشفين المتزهدين وله في تلك الهيئة من الملبوس هوى كامن في نفسه ليُرى بعين الزهادة ، فأشدّ ما على هذا لبس الناعم وللنفس هوى واختيار في هيئة مخصوصة من الملبوس في قِصر الكُم والذيل وطوله وخشونته ونعومته على قدر حسبانها وهواها ، فيُلبس الشيخ لمثل هذا الراكن إلى تلك الهيئة ثوباً يكسر بذلك على نفسه هواها وغرضها ، وقد يكون على المريد ملبوس ناعم أو هيئة في الملبوس تشربت النفوس تلك الهيئة بالعادة ، فيلبسه الشيخ مايخرج النفس من عادتها وهواها ، فتصرُّف الشيخ في الملبوس كتصرُّفه في المطعوم ، وكتصرُّفه في صوم المريد وإفطاره ، وكتصرُّفه في أمر دينه إلى مايرى له من المصلحة من

دوام الـذكـر أو دوام التنفـل بالصلاة أو دوام التلاوة أو دوام الخدمة ، وكتصرُّفه فيه بردّه إلى الكسب أو الفتوح أو غير ذلك ، فللشيخ إشراف على البواطن وتنوّع الاستعدادات ، فيأمر كل مريد من أمر معاشه ومعاده بما يصلح له ، ولتنـوّع الاستعـدادات تنـوّعت مراتب الـدعوة قال الله تعالى : ﴿ أُدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن ﴾ فالحكمة رتبة في الدعوة ، والموعظة كذلك ، والمجادلة كذلك ، فمن يُدعى بالحكمة لايدعى بالموعظة ، ومن يُدعى بالموعظة لاتصلح دعوته بالحكمة ، فهكذا الشيخ يعلم من هو على وضع الأبرار ، ومن هو على وضـع المقـربين ، ومن يصلح لدوام الـذكـر ، ومن يصلح لدوام الصلاة ، ومن له هوى في التخشّن أو في التنعم فيخلع المريد من عادته ، ويخرجه من مضيق هوى نفسه ويطعمه باختياره ويُلبسه باختياره ثوباً يصلح له وهيئـة تصلح له ، يداوي بالخرقة المخصوصة والهيئة المخصوصة داء هواه ، ويتوخّى بذلك تقريبه إلى رضا مولاه ، فالمريد الصادق الملتهب باطنه بنار الإرادة في بدو أمره وحِدّة إرادته كالملسوع الحريص على من يرقيه ويداويه ، فإذا صادف شيخاً انبعث من باطن الشيخ صدق العناية به لاطّـلاعه عليه ، وينبعث من باطن المريد صدق المحبة بتألّف القلوب وتشامّ الأرواح ، وظهور سر السابقة فيهما باجتماعهما لله في الله وبالله ، فيكون القميص الذي يلبس المريد خرقة يُبشّر المريد بحُسن عناية الشيخ به ، فيعمل عند المريد عمل قميص يوسف عند يعقوب عليهما السلام ؛ وقد نقل أن إبراهيم الخليل عليه السلام حين أُلقي في النار جُرِّد من ثيابه وقذف في النار عُرياناً ، فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة

وألبسه إيّاه ، وكان ذلك عند إبراهيم عليه السلام فلما مات ورثه إسحاق ، فلما مات ورثه يعقوب ، فجعل يعقوب ذلك القميص في تعويذ وجعله في عنق يوسف فكان لايفارقه ، فلما أُلقي في البئر عُريانا جاءه جبريل وكان عليه التعويذ فأخرج القميص منه وألبسه إيّاه . أخبرنا الشيخ العالم رضي الدين أحمد بن إسماعيل القزويني إجازة قال : أخبرنا أبو سعيد محمد بن أبي العباس ، أخبرنا القاضي محمد ابن سعيد قال : أخبرنا أبو إسحاق أحمد بن محمد قال : أخبرني ابن فنجوية الحسين بن محمد قال : حدّثنا مخلد بن جعفر قال : حدّثنا الحسين بن علوية قال : حدّثنا إسماعيل بن عيسى قال : حدّثنا إسحاق بن بشر ، عن ابن السدي عن أبيه عن مجاهد قال : كان يوسف أعلم بالله عزّ وجلّ من أن لايعلم أن قميصه لايرد على يعقوب بصره ولكن ذاك كان قميص إبراهيم وذكر ماذكرناه ، قال : فأمره جبريل أن أرسل بقميصك فإن فيه ريح الجنة لايقع على مبتلى أو سقيم إلاّ صحّ وعوفي ، فتكون الخرقة عند المريد الصادق مُتحمّلة إليه عَرف الجنة لما عنده من الاعتداد بالصحبة لله ، ويرى لبس الخرقة من عناية الله به وفضل الله ؛

فأمّا خرقة التبرّك يطلبها مَنْ مقصوده التبرّك بزيّ القوم ، ومثل هذا لايطالب بشرائط الصحبة بل يوصى بلزوم حدود الشرع ومخالطة هذه الطائفة لتعود عليه بركتهم ويتأدّب بآدابهم ، فسوف يرقّيه ذلك إلى الأهلية لخرقة الإرادة فعلى هذا خرقة التبرّك مبذولة لكل طالب ، وخرقة الإرادة ممنوعة إلاّ من الصادق الراغب .

قلت : وهذا تفصيل حسن ، وقد ذكر في العوارف مايستأنس به

لإلباس الخرقة مانصّه : أخبرنا الشيخ أبو زرعة عن أبيه عن الحافظ المقدسي قال : أخبرنا أبو بكر أحمد بن عليّ بن خلف الأديب بنيسابور قال : أخبرنا الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ قال : أخبرنا محمد بن إسحاق قال : أخبرنا أبو مسلم إبراهيم بن عبد الله المصري قال : حدَّثنا أبو الوليد قال : حدَّثنا إسحاق بن سعيد قال : حدَّثنا أبي قال : حدَّثتني أُمّ خالد بنت خالد قالت : أُتي النبي ﷺ بثياب فيها خميصة (١) سوداء صغيرة فقال : « من ترون أكسو هذه » فسكت القوم ، فقال رسول الله ﷺ : « ائتوني بأُمّ خالد » قالت : فأُتي بي فألبسنيها بيده وقال : « أبلي وأخلقي » يقولها مرتين وجعل ينظر إلى علم في الخميصة أصفر وأحمر ، ويقول : « ياأُمّ خالد هذا سنا » والسنا هو الحسن بلسان الحبشة . انتهى .

ومن المعلوم أن أشياخ خرقة الصوفية تنتهي نسبتهم كما تقرر إلى الإمام أمير المؤمنين عليّ كرّم الله وجهه ، وقد تفرعت منه طوائف الخرقة من طريق الحسن البصري رضي الله عنه ، ولازالت تتفرّع إلى سنة السبعمائة ثم ختم على ماظهر أمر التفرّع وصارت الفروع التي سيأتي ذكرها بالنسبة لمن بعدهم أُصولاً ، فأوّل أشياخ الخرقة بعد الإمام مولانا وسيدنا أمير المؤمنين عليّ كرّم الله وجهه ورضي الله عنه ، سيدنا الإمام أبو سعيد الحسن البصري رضي الله عنه ، فهو شيخ الصوفية ورئيس رجال خرقتهم وإمامهم الذي يرجع إليه ، وعظيم حزبهم ، وقائد ركبهم ، وقد ذكره أكابر السلف بالمناقب العظيمة ، والمآثر الفخيمة ، وأثنى عليه أعاظم

(١) الخميصة : العبا .

المسلمين خلفاً بعد سلف ، ووقع على قبول طريقه ، وصحة حاله ، ورفعة كماله الإجماع ، وانتهى إليه شرف هذا الشأن ، تلقّى العهد ، وتلقّن الذكر ، ولبس الخرقة من أمير المؤمنين عليّ كرّم الله وجهه . قال سفيان الثوري رضي الله عنه : الحسن البصري أجلّ أصحاب عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وكان يصلّي خلف عليّ وكان ليلة قتْله كرّم الله وجهه يصلّي خلفه ، وهو أحد أعيان الفقهاء بعد العبادلة رضي الله عنهم ، وكان يغلظ على الظالمين النُّصح ولايخاف في الله لومة لائم ، ولما مرض الحجاج مرض موته وسلّط الله تعالى عليه الزمهرير فكانت الكوانين تجعل حوله مملوءة ناراً وتدنى منه حتى تحرّق جلده وهو لايحسّ بها ، فشكى مايجده إلى الحسن البصري ، فقال له : قد نهيتك أن تتعرّض للصالحين ، ثم لما مات الحجاج سجد الحسن شكراً لله تعالى وقال : اللهم كما أمتّه فأمِتْ عنا سُنّته ، ولما قتل الحجاج سعيداً بن جبير المخزومي رضي الله عنه قال الحسن البصري رضي الله عنه : اللهم أنت على فاسق ثقيف والله لو أن من بين المشرق والمغرب اشتركوا في قتله لكبّهم الله تعالى في النار . فما كان بعد قليل إلّا ودمّر الله الحجاج وأنفذ فيه سهم دعاء الإمام الحسن البصري رضي الله تعالى عنه . قال الزُّهري رحمه الله : العلماء أربعة ابن المسيّب بالمدينة (المنورة) ، والحسن البصري بالبصرة ، والشعبي بالكوفة ، ومكحول بالشام رضي الله عنهم .

وُلد الإمام الحسن البصري لسنتين بقيتا من خلافة عمر رضي الله عنه ، وتوفي سنة عشر ومائة . قال أهل الطبقات فيه : كان إماماً قدوة صالحاً زاهداً فاضلاً جامعاً عالماً رفيعاً فقيهاً حُجّة مأموناً عابداً ناسكاً جميلاً

وسيماً وكان من سادات التابعين وكبرائهم ، وجمع من كل فنّ أتمّه مع علم وزهد وورع وعبادة ، أبوه مولى زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه وأمّه مولاة أمّ سلمة زوج النبي ﷺ ورضي الله عنها ، وربما غابت أمّه في حاجة فيبكي ، فتعطيه أم سلمة رضي الله عنها ثديها تعلّله به إلى أن تجيء أمّه فيدر ثديها عليه ، فيرون أن تلك الحكمة والفصاحة من بركة ذلك .

ذكر الإمام الشعراني في طبقاته الوسطى أن حسن البصري رضي الله عنه صلى الغداة بوضوء العتمة أربعين سنة ، وكان أكثر مشيه حافياً ، وكان له هيبة عظيمة ، وكان يقول : والله لو كنت ممن أعان على قتل الحسين أو رضي به وعرضت عليّ الجنة مادخلتها حياء من رسول الله ﷺ وخوفاً أن ينظر إلي نظرة غضب . وقال : كان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم لايخاف في الله لومة لائم . ورأى الحسن يوماً رجلاً وسيماً حَسَنُ الهيئة عليه فسأل عنه فقيل له : إنه يتمسخر للملوك ويحبونه ، فقال لله أبوه أو قال لله درّه مارأيت أحداً يطلب الدنيا بما يشبهها إلاّ هذا . قلت : يعني أن الدنيا رذيلة فأخذها بالرذائل أنسب من أخذها بالفضائل . وكان أكثر كلامه حكماً وبلاغة ولما حضرته الوفاة أُغمي عليه قبل موته ثم أفاق فقال : لقد نبهتموني من جنات وعيون ومقام كريم . وقال رجل قبل موته لابن سيرين : رأيت كأن طائراً أخذ حصاة بالمسجد . فقال : إن صدقت رؤياك مات الحسن . فلم يكن إلاّ قليلاً حتى مات الحسن ، فتبع الناس جنازته فلم تقم صلاة العصر بالمسجد وما عُلم أنها تُركت فيه مُذ كان الإسلام إلاّ يومئذ لأنهم تبعوا الجنازة حتى لم يبق من يصلي في المسجد ، قلت : وله رضي الله عنه مع الحجاج وقعات عظيمة واجهه فيها بكلام

صادع وسلّمه الله تعالى من شرّه ، ومما رُوي من تفخيم الحجاج له أنه جاء ذات يوم راكباً على برذون أصفر فأقام الجامع ، فلما دخله رأى فيه حلقات متعدّدة فقصد حلقة الحسن فلم يقم له بل وسّع له في المجلس فجلس إلى جنبه ، قال الراوي : فقلنا : اليوم ننظر الحسن هل يتغيّر عن عادته في كلامه وهيئته ؟ فلم يغيّر شيئاً من ذلك بل أخذ على نسق عادته من غير زيادة ولا نقص ، فلما كان في آخر المجلس قال الحجاج : صدق الشيخ عليكم بهذه المجالس ، فقد قال رسول الله ﷺ : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » ولولا ما ابتلينا به من هذا الأمر لم يغلبونا عليها أو قال لم يسبقونا إليها ، ثم افترّ عن لفظ أُعجب به الحاضرون ثم نهض فمشى طريقه . انتهى .

وقد أطبق القوم على أن إمام طريق التصوف من التابعين الحسن البصري رضي الله عنه ، وقد انتهت إليه أسانيد الصوفية على الغالب . قال محمد بن الحسن : كان الحسن البصري قدوة وإماماً في الشريعة والطريقة والسُّنَّة . وقال غيره من القوم : اجتمعت سيرة الهداية في الحسن البصري ، فمن أحبّ اتّباع سُنَّة رسول الله ﷺ والعمل بما كان عليه أصحابه رضي الله عنهم فليقتدِ به فإنه نعم القدوة . وكان يقول : أكرم إخوانك هو الذي يدوم لك ودّه وليس بأخيك من احتجت إلى مداراته . وكان إذا جلس بين الناس يجلس ذليلاً كالأسير ، وإذا تكلم يتكلم كلام رجل قد أُمر به إلى النار ، وكان يقول : من لبس الصوف تواضعاً لله زاده نوراً في بصره وقلبه ، ومن لبسه إظهاراً للزهد في الدنيا والتكبُّر به على الإخوان في نفسه كُوِّر في جهنم مع الشياطين ؛ وكان يقول : ما كل الناس

يصلح للبس الصوف لأنه يطلب صفاء ومراقبة لله عز وجل . وقيل له مرّة : ماسبب لباسك الصوف فسكت فقيل له : ألا تُجيب ، فقال : إن قلت زهداً في الدنيا زكيت نفسي ، وإن قلت فقراً وضيقاً شكوت ربي والله تعالى أعلم . وقد كان رضي الله عنه أعلم أهل عصره بالسُّنَّة السنية وأعملهم بها ، ولهذا نفع الله به المسلمين ، وأيّد به وبأتباعه كلمة الحق والدين ، وقد كانت طريقته المباركة تتداول بين أعيان الأعصار ، وأفراد الرجال الأخيار ، كسيدنا الحبيب العجمي رضي الله عنه ، وسيدنا كميل بن قعود رضي الله عنه ، وسيدنا ميمون بن مهران رضي الله عنه ، وجماعة من أعيان التابعين وتابعيهم العارفين ، كسيدنا الإمام داوود الطائي رضي الله عنه ، وسيدنا الإمام معروف الكرخي رضي الله عنه ، وسيدنا الشيخ سري السقطي رضي الله عنه ، وفشت طريقته المباركة على أيدي هؤلاء الرجال ، وانتسب لهم الأكابر من أهل العلم والحال ،

﴿ إمامة الجنيد في الطريق ونبذة من أقوال العلماء بشأنه ﴾

حتى مَنَّ الله تعالى على المسلمين بمجدِّد أمر الشريعة ، ورافع لواء الطريقة ، تاج العارفين ، إمام الصالحين ، مرشد الثقلين ، مُؤيِّد شريعة سيد الكونين ، شيخ الطائفتين ، المتصدِّر لإحياء سُنَّة النبي الهادي ، مولانا الإمام أبي القاسم الجُنيد البغدادي رضي الله عنه ، فأحكم مباني الحقيقة ، وأيّد منار الطريقة ، ووطّد منهاج الصدق والكرامة ، وتوشّح في هذا الطريق بُردة الإمامة ، وصار مُقدّم كل عالم ، وإمام كل عارف ، وقال بتقدمه وإمامته الموافق والمخالف .

قال الإمام اللّقاني في كتابه (هداية المريد لجوهرة التوحيد) عند قوله :

ومالك وسائر الأئمة كذا أبو القاسم هُداة الأمّة
فواجب تقليد حبر منهمُ كذا حكى القوم بلفظ يفهم

* * *

قال : وأما قوله : كذا أبو القاسم . فيعني به أن أبا القاسم الجُنيد سيِّد أهل التصوّف علمًا وعملاً من هُداة الأمّة أيضاً ، أي طريقه مقوّم مثل طريقهم في الصحة والسداد ، خالٍ من الابتداع والزيغ في الاعتقاد ، دائر بين سبيلي التسليم والتفويض والتبري من النفس ؛ ومن كلامه : الطريق إلى الله تعالى مسدود على خلقه إلاّ على المقتفين آثار رسول الله ﷺ ؛ ومن كلامه أيضاً : رأيت في المنام أني أتكلم على الناس (يعني يعظهم) فوقف عليّ مَلَك فقال : ما أقرب ماتقرّب به المتقرّبون إلى الله سبحانه . فقلت : عمل خفيّ بميزان وفيّ ؛ فولّى وهو يقول : كلام موفّق والله أعلم . انتهى .

وقد تبيّن من هذا أن علماء الشرع رضي الله عنهم ، أوجبوا تقليد الإمام الجنيد البغدادي في طريقه ، وأوضحوا بأنه إمام مذهب التصوّف ، وأن طريقه مقوّم صحيح سديد لا بدعة ولا زيغ فيه ، ولاشكّ ولا ريب يعتريه ، وبه أعظم الله شرف الطريق ، وقاد إليه أهل القبول من كل فج عميق ، وتفرّعت عنه طُرُق الصوفية الكرام ، ورجع إلى بيعته أسانيد الخواص منهم والعوام ، وهو في هذا الطريق الإمام المرجوع إليه ، والمرشد الأكبر الذي يُعوّل عليه ، نعم يوجد في بعض أسانيد رجال بعض الطُرق سلاسل شيوخ لا وصلة لهم بالإمام الجنيد ، ولا بشيخ الصوفية إمام خرقة

القوم الحسن البصري رضي الله عنه وينتسبون إلى أيادٍ أُخر ، فإنه وإن كان أمر تلك النسبة مستند إلى سبب صحيح وأصل مليح محفوظ عندهم ، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ إلاّ أنه خلاف المعتبر المشهور ، والمتواتر المذكور ، وعلى هذا فلابدَّ لهم من أسانيد أُخر ترجع إلى سند الإمام الجنيد رضي الله عنه ، ارتباطاً بالحبل المتواتر الوصلة نفعنا الله برجاله أجمعين ، وليعلم أن الأسـانيد التي تتصل بالإمام الجُنيد مع كثرتها أعمّها بركة ، وأكثرهـا شهرة ، وأنفذها تداولاً سندان ، الأوّل السند المتصل به من خليفته وصاحبه العارف بالله مولانا الشيخ أبي بكر الشبلي ؛ والسند الثاني السند المتصل به من طريق خليفته القاضي أبي محمد رويم البغدادي رضي الله عنهم أجمعين .

وقد جمع الله تعالى بركتي الوصلتين المنتهيتين للإمام الجُنيد من هذين السندين لسيدنا وشيخنا ومفزعنا السيد أحمد الرفاعيّ الحسينيّ الكبير رضي الله عنه وقدس أسراره ، وشيّد إلى منتهى الدوران بالتأييد آثاره ومناره آمين ، وسيأتي ذكر ذلك كما سنذكر تشرُّفنا بسند خرقته المباركة ، وبهذين السندين المذكورين تنتهي أسانيد الطُّرُق على الغالب ، وها نحن نذكر للطالب أسماء الطرق المباركة ، وأسماء فروعها ، وكيفية اتصالها برجال الخرقة فنقول :

﴿ سند الطريقة العليّة الرفاعيّة وفروعها ﴾

الطريقة العلية الرفاعية تنتهي إلى سيد الأولياء ، وإمام الأصفياء ، شيخ الأمّة ، المستغاث به في المهمّة ، تاج الأقطاب ، وإمام الأحباب ، الولِيّ الأجلّ ، والعَلَم الأطول ، بحر المعارف ، ومُقتدى كل عارف ، شيخ المشايخ ، والجبل الراسخ ، الإمام الأشهر ، الغوث الأكبر ، سيد أولياء زمانه ، وإمام هذا الشأن ومُؤيِّد أركانه ، عَلَم مشايخ العرب والعجم ، المشرَّف علناً عام حجه بتقبيل يد النبي ﷺ السيد الشهير مولانا أبي العلمين السيد أحمد الرفاعي الحسيني الكبير رضي الله عنه ، ابن السيد أبي الحسن عليّ ، ابن السيد يحيى ، ابن السيد ثابت ، ابن السيد حازم ، ابن السيد أحمد ، ابن السيد عليّ ، ابن السيد الحسن أبي المكارم المعروف برفاعة المكيّ ، ابن السيد المهدي ، ابن السيد محمد أبي القاسم ، ابن السيد الحسن ، ابن السيد الحسين ، ابن السيد أحمد الأكبر ، ابن السيد موسى الثاني ، ابن السيد الإمام إبراهيم المرتضى ، ابن السيد الإمام موسى الكاظم ، ابن السيد الإمام جعفر الصادق ، ابن السيد الإمام محمد الباقر ، ابن السيد الإمام زين العابدين عليّ ، ابن السيد الإمام الحُسين السبط الشهيد بكربلا ، ابن سيدنا ومولانا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه ورضي الله عنه ، رُزِقَه من زوجته البتول الطاهرة النبوية ، سيدة نساء البرية ، بضعة الرسول المعظَّم فاطمة الزهراء رضي الله عنها ، بنت سيد الأنام ، ومصباح الظلام ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، وعلى آله الكرام ، وأصحابه العظام ، وأتباعه الأعلام آمين .

أخذ رضي الله عنه طريقة القوم عن الشيخ علي الواسطي القاري ،

وهو أخذها عن الشيخ أبي الفضل بن كامخ ، عن الشيخ غلام بن تركان ، عن الشيخ أبي عليّ الروزبادي ، عن الشيخ علي العجمي ، عن الشيخ أبي بكر الشبلي ، عن الشيخ أبي القاسم الجنيد البغدادي ، عن خاله الشيخ سري السقطي ، عن الشيخ أبي محفوظ معروف الكرخي ، عن الشيخ داوود الطائي ، عن الشيخ حبيب العجمي ، عن الشيخ أبي سعيد مولانا الحسن البصري ، عن سيدنا ومولانا الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه ورضي الله عنه وعنهم أجمعين ، عن النبي الأعظم ، والرسول الأكرم ﷺ .

وأخذ رضي الله عنه أيضاً الطريقة ولبس الخرقة من خاله سيدنا الشيخ منصور الرباني البطائحي المعروف بين القوم بالباز الأشهب ، وهو أخذ عن خاله الشيخ أبي منصور الطيب ، وهو أخذ عن ابن عمه الشيخ أبي سعيد يحيى النجاري الواسطي الأنصاري ، عن الشيخ أبي عليّ القرمزي ، عن الشيخ أبي القاسم السندوسي الكبير ، عن الشيخ أبي محمد رويم البغدادي ، عن الشيخ الجنيد البغدادي ، عن الشيخ سري السقطي ، عن الشيخ معروف الكرخي ، عن الإمام عليّ بن موسى الرضا ، عن أبيه الإمام موسى الكاظم ، عن أبيه الإمام جعفر الصادق ، عن أبيه الإمام محمد الباقر ، عن أبيه الإمام زين العابدين علي ، عن أبيه الإمام الهمام سبط الرسول عليه الصلاة والسلام ، سيدنا الحسين الشهيد بكربلا ، عن أبيه الإمام ، عَلَم الإسلام ، معدن الكرامة والوفا ، صهر سيدنا الرسول المصطفى ، أسد الله الغالب ، أمير المؤمنين مولانا عليّ بن أبي طالب ـ كرّم الله وجهه ـ عن النبي ﷺ وهو عليه الصلاة والسلام

قال : « أدّبني ربيّ فأحسن تأديبي » صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وهذه الطريقة الجليلة الرفاعية فروع عظيمة معروفة في البلاد الإسلامية بحمد الله ، مآثر رجالها شهيرة ، وبركاتهم كثيرة ، وقد صحّ عند أصحاب هذه الخرقة أن خلفاء سيدنا السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه وخلفائهم بلغت عدّتهم المائة والثمانين ألفاً حال حياته نفعنا الله به وبهم أجمعين .

« من مشاهير خلفاء الإمام الرفاعي وبعض خلفائهم »
« رضي الله عنه وعنهم أجمعين »

ويحسن هنا أن نذكر للتبرك جماعة منهم ومن أصحابهم ، فمن الذين تخرّج بصحبته الإمام العارف الرباني الشيخ حيوة بن قيس الحرّاني رضي الله عنه قال ابن الحاج في « أم البراهين » ومثله قال أيضاً الإمام محمد بن قاسم الواسطي الشافعي في « البهجة الكبرى » بايع الشيخ حيوة بن قيس الحراني شيخه الإمام السيد أحمد الرفاعي مع جماعة من الرجال على نهر دقلى بواسط ولبس خرقته وذكر الجلال السيوطي قدس سره في كتابه « الشرف المحتّم » ما ملخصه : إن الشيخ حيوة بن قيس الحراني لبس خرقة السيد أحمد الكبير الرفاعي رضي الله عنه واندرج في سلك أصحابه في اليوم الذي مُدّت له يد النبي ﷺ والقصة مشهورة . قلت : وقد يكون ذلك الانتساب ولبس الخرقة المباركة الرفاعية وقع مع الشيخ حيوة بن قيس رضي الله عنه مكرّراً مرة بواسط ومرة بالمدينة المنورة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام والتحية .

ومن تخرّج بصحبته المباركة أيضاً الشيخ المحدّث الجليل عبد العظيم المنذري ، والشيخ العارف بالله إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الكازروني الصديقي صاحب ﴿ شفاء الأسقام ﴾ والشيخ الحجّة الوليّ الأشهر مجرد الأكبر ، والشيخ عماد الدين الزّنجي بفتح الزاي نسبة لقرية من أعمال واسط يقال لها ﴿ زنج ﴾ وقد كان عماد الدين هذا من حُجّاب الخليفة المستضيء بأمر الله العباسي قبل النفحة والانتساب للحضرة الرفاعية ، ومنهم أيضاً الولي المشهور في البقاع الدمشقية الشيخ حسن القطناني الراعي من أهل ﴿ قطنة ﴾ قرية من أعمال دمشق أخذ عنه الخلافة ولبس منه الخرقة عام حجّه الذي مُدّت له فيه يد النبي ﷺ كما ذكر ذلك ابن الحاج في ﴿ أم البراهين ﴾ ومنهم الشيخ عبد المحسن الواسطي ابن شيخه سيدنا الشيخ علي الواسطي ، والشيخ تقي الدين الواسطي ، والشيخ صالح بن بكران ، والشيخ منصور البطائحي الصغير ، والشيخ أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن سيد بونة الخزاعي المغربي ، وقد ذكر ماعليه من العرفان وعلو الشان الشيخ محيي الدين العربي في فتوحاته وغيرها من كتبه ، ومنهم أيضاً الشيخ حسين بن الربيع ، والشيخ محبوب ، والسيد حسن النقيب المعروف ببيدار الرضوي الموسوي ، والشيخ الولي الشهير سعد الله البرزباني ، والشيخ مقدام الحدادي ، والشيخ عبد الخير الحربوني ، والشيخ أبو بكر خطيب السعدية العلّامة الشهير ، والشيخ فرج المغني ، والشيخ أبو القاسم الصلحي ، والشيخ علي بن نعيم المشهور العارف ، والشيخ محمود الحيران الرومي أمير آقشهر من بلاد الترك ودفينها المتجرّد المولّع المولّه رضي الله عنه ، ومن خلفائه أيضاً الشيخ براق

أحد أكابر التركستان والشيخ أحمد اليسوي شيخ الختن والخطا وبلاد التركستان الملاصقة للجين الأقصى ، وفد عليه بتلامذته وجماعة من مريديه إلى ﴿ أمّ عَبِيدة ﴾ وانتسب إليه ولبس خرقته وأمره بالعود إلى بلاده فعاد ونشر الله على يده أعلام الطريقة ، كما ذكر ذلك الشريف العدني في كتابه (النجم الساعي) ومنهم الشيخ قنبر الحبشي رضي الله عنه ، والشيخ أبو البدر العاقولي الواسطي ثم البغدادي الذي ذكر الشيخ محي الدين مآثره وعرفانه في فتوحاته مراراً ومنهم الشيخ محمد الأكبر الدوراقي ، والشيخ مسعود الأنادولي التركي ، والشيخ منصور القزويني ، والشيخ عمر الهروي ، والشيخ عجلان الحسيني المكي ، والإمام الأجلّ أبو شجاع الشافعي الفقيه ، ومجتهد المذهب الشافعي الإمام عبد الكريم الرافعي ، ومنهم الشيخ أبو الفرج عمر الفاروثي ثم الكازروني الواسطي ، وعنه أخذ ولده الإمام أبو إسحاق إبراهيم ، وعنه ولده عز الدين أحمد الفاروثي الكازروني ، وعنه جماعة أعاظم من جملتهم برهان الدين العلوي ، وعماد الدين أبو العلم محمد الجندي ، والنجم الأصفهاني ، ورضي الدين الطبري ، والنجم الأصفهاني هذا هو شيخ السيد إبراهيم الدسوقي رضي الله عنهما فإنه ألبسه خرقته وبه تخرّج ، وعلى هذا فالخرقة الدسوقية كما أنها نجيبية فرفاعية من طُرُق متعدِّدة وأن الشيخ عز الدين أحمد الفاروثي شيخ هؤلاء الجماعة انتسب إليه جُلّ علماء عصره ويتصل به أيضاً نسبة الإمام جلال الدين السيوطي ، والإمام الشعراني وغيرهم ، وناهيك بهذه الطبقة المباركة من طبقة ، ومنهم أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن سيد بونة الخزاعي ، وعنه أخذ القطب أبو محمد

عبد الرحمن المدني العطار المشهور بالزيات ، وعنه أخذ القطب عبد السلام بن بشيش ويقال مشيش ، وعنه أخذ القطب أبو الحسن الشاذلي قدس سره وتتصل نسبة الشاذلي أيضاً بالشيخ عبد السلام بن مشيش عن القطب الكبير برّي العراقي ، عن الغوث الأكبر سيدنا السيد أحمد رضي الله عنه ، وعن الشيخ بري المشار إليه لبس الخرقة الرفاعية سيدنا القطب السيد أحمد البدوي ، كما صرّح بذلك الشعراني في الطبقات الوسطى ، والحافظ الشيخ تقي الدين الواسطي ، والإمام أبو الفتح الواسطي نزيل الإسكندرية شيخ مشايخ الإسلام عبد العزيز الديريني ، وعلي المليجي ، وعبد السلام الإقليبي رضي الله عنهم أجمعين ، ومنهم الشيخ تقي الدين الفقير النهروندي الواسطي شيخ أشياخ الشيخ أبو الحسن الشاذلي قدست أسرارهم ، ومنهم الشيخ جمال الدين الخطيب الحدادي الواسطي ، والشيخ علي بن نعيم البغدادي ، والشيخ الجليل قطب الرجال العارف الرباني الشيخ يعقوب بن كراز الواسطي ، وأمثالهم رضي الله عنهم أجمعين ، ونفعنا بهم والمسلمين ، وأقول فيه متبّركاً مرتجلاً :

أبو العَلَمين الغوث ذو القدم التي	على إثرها الأفراد لله تذهب
عصابته زُهر النجوم وإنهم	متى غاب منهم كوكب لاح كوكب

* * *

﴿ فمما تفرع عن الطريقة العلية الرفاعية ﴾

﴿ السلسلة الواسطية ﴾

ومن الفروع التي أخذت اسم الطُرُق المنسوبة للحضرة الرفاعية السلسلة الواسطية ، وسلسلة هذا الفرع تتصل بسيدنا السيد أحمد الكبير بواسطة الشيخ الإمام الهمام عبد السميع بن أبي تمام عبد الله بن عبد السميع المعروف بأبي المظفر الهاشمي الواسطي العباسي ، من ذرية الأمير الشهير الشريف الهاشمي الكبير جعفر بن سليمان بن علي بن ترجمان القرآن أعني سيدنا عبد الله بن العباس عم النبي ﷺ وُلد الشيخ عبد السميع الهاشمي هذا سنة ست وستين وأربعمائة ، ومات في ذي القعدة سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، هذا ماذكره الحافظ السيوطي قدس سره في كتابه (رفع الباس عن بني العباس) وأما ماذكره الحافظ تقي الدين الواسطي في ترياقه والشيخ الإمام عبد الكريم الرافعي في ﴿ سواد العينين ﴾ فإنه يصرح بأن وفاة الشيخ عبد السميع قدس سره بعد سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وعنه تلقَّى ولده الشيخ الحجة القدوة الإمام ولي الله شرف الدين محمد بن عبد السميع الهاشمي ، وهو الذي جمع كتاب ﴿ البرهان المؤيَّد ﴾ رواية من فم الأستاذ الأعظم ، والغوث الأكبر المكرم ، شيخ مشايخ الإسلام ، مرشد الخواص والعوام ، مولانا السيد أحمد الكبير الرفاعي رضي الله عنه ، وقد أثنى على الشيخ شرف الدين المشار إليه الإمام السُبكي في طبقات الشافعية وعظَّم شأنه ، وقال السيوطي عند ذكره صنَّف أشياء وروى الكثير ، وكان من أكابر أهل بلده وعلمائهم ومن بيت العلم والدين ، ثقة حسن النقل روى عنه الدبيقي وأبو

الطاهر الأنماطي وبالإجازة أبو المعالي الأمير قوهي ، مات في سادس محرم سنة إحدى وعشرين وستمائة .

« ومما تفرّع عن الطريقة العلية الرفاعية »

« ماتفرع عن السلسلة الواسطية »

ومن الفروع التي اشتهرت بالواسطية سلسلة الفرع المتصلة بسيدنا السيد أحمد من طريق الحافظ تقي الدين الواسطي الكبير ، والإمام أبي الفتح الواسطي نزيل الإسكندرية الذين تقدم ذكرهما ولكل منهما شعبة ، ومنها سلسلة الفرع المتصل بالشيخ الجليل ، العارف الأصيل ، كنز الآداب ، وقدوة الأحباب ، أبي المظفر منصور بن المبارك الواسطي قدس سره .

قلت : وقد نقل صاحب « سواد العينين » الإمام الرافعي في كتابه المذكور منقبة لهذا الأستاذ الأجل ، وفيها خارقة من غُرّ كرامات مولانا السيد أحمد الكبير الرفاعي رضي الله عنه يعذب أن نذكرها بنصها وهاهي :

قال الرافعي : أخبرني الشيخ الجليل الإمام العدل أبو البركات محمد الهاشمي العباسي أن الشيخ الجليل القدر أبا المظفر منصور بن المبارك الواسطي قدس سره جاء عام وفاة السيد أحمد الكبير إلى « أمّ عَبيدة » ووقف على قبر القطب المشار إليه وأنشد في ملأ عظيم من الناس .

سرت ناقتي ليلاً فسبحان من أسرى	إلى الساحة القعساء والحضرة الكُبرى
وحطّت حول السير مُثقلة على	أريكة باب دونه جبهة الخضرا
أنخت بها والفجر سلّ على الدُّجى	نصالاً فيا لله ذا الفجر ما أجرى

عجبت لضوء الفجر كيف تقشعت ... به مُثقلات العتم عن منكب الغبرا
كأن مُحيًا الصبح والشمس حوله ... جبين الرفاعي ابن فاطمة الزهرا
إمام به تُحل الخطوب وينطوي ... بساط ذنوبٍ طالما أوهن الظهرا
عليك بقرم القوم من آل هاشم ... تذلّ لك الدنيا وتحلو لك الأخرى
من الزُّهر ميمون النقيبة سيّد ... تلوح على بيضاء غُرّته البشرى
ترى شوس أهل الله تحت لوائه ... فهم جنده براً وعُمّاله بحرا
لقد أمّهم في مسجد القرب مرشداً ... كما أمّ طه الأنبيا ليلة الإسرا
تُذكّرنا بالمعجزات فِعاله ... وإن أخا الإيمان تنفعه الذكرى
عظيم قريش شيخ منبرها الذي ... مناقبه تُتلى وآياته تُقرا
إذا زرته زرت الحُسين وصنوه ... وشاهدت عنواناً عن المرتضى جهرا
من القارعين الخصم والنيل ماطر ... من الحافظين الجار والدار لاتدرى
من الجعفريين الجحاجحة الأولى ... أبو العمة السوداء والهمة الغرا
توسّل به لله واضرع بجاهه ... إلى الله في الضرّا وبشراك بالسرّا
هو الغوث والغيث المريع ومنتقى ... خزانة طه اليوم والقُدْة الخضرا
هو الحُجة الكبرى على كل قائم ... أجل غيره في القوم حُجته صُغرى
لئن سامني عامي برزء وفاته ... فما ضرّ أني زرت عن عينه القبرا
به أتقي سهم الزمان وأرتقي ... معاريج خير لا أُحيط بها خُبرا
عليه سلام الله ما انفلق الدجى ... بصبح وشمّ الناس من ذكره عِطرا

* * *

فظهر صوت من قبر السيد أحمد أحاط بالقبة المباركة يقول : وعليك السلام . انتهى .

وسلاسل الفروع الواسطية كثيرة ، ولها شُعب شهيرة ، نفعنا الله بهم أجمعين .

﴿ ومما تفرّع عن الطريقة العلية الرفاعية ﴾

﴿ الطريقة البدوية ﴾

ومن الفروع الرفاعية أيضاً سلسلة فرع الطريقة البدوية التي تنتهي إلى ثالث الأقطاب الأربعة ، الغوث الجليل ، والسيد الشريف الأصيل ، أبو الفتيان ، وقطب أهل العرفان ، مغيث الأسير ، مولانا وسيدنا السيد أحمد البدوي الحسيني الشهير - رضي الله عنه - ابن علي ، بن إبراهيم ، بن محمد ، بن أبي بكر ، ابن إسماعيل ، بن عمر ، بن عليّ ، بن عثمان ، بن حسين ، بن محمد ، بن موسى ، بن يحيى ، ابن عيسى ، بن عليّ ، بن محمد ، بن الحسن ، بن عليّ ، بن محمد ، بن علي الرضا ، بن موسى الكاظم ، بن الإمام جعفر الصادق ، بن الإمام محمد الباقر ، بن الإمام عليّ زين العابدين ، بن السبط سيدنا الحسين ، بن سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ .

قال الإمام الشعراني في طبقاته الوسطى : وقد رأيت بخط الإمام العالم المحدِّث العدل الرضي أبي المحاسن يوسف سبط الحافظ ابن حجر ترجمة لسيدي أحمد البدوي حين سُئل فقال : هو أحمد بن علي بن إبراهيم بن محمد بن أبي بكر البدوي المعروف بالسطوحي رضي الله عنه ، أصله من بني بري قبيلة من عرب الشام ، تسلّك على يد الشيخ بري أحد تلامذة الشيخ أبي نعيم أحد مشايخ العراق ، وأحد أصحاب سيدي أحمد بن الرفاعي ، ومولده بفاس سنة ست وتسعين وخمسماية ، وطاف البلاد ،

وأقام بمكة والمدينة ثم بمصر ثم دخل « طندتا » سنة أربع وعشرين وستمائة ، وأخذ عنه الشيخ المعمر عبد العال كما سيأتي بيانه في ترجمته بعد إحدى وستين شيخاً من هذه الطبقات ، وبيان جميع من بلغنا أنه من أصحاب السطح وأتباعهم المفرقين في أقاليم الأرض، ومما بلغني من جماعة من أهل بيروت قالوا أسرتنا الفرنج وكنا اثني عشر رجلاً فأقمنا في بلاد الفرنج يستخدمونا في الأعمال الشاقة حتى كدنا نموت فألهمنا الحق تعالى يوماً أننا قلنا ياسيدي أحمد يابدوي إن الناس يقولون أنك تأتي بالأسرا إلى بلادهم ، وقد سألناك بالنبي ﷺ أن تردّنا إلى بلادنا ، قالوا: ففي ذلك اليوم نزلنا مركباً ليس فيها أحد وقذفنا فلم يشعر بنا الفرنج حتى سرنا في البحر نحو ميلين ، فخرجوا وراءنا فلم يدركونا إلى أن وصلنا بلادنا ببركة سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه . انتهى بحروفه من الطبقات الوسطى .

وقد تخرّج بصحبة سيدي أحمد رضي الله تعالى عنه جمّ غفير ، وحزب عظيم من أكابر الأولياء ، وكان رضي الله عنه يربي بالنظر ، قال السخاوي رحمه الله : كان سيدي أحمد البدوي إذا نظر المريد نظرة مخصوصة يوصله بتلك النظرة إلى مقام الشهود . وقال الشعراني أيضاً : ومما شهدته من كراماته في سنة سبع وأربعين وتسعمائة أن شخصاً راود امرأة عن نفسها في قبته فسمره ويبّس أعضاءه ، فكان يصيح حتى كاد أن يموت فأخبروني به فمضيت إلى قبره وأمرت بعض الفقراء أن يسأل سيدي عبد العال في الصفح عنه ، فقرأ الفاتحة ودعى فانتشرت أعضاؤه وتاب إلى الله من ذلك اليوم وصار من الفقراء الملاح ، وكراماته كثيرة مشهورة في بلاده وبين فقراء

الأحمدية وغيرهم رضي الله تعالى عنهم . انتهى .

ومن تخرج بصحبة السيد أحمد البدوي قدس سره العزيز الشيخ الصالح ، الشيخ عبد المجيد أخو سيدي عبد العال وهو الذي ذكر الإمام الشعراني عنه أنه طلب رؤية وجه سيدي أحمد ، وكان سيدي أحمد بلثامين لايرى الناس منه إلاّ عينيه ، فقال : ياعبد المجيد كل نظرة برجل . فقال : ياسيدي رضيت . فكشف سيدي أحمد له اللثام فرآه فخرَّ ميتاً . انتهى .

ومنهم الشيخ عبد الوهاب الجوهري ، قال الشعراني في طبقاته : كان رضي الله عنه من أجلِّ أصحاب سيدي أحمد البدوي وكراماته رضي الله عنه كثيرة مشهورة في بلاده .

ومنهم الشيخ عز الدين الموصلي رضي الله تعالى عنه كان نائباً في طرابلس هاجر إلى سيدي أحمد لما كان بالعراق فصحبه وخرج عن الدنيا وكراماته كثيرة ، مات بالموصل رضي الله عنه .

ومنهم الشيخ الجليل ، والعَلَم الطويل ، أحمد بن علوان اليمني رضي الله عنه ، صحب سيدي أحمد البدوي بمكة أوائل جذبه وهو شيخ الطريقة العلوانية المشهورة في اليمن والحجاز ، وكراماته مستفيضة مستمرة إلى عهدنا هذا ، هذا ولو أردنا تعداد أصحاب سيدي أحمد وكراماتهم ومناقبهم للزم أن نفرد لهم كتاباً مخصوصاً ، وقد اكتفينا بشهرتهم لكونها غنية عن الإيضاح رضي الله عنهم أجمعين .

قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني في طبقاته الوسطى عند ذكر الرجال : ومنهم شيخ الخرقة أبو العباس أحمد البدوي الحسيب النسيب

رضي الله عنه وشهرته في مصر والشام والحجاز واليمن والهند والسند والروم والغرب تُغني عن تعريفه ، ولكن نذكر لك يا أخي جملة من أحواله على سبيل التبرك فأقول وبالله التوفيق : إعلم أن مولده بمدينة فاس بالمغرب ، فإن أجداده الشرفا انتقلوا أيام الحجاج إلى أرض المغرب لما كثر القتل في الأشراف ، ولما بلغ سبع سنين سمع أبوه قائلاً يقول له في منامه ياعليّ انتقل من هذه البلاد إلى مكة فإن لنا في ذلك شأناً ، وذلك في سنة ثلاث وستمائة .

قال الشريف حسن أخو سيدي أحمد : فمازلنا ننزل عند عرب وترحل من عرب ويتلقوننا بالترحيب والإكرام حتى دخلنا مكة في مدة أربع سنين ، فتلقّانا شرفاء مكة كلهم وأكرمونا وجلسنا عندهم في أرغد عيش حتى توفي والدنا سنة سبع وعشرين وستمائة ، ودفن في باب المعلى وقبره هناك ظاهر يزار في زاوية .

قال الشريف حسن : فأقمت أنا وإخوتي وكان أحمد أصغرنا سناً وأشجعنا قلباً ، وكان لكثرة مايتلثم سميناه بالبدوي ، فأقرأته القرآن مع ولدي الحسين ، ولم يكن في فرسان مكة أشجع من أخي أحمد حتى كانوا يسمونه في مكة العطاب ، فلما جاءته المواهب الإلهية وحدث عليه حادث الوله تغيّرت أحواله واعتزل عن الناس ولازم الصمت ، فكان لايكلّم الناس إلاّ بالإشارة ، فلما حصلت له الجمعية استغرقته إلى الأبد ، ولم يزل حاله يتزايد حتى كان من أمره ماكان ، ثم إنه في شوال سنة ثلاث وثلاثين وستمائة رأى في منامه ثلاث مرات قائلاً يقول له : قم واطلب مطلع الشمس ، فإذا وصلت مطلع الشمس فاطلب مغرب الشمس ثم سر إلى

(طنـدتا) فإن بها مقامك أيّها الفتى . فاستيقظ من منامه وشاور أهله وسـافر إلى العراق فتلقّاه أشياخها الأحياء والأموات ، فلما زارهم وأقام عندهم مدة خرجنا بعد ذلك قاصدين (طندتا) فأحدق بنا الرجال من سائر الأقطار يعارضوننا فأومأ إليهم سيدي أحمد فوقعوا ثم رجعوا هاربين ، ومضينا إلى (أُم عَبيدة) فزرنا سيدي أحمد ابن الرفاعي ، وذهب سيدي أحمد البدوي إلى فاطمة بنت بري ، وكانت امرأة لها حال عظيم وجمال بديع وكانت تسلب الرجال الواردين على العراق أحوالهم ، فسلبها سيدي أحمد وتابت على يديه ، وأخذ عليها العهد أنها لاتتعرض لأحد بعد ذلك اليوم ، وكان قد اجتمع معها قبائل كثيرة من العرب عوناً لها على سيدي أحمد فرجعوا كلهم إلى أماكنهم ، وكان يوماً مشهوداً بين الأولياء ، ثم إن سيدي أحمـد سمـع قائلاً يقول له : سر إلى (طندتا) وربُّ الرجال ، وذلك في شهر رمضان سنة أربع وثلاثين وستمائة فدخل رضي الله عنه إلى مصر أولاً ، ثم قصد (طندتا) فدخل في الحال مسرعاً إلى دار ابن شحيطة شيخ البلد ، فصعد إلى سطوح غرفته فأقام فوق السطح نحو اثني عشر سنة ، وكان طول نهاره وليله واقفاً شاخصاً بصره إلى السماء ، وقد انقلب سواد عينيه بحمرة تتوقد كالجمر ، وكان يمكث الأربعين يوماً فأكثر لايأكل ولايشرب ولاينام ذكره الحافظ ابن حجر رحمه الله ، ثم إنه نزل من السطح إلى ناحية فيشا المنارة فصحب بها عبد العال وعبد المجيد ، فأما عبد المجيد فسأله أن يكشف له عن لثامه ليرى وجهه فقال سيدي أحمد : ياعبد المجيد كل نظرة بنفس . فقال : ياسيدي أرني وجهك ولو مت . فكشف اللثام عن وجهه فخرَّ عبد المجيد ميتاً .

وأما عبد العال فعاش إلى أن مات سيدي أحمد واستُخلف بعده وربى الرجال وفرّقهم في نواحي البلاد ، وكان سيدي أحمد يربي بالنظر فإن سيدي عبد العال يأتيه بالرجل الجاهل الخالي من المدد فينظر إليه نظرة فيملأه مدداً ، ويقول له : قل له يسكن البلد الفلاني هكذا تربيته للرجال كان يقلب أعيانهم بالنظر من غير مجاهدة وكل ذلك كان بالسطح الذي كان فوقه في دار ابن شحيطة ، ومن هنا كان الناس يقولون فلاناً من أصحاب السطح ، ويقولون سيدي أحمد السطوحي ، قالوا : ولما دخل سيدي أحمد (طندتا) كان هناك سيدي حسن الصايغ الأخناي وسيدي سالم المغربي ، وكان سيدي حسن يقول لما قرب مجيء سيد أحمد مابقي لنا إقامة هنا صاحب البلاد قد جاء لها ، فكان الناس لايعرفون مراده فلما دخل سيدي أحمد خرج سيدي حسن إلى (أخنا) فأقام بها إلى أن مات وقبره ظاهر يزار إلى الآن ، وأقام سيدي سالم المغربي فسلّم لسيدي أحمد إلى أن مات بـ (طندتا) وقبره قريب من مقام سيدي أحمد ، وأنكر بعضهم على سيدي أحمد فسُلب وانطفى اسمه وانتصر جماعة من خطباء طندتا لسيدي وجه القمر صاحب الإيوان العالي بها وبنوا له منارة ، فجاء سيدي عبد العال ورفسها برجله فغارت إلى وقتنا هذا ، ولما دخل سيدي أحمد إلى مصر خرج الملك الظاهر بيبرس أبو الفتوحات هو وعسكره فتلقّوا سيدي أحمد وأكرموه غاية الإكرام وأنزله في دار الضيافة ، وكان ينزل لزيارته لما أقام بناحية (طندتا) وكان يعتقده اعتقاداً عظيماً . انتهى .

وليعلم أن سيدي أحمد البدوي أخذ البيعة في بدايته عن الشيخ عبد الجليل بن عبد الرحمن النيسابوري ، ومنه بسبعة وسائط تنتهي بيعته إلى

الإمام داوود الطائي إلى الأستاذ حبيب العجمي ، إلى سيد التابعين الحسن البصري ، إلى ابن عم المصطفى الإمام عليّ المرتضى كرّم الله وجهه ، وإنما سلوكه وبلوغه النهاية ، وإيصاله الغاية ، وقع على يد الشيخ بري الرفاعي قدس الله سره كما تقدم ، ولهذا عُدّت طريقته فرعاً من الفروع الرفاعية لصحة انتسابه رضي الله عنه للخرقة الشريفة الرفاعية .

وتنسب إليه شعبة خرقة الشناوية ، والمتبولية ، والبيومية ، والعلوانية ، والسطوحية ، والمرزوقية ، وفروع أُخَر يجمع كل ذلك اسم الطريقة البدوية ، المنسوبة إليه رضي الله عنه توفي سنة خمس وسبعين وستمائة ، ومناقبه وكراماته وهواطل بركاته وعظيم مناقبه وحالاته كثيرة ، وفي بلاد المسلمين معروفة شهيرة ، نفعنا الله به وبأشياخه وأتباعه ، وبجميع عباد الله الصالحين آمين .

﴿ ومما تفرع عن الطريقة العلية الرفاعية ﴾
﴿ هذه الكبكبة الشريفة المحمدية ﴾

ومن فروع الطريقة الرفاعية سلسلة السادة الصيادية ، والأعزبيّة ، والحريرية ، والشمسية ، والكيالية ، والسبسبية ، والعزيزية ، والجندلية ، والعجلانية ، والقطنانية ، ومنها فرع الشعبة العلمية المنسوبة لشيخ بلاد الشام ، عَلَم الأولياء الكرام الشيخ محمد العلمي الدمشقي ثم المقدسي قدس سره ، والواسطية وقد تقدم ذكر بعض رجالها ، والجبرتية ومنها فرع العيدروسية ، والزينية وهي المنسوبة إلى الإمام العارف بالله زين الدين أبي بكر الخواقي قدس سره العزيز ونسبته تتصل بالغوث الرفاعي رضي الله عنه بواسطة الشيخ أبو الفتح الواسطي نفعنا الله به ، والنورية

وهي تنتسب إلى الشيخ نور الدين حبيب الله الحديثي أحد أعيان السلالة الصيادية ، والشاذلية العيسوية فإن يدهم أحمدية تنتهي إلى الوليّ العارف بالله السيد أبي الحسن الشاذلي قدس سره ونسبة الشاذلي بالخرقة تنتهي إلى الغوث الرفاعي من طُرُق ثلاثة تقدم ذكرها .

﴿ ومما تفرع عن الطريقة العلية الرفاعية ﴾

﴿ سلسلة السادة الصيادية ﴾

وليعلم أن سلسلة السادة الصيادية تتصل بحضرة الغوث الرفاعي رضي الله عنه من طريق سبطه القطب الفرد الجواد ، مولانا وقدوتنا إلى الله تعالى أبي البركات شيخ الشيوخ السيد عز الدين أحمد الصياد قدس الله سره العزيز ، ونفعنا بعلومه الشريفة آمين .

وقد ترجمه جماعة أجلاّء من أعيان الشيوخ وأفاضل العلماء ، وقد وقعت له على ترجمة مختصرة جامعة كافية في بابها في كتاب (قاموس العاشقين) مؤلّف الولي الفاضل الكامل الهمام ، الشيخ عبد المنعم العاني نزيل الشام وهاهي بنصها قال قدس سره :

سيدنا القطب الغوث الجامع الخاشع السَّجّاد ، صاحب الخوارق العظيمة ، والأيادي الجسيمة ، السيد عز الدين أحمد الصياد ، سبط قرّة أعين الأولياء ، إمام مُخلَص الأصفياء ، مولانا السيد الشيخ أحمد الكبير الرفاعي رضي الله عنهم أجمعين .

قال الشيخ الكبير أحمد الزبرجدي قدس سره في كتابه (الدر الساقط) وُلد السيد العارف بالله ، وليّ الله ، شيخ وقته مولانا السيد عز الدين أحمد الصياد ابن الإمام السيد عبد الرحيم الرفاعي الحسيني رضي الله عنهما عام

أربــع وسبعين وخمسمائة ، قبـل وفـاة جده لأمّـه غوث الثقلين ، أبي العلمين ، سيدنا السيد أحمد الكبير الرفاعي رضي الله عنه بأربع سنين ، ولما كبر سلك على يد أخيه أبي الحسن عبد المحسن قدس سره ، وبصحبته تخرج وتفقــه ، وتلقى علم التفســير والحديث من الشيخ عبد المنعم الواسطي مفتي الجن والإنس ، واتفق فقراء هذه الطريقة وشيوخ الطائفة على أنه لم يرفع طرفه إلى السماء قط حياء من الله تعالى ، وكان كثير الخشوع والحيا من الله ، زائد البكاء قليل الكلام أجازه جده الكبير الرفاعي رضي الله عنه حال موته وهو ابن أربع سنين ، وبشّر به وأثنى عليه الخير ، وذكر أن الأسود تزوره بعده ، ونوّه على ماله من المكانة والمنزلة الرفيعة ، كان أسمـر اللون ، طويل القامة ، حسن الوجه ، أكحل العينين ، وسيع الجبهة ، خفيف الوجود ، لطيف المنظر ، ذا هيبة وسكينة ووقار ، نورانيّ الطلعة ، لايتمكن الإنسان من إباحة النظر به لجلالة قدره ، تزوّج بنت عمه السيد عبد السلام قدس سره المسمّاة برُقيّة رحمها الله ، فأعقب منها السيد عبد الرحيم فقط وتوفيت ولم تعقب غيره ، ثم لما اشتهر أمر السيد عز الدين أحمد وعظم أمره ، وسار في الآفاق ذكره ، خاف على نفسه من آفة الشهرة فخرج من العراق عام اثنين وعشرين وستمائة وقصد الحجاز وتشرف بزيارة جده سيد الأنام ، عليه أكمل الصلاة وأفضل السلام ، ثم حجّ واعتمـر وجـاور بالمـدينـة المنـورة تسعة سنين ، وظهرت على يديه الكرامات وبنى رباطاً في المدينة المنوّرة بالقرب من سقيفة الرصاص معروفاً برباط الرفاعي ، وأخذ عنه الطريقة ابن نميلة الحسيني حاكم المدينة على ساكنهـا أفضـل الصلوات والتسليمات ، والإمـام عبد الكريم بن محمد

الرافعي القزويني صاحب الشرح الكبير على الوجيز والشيخ علم الدين بن محمد السخاوي صاحب شرح الشاطبية والمفصل وغيرها من الكتب في كل علم ، والشيخ العارف بالله تاج الدين الأبيدري ، وخلائق وتلمذ له أناس لايحصى عددهم ، ودخل مصر عام ثمانية وثلاثين وستمائة ، وأقام في المسجد الحسيني وأقبل عليه الناس وتلمذ له العلماء والشيوخ وأكابر الرجال والأشراف ، وحضر مجلسه وحلقة ذكره جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب رحمه الله ، وانتسب إليه خلق كثيرون وبنوا له بمصر رباطاً مباركاً في محلة السباع ، وتزوّج بذُرِّية خاتون من آل الملك الأفضل ، وأقام بمصر سنتين ، وهاجر منها وترك زوجته درية حاملة فولدت له السيد علي المعروف بأبي الشباك الرفاعي في تلك السنة ، وبقي ولده عند أخواله آل الملك الأفضل ، وسبب شهرته بأبي الشباك هو أن السيد عز الدين أحمد الصياد لما عزم على الهجرة قال لزوجته خذي هذا العقد الجوهر ، فإن رزقك الله بنتاً علّقيه لَهُ في عنقها ، وإن رزقك الله غلاماً ذكراً اربطيه بزنده على ذراعه ، وها أنا سأذهب فإذا كبر المولود وأراد أن يجتمع عليّ وكنت حياً فليأت إلى هذا الشباك الذي سأخرج منه إن شاء الله وليضرب الشباك بيده فإنه ينفتح له ويراني حيثما كنت وأراه بإذن الله ، ثم قام فضرب الشباك بيده ففُتح له وخرج منه وغاب عن النظر ، وطاف اليمن ونزل الشام ودخل دمشق وعمر زاوية في ميدان الحصا تعرف بزاوية الرفاعي ، وخرج منها أيضاً وآل أمره أن دخل (منكين) قرية من أعمال (معرّة النعمان) من أعمال (حلب) نزل بها بعد الظهر سنة ثلاث وأربعين وستمائة يوم خميس ، وكان إذ ذاك في القرية المذكورة من أهلها الشيخ

صالح الصوفي الزاهد والشيخ عبد الرحمن بن علوان وفي بيته أخته الصالحة خضراء أمّ الخير ، وكانت في غاية الجمال إلاّ أنها أقعدت من أربع سنين ، ففي تلك الليلة رأت في منامها رجلاً يقول : عليك بهذا وأشار لها إلى رجل أسمر اللون ، طويل القامة ، حسن المنظر ، أسود اللحية ، خفيف العارضين ، رقيق القوام ، وسيع الجبهة ، أزهر المُحيّا ، ثم قال لها : هذا صاحب الوقت تمسّكي بحبل ولايته ويعافيك الله ، فلما أصبحت أخبرت أخاها الشيخ عبد الرحمن بذلك وقالت بالله عليك تفقّد قريتنا علّ أن يقدم عليها اليوم أحد أهل الوقت فإن هذه إشارة صادقة ، فقام الشيخ عبد الرحمن وتفقّد القرية فرأى الشيخ الأجلّ ، القطب الأكمل ، مولانا السيد أحمد الصياد قدس سره ومعه ابن أخيه القطب الجليل ، الشيخ شرف الدين أبو بكر ابن مولانا الشيخ الأصيل ، السيد عبد المحسن أبي الحسن بن عبد الرحيم الرفاعي رضي الله عنهم ، فدعاه وابن أخيه إلى بيته ثم ذكر له رؤيا أخته وطلب منه أن يقرأ عليها ماتيسّر ، فطلب منه أن يعقد له عليها فأجاب فعقد له عليها فدخل رضي الله عنه عليها البيت وأخذ بيدها ، وقال : قومي بإذن الله فقامت في الحال وتزوج بها ومنها ذريته الطاهرة ، وأكبرهم شيخ الإسلام صدر الدين عليّ قدس سره .

وأما زوجته الخاتون دُرّية حفيدة الملك الأفضل فإنها ولدت بعد هجرة السيد من مصر غلاماً نجيباً أديباً سمّته السيد عليّ ومرضت بعد ولادته فأسرّت والدتها خبر العقد والكيفية التي جرت لها مع زوجها السيد أحمد قدس سره ، وتوفيت رحمها الله ، فكفلت ولدها السيد عليّ جدّته وبقي

رضي الله عنه عند أخواله آل الملك الأفضل إلى أن بلغ حدّ الرجال ، وزهد وتصوّف وعظّم الناس شأنه فدخل يوماً بيت جدّته وبكى فسألته عن السبب الذي أبكاه فقال: إني أودّ أن رأيت والدي وعرفته وعرفت عشيرتي وخبر عزوتي من هو ، فقصّت عليه قصة عقد الجوهر وربطته على ذراعه وعرّفته الشباك الذي ضربه أبوه ، فجاء تجاه الشباك وقرأ ماتيسّر وضرب الشباك ففُتح له وأبصر نفسه في (متكين) بين يدي والده ، وتلقّى عنه وبقي عنده أياماً وألبسه خرقته وألحّ عليه بالعود إلى مصر ، فعرّفه أن القسمة الأزلية خصّصته بمصر وحده ، فقنع لذلك ورجع كما أتى ، وبعدها كبرت شهرته في مصر ، وتخرّج بصحبته الرجال وانتسب إليه أهل القطر المصري على الغالب ، وبنى الرباط المشهور المدفون فيه الآن بمحلة سوق العارض ، ويقال سوق السلاح بالقرب من رميلة مصر وقبره فيها ظاهر يزار ويُعمل له مولد جليل بمصر .

وأمّا والده السيد عز الدين أحمد الصياد فإنه عمّت بركته ، وظهرت دولته ، وقاد الله إليه القلوب ، وبنى الزوايا والرباطات بالشام وحمص ، وقدم بحمص على أصحابه الشيخ جمال الدين بن محمد الأمير وجعله شيخ الرباط ، وأخذ عنه الشيخ الصوفي الشريف السيد الغوث نزيل حلب ابن السيد الكبير عماد الدين ابن السيد شرف الدين الشرفي الحسيني الحراني رضي الله عنهم ، وقصده الناس من العراق والمغرب والحجاز واليمن ، وبلغ مريدوه حال حياته إلى مايزيد عن مائتي ألف ، وأظهر الله على يديه العجائب وأكرمه بالخوارق ، وكان إذا حلّ بالناس قحط أو جدب استسقوا به فيسقون ببركته ، وقد مرّ على أرض مزروعة كاد زرعها أن

يتلف لعدم المطر ، فنزل عن دابته ومشى بين الزرع وبكى وقال متمثلاً بقول القائل :

رجال إذا الدنيا دجت أشرقت بهم   وإن أمحلت يوماً بهم ينزل القطر
فيا شامتاً بالموت لاتشمتن بهم   حياتهمُ فخر وموتهمُ ذُخر

* * *

وخرج من الزرع فما خرج إلاّ والسماء هطلت بالمطر ، وبقيت على ذلك المنوال أياماً حتى استغاث الناس من كثرة المطر ، فدعا الله فانكشف المطر وطلعت الشمس ، وكراماته كثيرة رضي الله عنه . انتهى .

وقال الإمام شيخ الإسلام أحمد بن جلال المصري خليفة القطب الكبير الحائز من الفضل الوافي ، مولانا الشيخ زين الدين أبي بكر الخوافي ، الرفاعي الطريقة والمشرب رضي الله عنهما في كتابه (جلاء الصدا) عند ذكر المترجَم نفعنا الله بعلومه : الإمام الكبير ، والعارف الخبير ، الزكيّ الأعراق ، الزاكي الأخلاق ، ذو الخصائل الحميدة ، والمعاني الفريدة ، سميّ النبي العظيم ، وكنّي الرسول الكريم ، السيد أحمد أبو القاسم ابن السيد عبد الرحيم ، كان قدس سره من خيار القوم ذا حياء عظيم ، وخُلُق حسن ، تالياً كتاب الله آناء الليل وأطراف النهار بالخشوع والتذلل ، والبكاء والتدبر ، ولما رجع من بيت الله الحرام زاده الله شرفاً اختار الخلوة في رواقه وذكر الحي الذي لايموت مع المداومة على قيام الليل وصيام النهار والسكوت نفعنا الله به وبأجداده الطاهرين أجمعين .

وقال الإمام ، علم المحدّثين الكرام ، عز الدين أحمد ابن الإمام أبي إسحاق إبراهيم ابن الإمام الأجلّ أبي الفرج عمر الفاروثي الواسطي ثم

الكازروني في كتابه (النفحة المسكية) : السيد أبو القاسم عز الدين أحمد الكبير ويلقّب بالصياد ، هاجر من العراق إلى الحجاز ثم إلى اليمن ومصر وتزوج فيهما من آل الملك الأفضل ، وأعقب بها السيد عليّ وتركه عند أخواله وهاجر إلى الشام ، كل ذلك خيفة الشهرة ولكيلا يشتغل بالخلق عن الخالق ، وقال بعد كلام طويل : اشتهر أمر السيد أحمد عز الدين أبي القاسم الصياد ، ويقال له في الشام أبو عليّ ، وفي اليمن أبو الخير ، وقد حمله جدّه بيده وعظّم شأنه وبشّر به وأثنى عليه وقال فيه : ستكون له دولة عظيمة وتزوره الأُسود . انتهى .

وقال في (جلاء الصدا) : إن جدّه رضي الله عنه أجلسه على ركبته في زمان طفولته وقبّله ولم يكن يُعهد ذلك منه لأحد ، وقال رضي الله تعالى عنه : يكون له دولة وشأن كبير وشهرة ، وبعدي تزوره الأُسود التي في هذه البقعة . انتهى .

وقال الشيخ عبد العزيز العاني في (المواهب الحميدة) : قال الشيخ شرف الدين أبو بكر ابن عبد المحسن أبي حسن الرفاعي رضي الله عنهما كنا مع السيد أحمد الصياد قدس سره حين سافر إلى الحجاز ، فمررنا بطريقنا من مشرق (هيت) بأرض خالية يقال لها (الجرف) وقد أضرّنا العطش حتى كادت القافلة تهلك ، فتفقدنا الماء فلم نجد أثراً للماء ، فجاء كل من في القافلة وبكى أمام السيد أحمد فتواجد وضرب بعصاه الأرض فنبع ماء غلظ الاصبع من محل ضرب العصا ، فشرب القافلة والدواب ومشينا على أحسن حال ، ثم رجعت بعد أن مشت القافلة فلم أر الماء ، فقلت : ياسيدي غاب الماء ليت لو بقي للناس . فقال : شربت

وشرب الناس من ماء العناية والله تعالى رحيم رؤوف بعباده ، فدع الخلق إلى الخالق . ثم قال الشيخ شرف الدين قدس سره : وكنا كلما مررنا على نهر ماء استقبله السمك من النهر إلى الشاطىء وازدحم على قدميه رضي الله عنه ، وكذلك الدواب والهوام والغزلان في البر الأقفر حتى أن الحيوانات تراها تقف له على حافتي الطريق كالرجال المذعنة تزدحم على شم قدميه الشريفين . وقال بعض تلامذته : وقع في زرع أهالي (متكين) نار عظيمة في يوم كثير الهواء شديد الريح فالتجأ الناس إليه ، فخرج من باب رباطه المبارك واتجه نحو محل النار وقال : لا إله إلاّ الله . فما تمّ كلامه إلاّ والنار خمدت ولم يبق لها أثر بإذن الله ، ومات أحد إخوانه فجأة فجاءت إليه أمّ الميت وهو ساجد في صلاة الضحى فتأخر في سجوده ، فقالت : وحقك لو بقيت إلى يوم القيامة ساجداً ما تركتك إلاّ بولدي . فرفع رأسه الشريف باكياً وإذا بالمريد قد قام حياً فسجد شكراً لله تعالى .

وقال الشيخ شرف الدين أبو بكر الرفاعي : قال لي عمي وشيخي وقرّة عيني السيد أحمد الصياد قدس سره العزيز لما دخلنا (متكين) وعاق الله تعالى خضراء أمّ الخير زوجته على يديه : ياشرف الدين طاب المتُكا في (متكين) يشير إلى طول المكث بها وكان الأمر كذلك ، وقال : كان عمي السيد أحمد الصياد جبلاً راسخاً في الطريقة ، وإماماً عارفاً عالماً عاملاً بالشريعة ، وله كتاب (الأنوار المحمدية في الوظائف الأحمدية) جمع به فأوعى ، وله حزب الجوهرة ؛ وهو حزب جليل مجرّب لقضاء الحاجات سُلّم طائل ، ولحل المهمات ذراع كافل ، وعلى العدو كالسيف القاطع

وله أوراد كثيرة ، وأحزاب شهيرة ، وأحوال وواردات ، وخوارق عادات ، ومناقب يعيي الحاسب عدّها ، نفعنا الله والمسلمين بعلومه آمين . انتهى .

قال في (الدر الساقط) : سبب اشتهار السيد أحمد الثاني ابن السيد عبد الرحيم الرفاعي بالصياد هو أن ملك العجم جاء إلى زيارته بواسط ، فأعجبه حاله وماهو عليه وحُسْن اعتقاده به ، فقال له : أي سيدي لا صنعة لك ولا كسب وإني أُريد أن أعطيك لمعيشة عيالك وفقرائك من القرايا ماتصلح به شأنك . فقال رضي الله عنه : لي صنعة وهي الصيد وأدخل يده تحت مُرقّعته فألقى في المجلس أسدين مربوطين بحبل من ليف النخل ، وقال : وعزّة ربي صدتهما من فلاة بربع الخراب . فقال الملك : أنْعِم بك من صيّاد . واشتهر بذلك ، وبسبب هذه الشهرة خاف على نفسه من آفة الظهور فهاجر من واسط رضي الله عنه ، وعن إخوانه أولياء الله المخلصين المتجردين من الأغيار الموفّين به تعالى لا بغيره ، وكان مع ماكان عليه من العبادة ينظم الشِّعر في بدايته ، وسكت عنه في نهايته ، وانقطع عن الأغيار وانقطعت عنه حبالها بالكلية ، وكان في نهاية أمره كثير البكاء والأحزان ، مشغولاً بالله عن الأكوان ، يقطع الأوقات بالأذكار والتلاوات ، قلبه بمحبوبه مشغوف ، وسره عليه ملهوف ، ومن شعره هذا البيت :

صاحبت أهلك في هواك وهم عِدا ولأجل عينٍ ألف عين تُكرم

* * *

وكان كثيراً مايتمثل بقول سيدنا الشيخ منصور الواسطي البطايحي خال القطب الأكبر سيدنا السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهما :

روحي الفدا للنازلين بمهجتي ... والحاضرين مع الفؤاد الغائب

أبكي إذا ذُكرت طلول ربوعهم ... ألماً من القلب الكئيب الذائب

وأتوب عن ذكر السُّوى طمعاً بهم ... والاستقامة أصل صدق التائب

* * *

انتهى .

توفي رضي الله عنه سنة سبعين وستمائة ، وله من العمر ست وتسعون سنة ، ودفن في القبة المباركة المنّورة بمرقده العالي تجاه جامع الرباط ، وفي سنة وفاته توفي ابن أخيه الشيخ شرف الدين أبو بكر ابن القطب المتمكن أبي الحسن عبد المحسن الرفاعي قدس سره بعده بأيام قلائل ، ودفنوه في الجامع عند الشباك تجاه قبة عمه رضي الله عنهما ، ويحسن أن نقول في الإمام الصياد رضي عنه الملك الجواد :

ذا القطب نائب شيخ ﴿أمّ عَبيدة﴾ ... غوث البريّة منقذ اللهفان

سبط الرفاعي الجليل من انتمى ... للمصطفى من أصله الطرفان

* * *

﴿ ومما تفرع عن الطريقة العلية الرفاعية ﴾

﴿ فروع من السلسلة الصيادية ﴾

وهذه العصابة الفاخرة فروع منها البازية المنسوبة للشيخ منصور الصغير الملقّب بالباز الأشهب أبي الصفا ، والشبُّاكية المنسوبة للشيخ علي أبي الشباك المتقدم ذكره وغيرهما نفعنا الله بهم أجمعين .

﴿ ومما تفرع عن الطريقة العلية الرفاعية ﴾

﴿ سلسلة السادة الأعزبية ﴾

ومن الفروع الجليلة الرفاعية ، سلسلة السادة الأعزبية ، وهي التي تتصل بحضرة الغوث الرفاعي رضي الله عنه من طريق سبطه القطب الغوث الأنجب ، والصمصام الأشطب ، والغضنفر الأهيب ، شيخ وقته محيي الدين أبي إسحاق مولانا السيد إبراهيم الأعزب ، رضي الله عنه .

قال في ﴿ جلاء الصدا ﴾ عند ذكره : تخلّف بعد عمه فقام بعده بأخلاق مرضية وسيرة حسنة ، وكان حياؤه من الله تعالى في مرتبة أنه مارفع رأسه إلى السماء أربعين سنة ، يقنع بالدون من العيش في الدنيا الدنية ، ويمنع نفسه من لذيذ الأطعمة والأشربة الشهية ، يلبس القصير الخشن من الثياب ، رغبة ورهبة إلى الملك العزيز الوهاب ، لم يجمع بين قميصين ولم يجاوز قميصه رؤوس أصابعه أسوة بجده الإمام الأجل ، وكانت عمامته ذراعاً أو أقل ، مايُبَرِّد الماء لأجله قط باختيار ، وكان طبقه الأرض وصابونه الجدار ، يراعي الأرامل والأيتام ، ويصاحب الغرباء على الدوام ، والاقتداء بآثار جده شعاره ، والتمسك بهديه دثاره ، والسخاوة والحياء اختياره ، وكان يقول : أنا يتيم الرواق . وبذلك كان افتخاره ، وهكذا قال له جده إمام الآفاق : أي إبراهيم أنت يتيم الرواق . يوقر الكبار ويراعيهم ، ويرحم الصغار ويداريهم ، التواضع والخشوع سنّته ، والتخضع والقنوع ديدنه ، يحترم المشايخ والعميان ، ويذل أهل الدنيا ويهينهم ولايقوم لهم كائناً من كان ، مسكنه بحيث يدفع عنه الحر والبرد والبكاء في الليل كان له ورداً ، والفقراء في زمانه كانوا ذوي عزة واحترام ،

يبجلهم ويراعيهم بالإكرام ، وكان من نعم الله تعالى عليه أنه تربّى على محدة جده وأبيه وعمه ، وكان إذا سُئل عن حال وليّ أو نبيّ يخبر عن أحوالهم ، فسُئل عن حال الخليل عليه الصلاة والسلام فقال : مجموع صفاته وبيّن كيفية أعضائه ، وكان في مجلسه رجل من أهل العلم فقال له الفقراء ماقاله السيد إبراهيم في شأن الخليل ، فقال الفقيه : ماوجدنا ذلك في كتاب ولا سمعناه عن أحد . فسمع السيد إبراهيم قوله فتبسم وأشار بيده إلى نحوه ، فنظر الفقيه إلى ذلك المكان فصرخ صرخة وقام ووقع على وجهه مغشياً عليه ، فلما أفاق قال للفقراء : رأيت الخليل عليه الصلاة والسلام وقد تعرّى ويرى أعضائه السيد إبراهيم . وكان يسافر كثيراً ويقول : كلفني الله تعالى بالسفر .

قال السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه للسيد إبراهيم يوماً في الخلوة قم واخلفني . فقام وخلفه وأدخل لسانه في فيه وجعل يزيده فيه ، فدخلت عليهما الست رابعة فحردت وقالت : ينبغي أن يكون ذلك لولدك صالح ، فقال السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنه : صالح ولدك وإبراهيم أيضاً ولدك ، صالح غني وإبراهيم مسكين ، وقال السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه له في حكاية طويلة : أي إبراهيم رمى العزيز محبتي ومحبتك في الماء والهواء فكل من شرب الماء وشم الهواء أحبني وأحبك فمثل مايحبوني يحبونك . وكان السيد إبراهيم يمدح نفسه بهذا البيت ، شعراً :

ترى تخلف الأيام مثلي لكم فتى   طويل نجاد السيف رحب المقلّد

* * *

وكان ينشد أيضاً :

أيكم يجعل الجبان شجاعا أيكم يورث السماح بخيلا

* * *

وله أيضاً :

حسبت وُشاة الحيّ إن لم يرحموا دنفاً تعلّل بالهوى أسقامه

* * *

وذكر الهمداني في كتابه (بهجة الأسرار) الذي ألّفه في مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس الله سره عند ذكر الشيخ إبراهيم الأعزب نفعنا الله به مانصه : ومنهم الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن عليّ الملقّب بالأعزب رضي الله عنه ، هذا الشيخ من أعيان مشايخ البطائح وأعلام العارفين ، وصدور المحققين ، صاحب الكرامات الظاهرة ، والأحوال الفاخرة ، والمعارف الزاهرة ، والحقائق الباهرة ، والعلوم اللدنية ، والمعاني النورية ، صاحب المقامات الجلية والمراتب العلية ، والفتح الموفّق في معادن الأسرار ، والكشف المشرق في مطالع الأنوار ، والاطّلاع الموضح عن حقائق الأيات ، والنظر الجالي بعرائس المغيبات ، له المجلس العالي في حضائر القدس ، والمشرب الحالي من مناهل الوصل ، والمقر السامي في أرائك القرب ، والمنهاج الموطّأ على متن الملكوت إلى ملك الجبروت ، والمعراج الأعلى فوق مراقي الصعود إلى حضرة الشهود ، وله التقدم في التعالي والتصدر في التداني ، والسبق إلى حلبات المحامد والمعالي ، والجمع بين أطراف السعادة والتهاني ، وله الباع الطويل في علوم المنازلات ، واليد البيضاء في معاني المشاهدات ، والذراع الرحب في

التصريف الخارق ، والقدم الراسخ في التمكين الواسع ، وهو أحد من أظهره الله تعالى إلى الوجود وصرّفه في الكون وخرق له العادات ، وأظهر على يديه الخارقات ، وأنطقه بالمغيبات ، وأجرى على لسانه الحكم ومكّنه من أحوال النهاية ، وملّكه أسرار الولاية ، ونصبه قدوة وحُجة وهو أحد أركان هذا الشأن وإمام أئمة ساداته ، وأعلم العلماء بأحكامه ، وأولي الأيدي والابصار بمناهجه علمًا وعملاً ، وزهداً وتحققاً ، ورياسة وجلالة صحب خاله الشيخ أبا العباس أحمد بن أبي الحسن بن الرفاعي رضي الله عنه وأخذ عنه عهد الطريق ، وتخرج به ولقي جماعة من مشايخ العراق رضي الله عنه انتهت إليه رياسة هذا الشأن بالبطايح في وقته ، وتخرج به غير واحد من أهل البطايح وغيرهم ، وانتمى إليه جماعة من الأكابر ، وتلمذ له خلق من الصلحاء ، واجتمع عنده أمّة من المريدين الصادقين ، وانتفعوا بكلامه وصحبته ، خلف أباه الشيخ أبا الحسن علياً بعد وفاته في المشيخة برواق (أمّ عَبيدة) وكان أجلّ أهل زمانه يومئذ ، وكان فيما بلغني أنه يحلّ المشكلات الواردة مؤيّداً في كشف مخفيّات الأحوال ، وكان ظريفاً جميلاً كريمًا متواضعاً خاشعاً ذا حياء وافر وعقل ودين صلب محباً لأهل العلم ، مكرماً لأهل الدين ، شديد التواضع ، محفوظ الجناح ، دائم البشر ، مشتملاً على أكرم الشيم ، وأشرف الصفات ، وأجمل الأخلاق ، وأكمل الآداب ، وكان عالماً فقيهاً على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه يلبس لباس العلماء ويتكلم على أصحابه ، وكان له كلام عال على لسان أهل المعارف .

وعدّد الهمداني في البهجة للسيد إبراهيم الأعزب رضي الله عنه المناقب

الكثيرة ، والكلمات البديعة وأطال في ترجمته ، وقال بعد كلام طويل : أخبرنا الشريف أبو عبد الله محمد بن الشيخ أبي العباس الخضر بن عبد الله الحسيني الموصلي ، قال سمعت الشيخ العالم العارف أبا الفرج حسن الدويرة المصري المقري يقول : حكى لنا بعض أصحابنا الصلحاء أنه حضر سماعاً بـ (أمّ عَبيدة) فيه الشيخ إبراهيم الأعزب وفيه أكثر من سبعة آلاف رجل وأنا في آخر الناس بحيث تعسر عليّ رؤية الشيخ إبراهيم لبعده عني ، فخطر في نفسي إنكار على رؤية الشيخ إبراهيم لبُعده عني ، وخطر في نفسي إنكار على جمعهم ، فلم يتم خاطري حتى جاء الشيخ إبراهيم يشق صفوف الناس حتى وقف عليّ وعرك أُذني وقال : يابُنَيّ إياك والاعتراض على أهل الله تعالى ولو وجدت ماوجدت لاتنكر عليهم . ثم ولّى عني فخررت لوجهي مغشياً عليّ فحُملت إليه فقال لي : يابني ألم تعلم أن قلوب الخلق بين أيدينا كالمصابيح من وراء الستارة تشهدها رأي العين ، وهل يُخفي الحبيب عن حبيبه شيئاً ؟ أخبرنا الفقيه العالم الناسك برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم ابن الشيخ الصالح بقية السلف أبي زكريا يحيى بن يوسف العسقلاني الحنبلي قال: سمعت أبي رحمه الله تعالى يقول : مرضت مرضاً ظننت أني منه ميت ، فذكرت ذلك للشيخ إبراهيم الأعزب رضي الله عنه وكنت عنده يومئذ زائراً بـ (أمّ عَبيدة) فأطرق الشيخ ساعة ثم قال لي : ياسيدي أنت ماتموت في هذه المدة قد بقي من عمرك عدة زمان طويل ، قال : وعاش والدي رحمه الله تعالى بعد ذلك أكثر من خمسين سنة . أخبرنا الشيخ الصالح أبو المحاسن يوسف بن أبي العباس أحمد ابن شبيب المقري المصري ، قال : سمعت الشيخ المقري

العالم العدل أبا طالب عبد الرحمن بن أبي الفتح محمد بن عبد السميع الهاشمي الواسطي يقول : جمع أبو إسحاق إبراهيم الأعزب رضي الله عنه مريديه ذوي الأحوال وحطبهم فأبلغ ، ثم قال : استخرت الله تعالى لكم في أن آخذ منكم أحوالكم وأدّخرها لكم عند الله تعالى ليزكيها لكم عنده فإن آفات الحياة كثيرة وإني خفت عليكم منها . أخبرنا أبو محمد أحمد بن أبي النجا سالم بن يوسف الهاشمي الموصلي قال : سمعت الشيخ العالم العارف أبا عبد الرحيم عسكر بن عبد الرحيم النصيبيني بها ، قال : حضرت برواق (أمّ عُبيدة) سماعاً فيه الشيخ إبراهيم الأعزب رضي الله عنه فأنشد القوال :

رماني بالصدود كما تراني ... وألبسني الغرام فقد براني
ووقتي كله حلو لذيذ ... إذا ما كان مولاي يراني
رضيت بصُنعه في كل حال ... ولست بكاره ما قد رماني
فيا من ليس يشهد ما أراه ... لقد غيبت من عيني تراتي

• • •

فتواجد الشيخ إبراهيم ووثب على الهوى على رؤوس الناس ثم أنشد يقول :

إن كنت أضمرت غدراً أو هممت به ... يوماً فلا بلغت روحي أمانيها
أو كانت العين مُذ فارقتكُمُ نظرت ... شيئاً سواكم فخانتها أماقيها
أو كانت النفس تدعوني إلى سكنٍ ... سواك فاحتكمت فيها أعاديها
وما تنفّستُ إلّا كنتَ في نفسي ... تجري بك الروح مني في مجاريها
كم دمعة فيك لي ما كنت أُجريها ... وليلة كنت ألقى فيك أفنيها

حاشا فأنت محل النور من بصري · تجري بك النفس منها في مجاريها
ماقي جوانح صدري بعد جانحة · إلّا وجدتك فيها قبل مافيها

* * *

ثم أنشد أيضاً :

مجال قلوب العارفين بروقه · إلٰهية من دونها حجب الرب
معسكرة فيها ومجنى ثمارها · تنسم روح الأُنس بالله في القرب
حباها فأدناها فحازت مدى الهوى · فلولا مدى الآمال ماتت من الحب

* * *

فصاح الشيخ إبراهيم ونادى يا للرجال ، قال : فرأيت رجال الغيب يتزلون عليه من الهوى مثنى وثلاث ورباع يقولون : لبيك لبيك .

سكن رضي الله عنه (أُمّ عَبيدة) بأرض البطايح وبها مات سنة تسع وستهاية ودفن بها ، وقبره هناك ظاهر يزار ، وكسفت الشمس يوم موته ، فقال الشيخ علي القرشي رضي الله عنه وكان حينئذ بدمشق : قد كُسفت اليوم شمس السماء وغابت شمس الأرض . فقيل : ومَن شمس الأرض ؟ فقال : الشيخ إبراهيم الأعزب رضي الله عنه .

﴿ ومن الفروع الشريفة العلية الرفاعية ﴾

﴿ خرقة السادة الكيالية ﴾

ولعصابته [1] الطاهرة تنتمي خرقة السادة الكيالية وهذه الشعبة المذكورة تنتهي إلى الشيخ العارف بالله صاحب الكرامات والبركات والأحوال الشيخ إسماعيل المجذوب البلخي الحسيني المعروف بالكيال ،

(١) يعود الضمير على السيد الشيخ إبراهيم الأعزب الذي تقدم ذكره رضي الله عنه .

وهو قدس سره ينتهي نسبه على (دعوى ذريته) إلى الإمام الحسين رضي الله عنه من جهة آبائه ، وللعنصر الشريف الرفاعي الحسيني من جهة أمّه (وتبعاً لقولهم نص من المتأخرين على ذلك صاحب قاموس العاشقين وحده في كتابه المذكور) ، وقد أخذ الطريقة العلية الرفاعية عن الشيخ نجم الدين الرفاعي ، وهو أخذها عن والده الشيخ قطب الدين ، عن والده الشيخ شمس الدين ، عن عمه السيد إبراهيم الأعزب ، عن عمه السيد عبد الرحيم ، عن أخيه السيد سيف الدين علي الرفاعي ، عن خاله وابن عم أبيه غوث الرجال ، وقطب أهل الكمال ، السيد أحمد الكبير الرفاعي رضي الله عنه ، سكن السيد إسماعيل الكيالي قرية (ترنبه) من أعمال (حلب) كان ينفخ على العسل ويسقيه لإخوانه ، وقد أجرى الله على يديه الخوارق ، وتسلسلت في بيته الأولياء من ذريته إلى عهدنا هذا ، وقد ركب الجدار حالة وله وجذْبته فسار به ، وأمر الكيل أن يكتال القمح فبارك الله بالقمح واكتال الكيل للناس بنفسه من دون رجل . توفي في حدود التسعمائة ، وذريته في (سرمين) و (إدلب) وبنفس (حلب الشهباء) ونواحيها مشهورة ، ومناقبهم مأثورة ، نفعنا الله بهم وبجميع أوليائه وعباده الصالحين آمين .

﴿ ومما تفرع عن الطريقة العلية الرفاعية ﴾

﴿ سلسلة السادة الحريرية ﴾

ومن الفروع الشريفة الرفاعية سلسلة السادة الحريرية ، وهي تنتهي إلى الإمام العارف بالله صاحب العرفان الجم والفضل الشهير السيد علي أبي الحسن الحريري ، ابن السبط الأنجب ، والشريف الأهيب ، ذي

المآثر المحمودة والفخر الجلي السيد الشيخ عبد المحسن أبي الحسن علي ، ابن السيد عبد الرحيم الكبير الرفاعي ، قال في (النفحة المسكية) : سكن (يعني السيد علي أبا الحسن الحريري) قرية (حرير) من أعمال البصرة ، وهاجر إلى الشام وتزوّج بأرضها وله ذرية ، وتخرّج بصحبته جم غفير من الرجال ، منهم الشيخ علي أبو محمد الحريري ابن أبي الحسن بن منصور المروزي رحمه الله . قلت : وقد كان ابن منصور هذا على حال إلاّ أنه قد غلبت أحواله عليه فما قدر على قبض لسانه ، فقيل فيه ماقيل . انتهى بحروفه .

وقد شنّع طائفة من العلماء على الشيخ علي المروزي الحريري هذا وأُخذ على الألسن ، والذي أظنه أن السبب الأعظم في ذلك انقلابه عن الطريقة العلية الرفاعية ، وأخذه عن الشيخ علي المغربل تلميذ الشيخ رسلان التركماني الحصري - نفعنا الله به - في حياة شيخه الشيخ علي البصري الحريري الرفاعي ، وقد اتفق القوم على أن الواقف بين شيخين كالواقف بين سيفين ، فلذلك كان من أمره ماكان كما هو مفصل في كتب التاريخ ، ثم بعد ذلك التجأ إلى شيخه الشيخ علي الحريري البصري الرفاعي ولزم رواقه بقرية (بُسْر) ويقال لها (بُصْر) قرية من أعمال حوران ، وبها مات في سنة خمس وأربعين وستمائة ، ومنهم من ردّه ومنهم من قبله والذي ثبت عنه أنه مات على أحسن حال ، وله كرامات وأحوال ، وقد ذكرناه هنا ليُعلم أن العائلة الحريرية الرفاعية غير الطائفة الحريرية المروزية ، فإن السيد علي أبا الحسن الرفاعي الحريري لم يطعن فيه طاعن ، ولم يذكره بسوء ذاكر ، كان على قدم أجداده الطاهرين ، متمسكاً بآثار سيد

المرسلين ، انتهت إليه رياسة الخرقة في وقته أعقب ذرّية مباركة منهم الشيخ محيي الدين نزيل (حماه) وصاحب الزاوية الرفاعية فيها ، أخذ عن أبيه السيد يحيى عن أبيه السيد علي أبي الحسن الرفاعي ، وبقيت ذرية الشيخ محيي الدين الحريري الرفاعي في (حماه) على سير حسن وقدم طاهر وصحة منهج ، وقد تسلسل فيهم الخضوع والانكسار والبذل والسخاء وحب الفقراء ، وثبات التمسك بشريعة سيد الأنبياء ، سيراً على قدم سلفهم الطاهر ، في الباطن والظاهر ، نفعنا الله بأسلافهم وأخلافهم أجمعين .

﴿ ومن الفروع الشريفة العلية الرفاعية ﴾
﴿ سلسلة السادة الشمسية ﴾

ومن الفروع الشريفة الرفاعية ، سلسلة السادة الشمسية ، وهي تنتهي إلى الإمام الهُمام ، فخر بني رفاعة الأعلام ، ذي الشرف الموطَّد ، والعز المؤيَّد ، شيخ البيت الأحمدي مولانا السيد شمس الدين محمد رضي الله عنه ، كان إماماً جليلاً ، وسيداً صوفياً نبيلاً ، استُخلف بعد ابن عمه السيد إبراهيم الأعزب رضي الله عنهما في رواق (أمّ عَبيدة) وأثنى عليه رجال العصر ، وترجمه العلماء الأعيان ، ورثاه أعاظم الشيوخ ، قال شيخ الإسلام ابن جلال في (جلاء الصدا) حين عدَّد رجال البيت الأحمدي : ومنهم الإمام الصدر الحليم ، والهمام الحبر الحكيم ، حاوي محاسن الخصائل ، وجامع شتات الفضائل ، طائر عش الولاية ، وباسط فرش الهداية ، البعيد الغاية ، الرفيع الراية ، أبو السادة الأحمدية ، وسيد القادة الرفاعية ، صاحب المعارف والمعالي ، والمناصب العلية العوالي ،

سميُّ حبيب الله ، المرشد الداعي إلى الله ، السيد شمس الشريعة والدين محمد ، أكرمه الله تعالى باللقاء المؤيد ، استُخلف بعد ابن عمه فقصد الإرشاد للخلائق ، ودعاهم إلى حقيقة الحقائق ، كان مسكن البلاء ، ومعدن الحياء ، ذا خُلق فائح ، ورأي صائب ناجح ، وصوت شجي ، وعقل سني ، وسر خفي ، يبكي في خلوته كثيراً ، وكان له حزن عظيم وإذا قرأ كتاب الله تعالى يفرح كثيراً ، ولايظهر الكرامات قط ، ويقول إظهار الكرامات استدراج ، وإخفاءها سر ، وما ينبغي أن تظهر الأسرار ، يقتفي آثار جده رأس المهتدين ، ولايتهاون بأمر يتعلق بالدين ، يشاور الأصحاب ، ولاينطق إلاّ بالصواب ، كان جده يحبه ويوصيه ، ويُبجّله ويُدنيه ، ويُلقّبه بالسديد ورمّانة القبان ، وقال يوماً للفقراء : أي فقراء عليٌّ خليفتي ، وعبد الرحيم خليفتي ، ولا فرق بيني وبين محمد ، وسألت العزيز سبحانه أن يعطيه أكثر مما أعطى مثله أو دونه فأعطاه .

ولما وُلد أذَّن السيد الكبير في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى ، وأدخل اصبعه في حلقه وضمه إلى صدره ودعى له بمجامع الكلام ، وقال للسيد عبد الرحيم : ابنك محمد حكيم الوقت ، وقال أيضاً له : في صوتك سر من أسرار الله تعالى وكلمة الحق ، وقال أيضاً : لمحمد سر خفي من الخلق ، وقال عمه السيد علي قدس سره : لو جرّبني أهل السماوات وأهل الأرض فإني أغلب عليهم إلاّ محمد ابن أخي فإني أراه بحراً ماله ساحل .

وقال السيد إبراهيم الأعزب قدس سره في شأنه : إنه بحر لا ساحل له ولايعرفه إلاّ الله تعالى . نقل أنه لما توفي السيد أحمد الرفاعي رضي الله

عنه أخذ كل واحد من أهل بيته قطعة من خرقته ، وقيل للسيد محمد أنت خذ قطعة من خرقته . فقال : أنا ما أرضى من جدي بقطعة من خرقته أنا أطلب من جدي خُلُقه .

ونقل أيضاً أنه في بغداد وقد ألتمسوا منه أن يصف لهم شيئاً من مناقب جده ، فقال لهم : كيف أُثني على عليٍّ شجرة أنا فرعها . فقالوا : الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما ينقلان مناقب رسول الله ﷺ وأفعاله . فقال : لاستنباط الشريعة منها . وكان كثيراً ماينشد هذه الأبيات ويقول هذه صفة أهل الزمان شعراً :

الناس في زمن الإقبال كالشجرة	من حولها الناس مادامت بها الثمرةْ
حتى إذا ماانقضت من حولها نفروا	عنها جميعاً وقد كانت بهم بَرِرةْ
مروءة الناس هذا الشان كلهم	إلاّ القليل فأين العُشر من عشرةْ
فإن ظفرت بمن تبقى مودّته	فاعقد عليه يداً واحفظ له خطرهْ
ولاتقف لامرىءٍ من غير تجربة	فربما لم يوافق علمه نظرهْ

* * *

وكان قدس سره ينشد شعراً :

الحب بحر لأيام قراره	ضحضاحه للعاشقين يُغرق

* * *

وكان بعد وفاة جده ينشد شعراً :

والله ما طلعت شمس ولا غربت	إلاّ وذكرك مقرون بأنفاسي
ولا جلست إلى قوم أُحدِّثهم	إلاّ وكنت حديثي بين جُلاّسي

ولا شربت لذيذ المـاء من ظمـأ إلاّ وجدت خيالاً منك في الكاس

* * *

وكان ينشد أيضاً شعراً :

بُعـدكـمُ ما الـدار طيِّبـة لا ولا الأوطـان أوطـان

* * *

وكان قدس سره ينشد أيضاً شعراً :

بي منـك نيران الهـوى تلسـع فكـيف من هجـرك لا أجـزع
فإن لي مُذ غبـت عن ناظـري في كل عضـو مقـلة تدمـع
أحـابـني الـشـوق إلى نظرة منكـم فمـن ذا منكـم يشبـع

* * *

كانت مدة خلافته سبع سنين وأشهر ، وتوفي في أول شهر رجب سنة تسع عشرة وستمائة ، وغسّله محمد النقيب ودُفن عصر يومه في قبة جده .

﴿ ومن الفروع الشريفة العلية الرفاعية ﴾

﴿ ماتفرع عن سلسلة السادة الشمسية ﴾

ويتصل به [1] فروع جليلة ، فمن الفروع المتصلة به الفرع المنتهي إلى الشيخ الأكبر ، والهمام الأشهر ، مولانا السيد محمد الحديدي الرفاعي دفين (الحديثة) بُليدة تقرب من راوة بين الخابور وبغداد ، كان ينفخ على الحليب ويسقيه لإخوانه ، وله خوارق عظيمة ، ومناقب كريمة ، منها أن الأسود كانت تزوره في زاويته ، ينتهي نسبه إلى السيد شمس الدين

(١) يعود الضمير على السيد شمس الدين محمد بن السيد عبد الرحيم الذي تقدم ذكره رضي الله عنه .

محمد بن عبد الرحيم الرفاعي مات قدس الله سره في حدود الثمانماية ، ومناقبه أكثر من أن تذكر .

﴿ ومن الفروع الشريفة العلية الرفاعية ﴾
﴿ هذا الفرع الطاهر والعَلَم الظاهر ﴾

ومنهم الإمام الكبير ، والعارف النحرير ، وليّ الله السيد رجب الرفاعي الكبير وُلد رضي الله عنه في البصرة سنة تسعين وستماية وهو الأخ الصغير لسيدنا الشيخ تاج الدين ، ابن السيد شمس الدين محمد الرفاعي الكبير ، سكن (أُمّ عَبيدة) وبها وُلد [1] وصار شيخ الرواق الأحمدي بـ (أُمّ عَبيدة) وهو ابن أربعة عشرة سنة ، أحرز مشيخة الرواق في سنة أربع وسبعماية السنة التي توفي بها أخوه الشيخ تاج الدين بن شمس الدين بن الرفاعي شيخ الأحمدية بـ (أُمّ عَبيدة) كما ذكر ذلك ابن كثير في تاريخه . وقد كبر شأن السيد رجب قدس سره ، وبرع وعظم حاله ، وأخذ عنه الطريقة الرفاعية أجلاء مشايخ العراق ، وانعقد عليه إجماع الرجال في واسط ، وشهرته في البطاح العراقية غنيّة عن التعريف ، عكف على علوم الحقيقة ، واشتغل بأمر الطريقة ، وأعرض عما في أيدي الخليقة ، كان كثير السكوت ، عظيم الأخلاق ، مهاباً مبجّلاً ، رمقه رجال عصره بأعين الاحترام ، ورويت عنه الكرامات التي لاتحصى ، منها أنه مسّ على عين رجل انطمست باصرته فأبصر بإذن الله في الحال ، تسلسلت في ذريته

(1) ذُكِرَ أولاً ميلاده رضي الله عنه في البصرة وهنا قال المؤلف سكن (أُمّ عبيدة) وبها وُلِدَ فلافرق بين الأول والأخير لأن (أُمّ عبيدة) من ضواحي البصرة فلايتشوش القارئ، فإن الأخير أفاد تعيين مكان ميلاده من البصرة وضواحيها .

المباركة الأولياء في العراق ، وسكن بعض ذريته البصرة بعد خراب واسط وبقيت فيها إلى عهدنا هذا .

﴿ ومن الفروع الشريفة العلية الرفاعية ﴾
﴿ هذه النبعة الرجبية المحمدية ﴾

ومن بقيتهم [1] أحد رجال عصرنا العالم الجليل ، والسيد النبيل ، عمدة العلماء والأشراف ، ومفخر آل عبد مناف ، السيد إبراهيم ، ابن السيد بدر الدين ، ابن السيد مبارك ، ابن السيد صالح ، ابن السيد رجب الصغير من بقية آل السيد رجب الكبير الرفاعي قدس سره ، وَلِيَ السيد إبراهيم نقابة الأشراف في البصرة ثم وَلِيَ بعدها منصب الإفتاء وبقيَ مفتياً حتى مات ، وله التصانيف الكثيرة العديدة ، والتآليف الحميدة ، وحَسُنَ فيه ظن الخاص والعام ، وذكروا أنه حسنة من حسنات الأيام ، أثنى عليه الصلحاء والعلماء ، وامتدحه البلغاء والشعراء ، ومن جملة من مدحه الشاعر النبيه ، والفاضل الوجيه ، المرحوم السيد عبد الغفار الأخرس نزيل بغداد الموصلي الأصل ، فإن له فيه عدة قصائد ، منها هذه القصيدة الفريدة ، وهي :

سقى الطلل الغمام وجاد رسما ... عفى من عالج لديار سلمى
وسحّ على منازلنا بنجد ... مُلثّ القطر تسكاباً وسجما

---

(1) يعود الضمير على ذرية وليّ الله السيد رجب الرفاعي الكبير بن السيد شمس الدين محمد الرفاعي الكبير الذين تقدم ذكرهما رضي الله عنهم أجمعين وعن أسلافهم وأخلافهم ونفعنا بهم وبعلومهم وبجميع حِكَمهم وأقوالهم وأحوالهم آمين وصلّ الله على جدّهم الأعظم سيدنا محمد حبيب رب العالمين وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً إلى يوم الدين .

وعهد في الصريم مضى وصدّت ... أوانس غِيده هجراً وصرما

بحيث الكاس تترع بالحُميَّا ... وعَقد الشمل مثل العِقد نظما

وممّا صبوة وصبا أصابا ... مراماً باجتماعهما ومرمى

تُساعدني على اللذات سُعدى ... وتنعم لي بطيب الوصل نُعمى

وتعقرنا العقار وكم عقرنا ... بها من هذه الأحشاء هَمّا

وليل ما برحت أدير فيه ... مُعتّقة تلذّ لديّ طعما

أزوّجها بإبن المزن بكراً ... وأمزج صِرفها برضاب ألمى

واغتنم المسّرة بالندامى ... وكانت لذّة النُدماء غُنْما

رعى الله الشباب وإن تولّى ... وذكّر عهده يوماً فيوما

صحى سكران من خمر التصابي ... وبدّل بعد ذاك الجهل حِلما

وصاخ إلى العذول وكان صبّاً ... يرى لوم العذول أشدّ لوما

فمن لاحٍ يُعنّفه لدمعٍ ... يكفكفه مخافة أن ينمّا

أرتني من حوادثها الليالي ... أعاجيباً لها العَبرات تدمى

ومن لي أن تُسالمني الرزايا ... فمازالت لي الأرزاء خصما

أؤمّل نفس حُرٍّ لم تعدني ... أمانيها إلى أجلٍ مُسمّى

ضلالا ما أعلّل فيه نفسي ... وقولي ربّما وعسى ولمّا

فمالي والخمول وكل يوم ... تُفوّق لي خُطوب الدهر سهما

أراني إن عزمت على مُهمٍّ ... ثنت عني يد الأقدار عزما

وإني سوف أركبها لأمرٍ ... أُحاول شأوه إمّا وإمّا

وإن لياليا أعقرن عظمي ... أضاعتني وما ضيّعت حزما

فتبّاً للزمان لقد تعدّى ... حدوداً ما تعدّاهنّ قِدما

أيسمو الجاهلون بغير علم ؟ ... ويروى مَنْ هزؤت به وأظما ؟

تحوّل بازمان إلى الأعالي ... وخذ بكمالها فالنقص تمّا

لقد جهل الزمان بعلم مثلي ... وإن الجهل بين بنيه عمّ

وكنت أسُودُ في زمن جهول ... ولو أنّي كإبراهيم علما

قريب من رسول الله يُدعى ... بأزكى العالمين أباً وأمّا

نمته الأنجبون وكل قرم ... إلى خير الورى يُعزى ويُنمى

تخلّق من سنا نور مُبين ... فكان الجوهر النبوي جسما

بَنى الشرف الذي يعلو ويسمو ... فما أعلى مبانيه وأسمى

وشيّده وإن رغمت أنوف ... ولم يبرح لأنف الخصم رغما

بناء قصّرت عنه السواري ... وما اسطاعت له الحسّاد هدما

تأثّل في عظيم من قريش ... تجد أسد الشرى والبدر ثَمّا

عليه من رسول الله نور ... به يمحو الظلام المدلهمّا

إذا الأمر المهم دهى كفانا ... بدعوته لنا ما قد أهمّا

شفاء للصدور وكم مريض ... يكون له اشتيار الشهد سمّا

بروحي منك أروع هاشمياً ... حديد القلب واري الزند شهما

لك الكَلِم التي جمعت فأوعت ... تروح الملحدون بهنّ كلْمى

وكم من حُجة نطقت فظلّت ... لها فُصحاء غير الحق عُجما

وجئت بها يحير الفكر فيه ... بياناً منك إلهاماً وفهما

وقد أحييت هذا الدين علما ... بحيث الدين قارب أن يرمّا

وقوّمت الشريعة فيه حكماً ... ولم تر غير حكم الله حكما

وكم أغضبت يا مولاي قوماً ... بها فيها وكم أرضيت قوما

أتكتم فضلك الحساد جهلاً ؟ وما اسطاع الدجى للنور كتما
مناقبك النجوم وليس يدعا إذا ما أنكرتْها عين أعمى
وجدتك سيدي للمدح أهلا فخذ مدحي إذاً نثراً ونظما
وحسبي منك جائزتي دعاء به من سائر الأسواء أحمى
أنال به الثواب بغير شكٍّ وأمحو بالثناء عليك إثما
وليس يفي بفضلك كنه مدحي وكان المدح إلاّ فيك ظلما

* * *

وقال يمدحه أفاض علينا من مدده :

أفي الطَّلل الحديث أو القديم بلوغ مرام صبٍّ من مَرومِ ؟
وقفت على رسوم دارسات وما يغني الوقوف على الرسومِ
ألاَ سُقيت منازل آل سلمى بذي سَلَم ورامة والغميمِ
وحيِّي حيُّ أحباب تناءت بقلب سار عن جسد مقيم
خذي ياريح أنفاسي إليهم وإن كانت أحرَّ من السَّموم
أكفكف بعدهم دمعاً كريماً جرى من لوعة الوجد اللئيم
رعى الله الأحبّة كيف مرّت لياليهم بمنعرج الصريم
قضيت نعيم عيش مرَّ فيها فسلني إن جهلت عن النعيم
وكم غصن هصرت به رطيباً جنيّ الزهر مُخضَر الأديم
بحيث ازوّج ابن المزن لمّا عقدت حبابه بنت الكُروم
أهَلْ بعد الغميم وعهد سَلْع نجاة من هموم أو غموم ؟
سقتها هذه العَبرات صوباً تنوف به على الغيث العميم
كأني حيث أُسقيها دموعي سقاني البين كأساً من حميم

تلوم لجهلها لمياء وجدي — وأين اللائمون من الملوم ؟
سألتُكِ إن رأيتِ اللوم يجدي — حليف الوجد حينئذٍ فلومي
أما وحشاشة في القلب تزكو — غراماً يا أُميمة كالغريم
لقد عدم التصبُّر فيكِ قلبي — ومن يبغي الثراء من العديم ؟
وها أنا بعد من أهوى عليل — شفائي منه معتلّ النسيم
وكم دنف بكاظمة سقيم — ولكن مِن هوى طرفٍ سقيم
وليث دون ذاك الحيّ يُرمى — فيُصرَع في سهام لحاظ ريم
وأحباب أُقاسي ما أُقاسي — عذاباً من عذابهمُ الأليم
همُ نقضوا العهود وهم أصرّوا — بصدهمُ على الحنث العظيم
وذكري بعدهم جنّات عيش — رماني في لظى نار الجحيم
وفي دار السلام تركت قومي — وما أنا من هواهم بالسليم
ولي في البصرة الفيحاء قوم — أصول بهم على الخطب الجسيم
جرى من صدر إبراهيم فيها — على الدنيا ينابيع العلوم
من الأشراف أعلى من قريش — بهم شرف لزمزم والحطيم
إذا عُدّت قروم بني مَعدٍّ — فأوّل ما يُعدّ من القروم
عماد الدين قام اليوم فينا — بأمر الله والدين القويم
وفرع من رسول الله دلّت — أطايبه على طيب الأروم
ونجم في سماء المجد يهدي — إلى نهج الصراط المستقيم
شهاب ثاقب لازال يزكو — فيقذف كل شيطان رجيم
يُعيد ظلام ليل الشك صبحاً — إذا ماكان كالليل البهيم
يزيد عقولنا بدقيق فَهْم — غذاء للعقول وللفهوم

ونـرجـع في الكـلام إلى خبـير | بكـشـف دقـائق المعنى عليم
تكـاد حلاوة الألـفـاظ منـه | تعيد الـروح في الجسم الـرميم
وروض من رياض الفضل ضاهي | بزهـر كلامـه زُهـر الـنـجـوم
يُقصِّر بالـبـلاغـة باع قسٍّ | ويقصر عنـه قيس ابن الحـطيم
وإنـك إن نظرت إلى عُلاه | نظرت إلى جبـال من حلوم
إذا ذُكـرت مـناقبـه انتشينـا | وكـانـت كالمـدامـة للنـديم
لقـد كرُمـت له خيم وجـلّت | وخيم الأكـرمـين أجـلّ خيم
وهـل في الـسـادة الأنجاب إلاّ | كريم قد تفـرّع من كريم
يفـوق الـدر في نثـر ونـظم | إذا ماقيـس في الـدر الـنـظيم
وأين المسـك من نفحات شيخ | يفـوق نوافـح المسـك الشميم
ولم يبرح يقـابـل سـائـليه | بحُسـن الخُلق والـطبـع الحليم
تـنـال بفـضـلـه علمًا وحـكـمًا | تعـلّم فضـل لقـمان الحـكيـم
فحـاز مكـارم الأخـلاق طرًا | وحـاشـاه من الخُلق الـذميم
رفعـتُ إلى عُلاك بنـات فكـر | فكـانـت مُنية الكفـو الكـريم
أغـار من اللئـام على القـوافي | فلايحـظى بها حظ الـلئـيم
أمـانـع عن قوافـيَّ الأدانـي | ممانـعـة الـغـيور عن الحـريم

* * *

ويحسُن أن نذكر هنا للبركة سند السيد إبراهيم بلبس الخرقة إلى جده شمس الحقيقة ، وإمام أهل الطريقة ، مولانا السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه لما فيه من البركة وحُسن التصادف ، فإنه اتّصل إليه من أب عن أب من دون تخلّل رجال أُخر إلى السيد شمس الدين محمد سبط الغوث

الرفاعي أحمد ، نفعنا الله به وبعلومه الشريفة آمين ، فإنه أعني السيد إبراهيم لبس الخرقة وأخذ الطريق من أبيه السيد بدر الدين ، وهو أخذ عن أبيه الشيخ السيد مبارك ، وهو أخذ عن أبيه الشيخ السيد صالح ، وهو أخذ عن أبيه الشيخ السيد رجب ، وهو أخذ عن أبيه الشيخ السيد شعبان ، وهو أخذ عن أبيه الشيخ السيد محمد درويش ، وهو أخذ عن أبيه الشيخ السيد صالح ، وهو أخذ عن أبيه الشيخ السيد عبد الله ، وهو أخذ عن أبيه الشيخ السيد عبد الرحمن ، وهو أخذ عن أبيه الشيخ السيد حسن ، وهو أخذ عن أبيه الشيخ السيد حسين ، وهو أخذ عن أبيه الشيخ السيد يوسف ، وهو أخذ عن أبيه الشيخ السيد رجب ، وهو أخذ عن أبيه الشيخ السيد محمد شمس الدين ، وهو أخذ عن جده الشيخ السيد الجليل ، والمرشد النبيل ، سلطان العارفين ، ومرشد السالكين ، حامي حمى البصرة أبي العباس الشيخ السيد أحمد الكبير الرفاعي قدس الله أسراره ورضي الله عنه وعنهم أجمعين .

﴿ ومن الفروع الشريفة العلية الرفاعية ﴾

﴿ سلسلة السادة العجلانية ﴾

ومن الفروع المباركة الرفاعية ، سلسلة السادة العجلانية ، وهي تنتهي إلى الغوث الرفاعي رضي الله عنه من طريق السيد الشريف أبي البشائر محمد بن عجلان الحسيني نزيل الشام ، وجد السلالة العجلانية نقباء دمشق وشيوخ مشايخها ، وخرقته ترجع إلى الحضرة الرفاعية بوسائط جليلة المآثر ، من أعيان هذا البيت الأكابر ، على أنه قدس سره أخذ عن عمه شقيق والده الوليّ العارف بالله صاحب الكرامات الظاهرة ، والمناقب

الفاخرة ، والمقام الشهير بمصر القاهرة ، مولانا الشيخ السيد صدر الدين الرفاعي ، وهو أخذ عن عز الدين حسن بن أحمد الرفاعي ، وهو أخذ عن أبيه شمس الدين أحمد بن محمد الرفاعي ، وهو أخذ عن والده الشيخ تاج الدين محمد بن أحمد الرفاعي ، وهو أخذ عن الشيخ شمس الدين أحمد بن محمد بن عبد الرحيم الرفاعي ، وهو أخذ عن الشيخ نجم الدين أحمد بن علي الرفاعي ، وهو أخذ عن الشيخ قطب الدين أبي الحسن علي بن عبد الرحيم الرفاعي ، وهو أخذ عن الشيخ شمس الدين محمد المعروف ببيضة القبان الرفاعي ، وهو أخذ عن الشيخ محيي الدين إبراهيم بن علي الرفاعي ، وهو أخذ عن الشيخ مهذب الدين الرفاعي ، وهو أخذ عن الشيخ سيف الدين عليّ بن عثمان الرفاعي ، وهو أخذ عن الشيخ الإمام العارف المحقق ، مربي المريدين ، ومرشد السالكين ، وقطب الواصلين ، العَلَم المشهور ، والبيت المعمور ، سيدنا وأستاذنا السيد أحمد بن الرفاعي صاحب هذه الطريقة الغراء التي نحن سالكون عليها قدس الله سره العالي ، ونوّر ضريحه المتلالي ، آمين .

﴿ ومن الفروع الشريفة العلية الرفاعية ﴾

﴿ سلسلة السادة الجبرتية ﴾

ومن الفروع الشريفة الرفاعية سلسلة السادة الجبرتية ، وهي تنتهي إلى القطب العارف بالله ، وَليِّ الله الشيخ إسماعيل بن أحمد الجبرتي نفعنا الله به ، وإليه تنتمي الشعبة العيدروسية ، فإن الشيخ الإمام ، بقية آل الرسول الكرام ، الشريف أبا بكر ابن عبد الله العيدروس ، أخذ الطريقة الرفاعية وسند الخرقة الأحمدية عن شيخه الإمام الهمام الشيخ عبد الله بن

أحمد بامخرمة ، وهو عن الشيخ أبي شكيل محمد بن مسعود بن شكيل الأنصاري ، عن القاضي الشيخ محمد بن سعيدكين ، عن الشيخ أحمد الرداد ، عن الشيخ إسماعيل بن أحمد الجبرتي ، عن الشيخ محمد بن أبي بكر الضجاعي ، عن الشيخ إبراهيم ابن عبد الله الضجاعي ، عن الشريف الشيخ محمد بن الشيخ حسين السمرقندي ، عن السيد حسين بن السيد أحمد الرفاعي ، عن أبيه السيد أحمد الرفاعي ، عن الشيخ تاج الدين ابن السيد شمس الدين محمد الرفاعي ، عن السيد أحمد بن السيد علي الرفاعي ، عن السيد علي الرفاعي ، عن السيد محمد الرفاعي ، عن القطب الأقرب السيد إبراهيم الأعزب ، عن عمه الأجلّ سيدنا السيد مهد الدين عبد الرحيم ، عن أخيه السيد الجليل سيف الدين علي بن عثمان ، عن سيدنا الغوث الأجل السيد أحمد الرفاعي الكبير رضي الله عنه ، ولايخفى أن مؤلفات الإمام أبي بكر العيدروسي قدس سره في علوم الشريعة والحقيقة كثيرة جداً ، وقد خدم الحضرة الرفاعية بكتاب مخصوص ألّفه في مناقب سيدنا السيد أحمد الكبير الرفاعي وشرفه وأحواله وكراماته وأقواله سمّاه (النجم الساعي في مناقب الغوث الرفاعي) وله الهمم العظيمة ، والمآثر الكريمة قال في (المشرع الرّوي في مناقب آل علوي) : أبو بكر بن عبد الله العيدروس ، بن أبي بكر بن عبد الرحمن رضي الله عنه السيد الكبير ، عديم المثيل والنظير ، وحيد زمانه على الإطلاق ، وحائز قصبات السبق على أقرانه بالاتفاق ، الذي لم ينسج الدهر بعد بمثاله ، وعجز من بعده أن ينسج على منواله ، رافع راية المجد والكرم ، والمقلّد بمواهبه رقاب الأمم من العرب والعجم ، سيد السادات

الأشراف ، ومنتقى جوهرها الشفاف ، أفرد ترجمته بالتأليف العلاّمة محمد بن عمر بحرق ، في كتابه (مواهب القدوس في مناقب ابن العيدروس) إلى أن قال : وُلد رضي الله عنه سنة إحدى وخمسين وثمانماية بـ (تُريم) المحروسة وقد ذكر العلاّمة محمد بحرق بعد أن وصف الشيخ أبي بكر العيدروسي العدني المشار إليه بقطبانية وقته ، وعدّد له المناقب الكثيرة ، والكرامات الوفيرة ، قال : توفي يوم الثلاثاء لأربع عشرة خلت من شوال سنة أربع عشر وتسعماية ببندر (عدن) المشهور قال في المشرع الروي وقبره به كالشمس الضاحية ، يقصد للزيارة من كل ناحية ، نفعنا الله به وبأولياء الله أجمعين .

﴿ ومن الفروع الشريفة العلية الرفاعية ﴾
﴿ العزيزية وهي شعبة من الواسطية ﴾

ومن الفروع التي سبق ذكرها : العزيزية وهي شعبة من الواسطية أيضاً تنتهي للغوث الرفاعي من طريق الإمام الجليل المجمع على جلالته ورفيع قدره الشيخ عبد العزيز الدميري الديريني الشافعي خليفة القطب الأجل الشيخ أبي الفتح الواسطي أحد أجلاّء خلفاء الحضرة الرفاعية والسبسبية تنتهي إلى الشيخ الجليل السيد السبسبي دفين (الأساور) من بقاع (سلميّة) ومنه بوسائط تنتهي إلى الحضرة الأحمدية ، والجندلية المنسوبة إلى الشيخ العارف بالله أبي الرجال السيد محمد جندل الرفاعي قدس سره ، ومنه بوسائط صحيحة إلى الحضرة الرفاعية ، وحيث أن الفروع الرفاعية كثيرة جداً كلها تؤول إلى ماذكرناه من الأصول فلذلك اكتفينا

بالإشارة إليها بهذا المقدار [1] وسيأتي في آخر الباب بعد تعداد الطُّرق ـ إن شاء الله ـ سند تشرفنا بالخرقة الرفاعية ، ونبذة يسيرة تشير إلى جلالة قدر سيدنا الغوث أبي العَلَمين رضي الله عنه ونفعنا والمسلمين بعلومه وبركاته آمين .

---

(١) ويعجبني قول الإمام السيد سراج الدين الرفاعي المخزومي رضي الله عنه بمناسبة الخرقة الرفاعية وعظيم فتحها ، وصحة وصلها ، لقرب يد صاحبها رضي الله عنه من يد رسول الله ﷺ مادة ومعنى وهو :

خرق القوم كلها بركات ... ذات وصل عارٍ عن الانقطاع
وأجلّ الجميع وصلاً وفتحاً ... خرقة السيد الكبير الرفاعي

• • •

وإلى ذلك أشار الإمام عبد العزيز الديريني بقوله ملخصاً : ليس من خرقة بعد خرق الأئمة الاثني عشر رضوان الله عليهم أعمّ فتحاً ، وأعظم منحاً ، من خرقة السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه لصحة وصلها بيد رسول الله ﷺ حسّاً ومعنى انتهى . صح .

يقول محققه وناسخه طفيليّ مائدة الآل : وجدت هذه الحاشية في هامش الأصل ولكن هي أيضاً بنفس قلم كاتب الأصل بدون أدنى اختلاف ولم يذكر صاحب الحاشية اسم سوى لفظة (صح) الموجودة الآن بآخر الحاشية ولكن كانت في الأصل بالحبر الأحمر وهذا مما يدل على أنها من استدراك واستحسان المؤلف وطبعة الكلام وعذوبته أكبر دليل يؤكد ذلك .

﴿ الطريقة القادرية ﴾

﴿ وهنا ذكر سند الطريقة القادرية ﴾

﴿ وكيفية اتصال رجالها بسلسلة خرقة الصوفية ﴾

الطريقة القادرية تنتهي إلى القطب الغوث العارف الرباني ، والأستاذ الكبير النوراني ، جامع محامد المزايا والمعاني ، الباز الأشهب أبي محمد محي الدين مولانا الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس الله سره العالي ، ونفعنا به آمين .

وقد نسبه صاحب البهجة وغيره فقالوا : هو الشيخ عبد القادر ، بن أبي صالح جنكي دست موسى ، بن عبد الله ، بن يحيى الزاهد ، بن محمد ، بن داوود ، بن موسى ، بن عبد الله ، بن موسى الجون ، بن عبد الله المحض ، بن الحسن المثنى ، بن الإمام علم الإسلام سبط رسول الملك العلّام ، صاحب الشرف المخلّد ، ثاني أئمة أهل البيت الحسن أبي محمد ، بن أسد الله الغالب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه ورضي الله عنه وعنهم أجمعين . وُلد رضي الله عنه سنة سبعين وأربعمائة ببلدة جيلان من بلاد العجم ، وترعرع في حجر والده إلى أن بلغ حدّ الرجال ، ثم طرقه الحال ، ومنحه الكريم المتعال ، فخرج من بلدته إلى العراق ، واشتهر أمره بعد ذلك ورمقته بباصرة التعظيم والتبجيل كل عين ، لمعت أنوار إرشاده في العراق ، فعمّت بأشعّتها الآفاق ، تخرّج بصحبة الشيخ العارف بالله قدوة المحققين أبي الخير حماد بن مسلم الدباس ، ولبس الخرقة من يد القاضي أبي سعيد يعلى بن المبارك ، بن علي المخرومي ، ولقي جماعة من أعيان زهّاد زمانه ، واجتمع على عظماء

العارفين بالعجم والعراق ، قدم بغداد على ما في البهجة القادرية المسمّاة (بهجة الأسرار) سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، قال مؤلّف البهجة الهمداني بعد أن ذكر مقدمه المبارك إلى بغداد : قام رضي الله عنه في أخذ العلوم الشرعية ، وفي تلقّي الفنون الدينية ، حتى فاق أهل زمانه ، وتميّز بين أقرانه ، وذكر عند ذكر نسبه أنه سُئل عن مولده فقال لا أعلمه حقيقة لكني قدمت بغداد في السنة التي مات فيها التميمي وعمري إذ ذاك ثماني عشرة سنة . قلت : والتميمي هذا هو أبو محمد رزق الله ، بن عبد الوهاب ، ابن عبد العزيز ، بن الحارث ، بن أسد توفي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة . وبإسناده قال : ذكر أبو الفضل أحمد بن صالح بن شافعي الجيلي الحنبلي رضي الله عنه أن مولد الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه سنة إحدى وسبعين وأربعمائة بجيلان ، وأنه دخل بغداد سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وله من العمر ثماني عشرة سنة .

قيل : هو رضي الله عنه منسوب إلى جيل بكسر الجيم وسكون الياء ، وهي بلاد متفرقة وهي وراء طبرستان وهناك وُلد في (نيف) قصبة منها ويقال فيها أيضاً قرية على شاطىء دجلة على مسيرة يوم من بغداد مما يلي طريق واسط ، ويقال لها أيضاً : جيل ومن ثم يقال : كيل العجم وكيل العراق ، وأبو العبر ثابت بن منصور الكيلي من كيل العراق ، والجيل أيضاً قرية تحت المداين ، وقال الرواة أيضاً : جيلان منسوب إلى جده جيلان ، وأبو عبد الله الصومعي من جملة مشايخ جيلان ورُؤساء زهّادهم له الأحوال السنية والكرامات الجليلة . انتهى بحروفه .

وقال في البهجة أيضاً : كان شيخنا شيخ الإسلام محيي الدين عبد

القادر الجيلي رضي الله عنه نحيف البدن ، رَبْع القامة ، عريض الصدر ، عريض اللحية ، طويلاً أسمر مقرون الحاجبين ، حفياً ذا صوت جهوري وسمت بهي ، وقدٍّ عليّ ، وعلم وفيّ رضي الله عنه .

قلت : وقد ظهر أمر الشيخ عبد القادر ـ رضي الله عنه ـ وعلا صيته وكبر شأنه ، وانتمى إليه معظم رجال عصره ، وشهد له أكابر وقته بالصولة والهمة والسلطنة والقطبية والغوثية ، وشهرته في العرب والعجم غنية عن تعريفه ، وقد أفرده رجال من الصلحاء بكتب مخصوصة ذكروا فيها مناقبه وعجائب أحواله الشريفة ، وما كان عليه من عظيم المنزلة ، ورفيع المرتبة والوجاهة وعلوّ الهمة ، وإقبال الخلق عليه ، والتفات القلوب إليه ، وقد جاهد نفسه ـ رضي الله عنه ـ كل الجهاد ، وأقبل على الله وأعرض عن العباد ، دخل بغداد في التاريخ المتقدم الذي ذكره صاحب البهجة ، وتفقه على جماعة من أعيان علماء العراق حينئذ وهم أبو الوفا علي بن عقيل ، وأبو الخطاب محفوظ بن أحمد الكوداني ، وأبو الحسن محمد بن القاضي أبي يعلى محمد بن الحسين بن محمد الفرا ، وأبو سعيد ابن المبارك المخزومي ، وسمع الحديث من جماعة منهم أبو غالب محمد بن الحسن الباقلاّني ، وأبو سعيد ابن عبد الكريم بن حبيش ، وأبو الغنايم محمد بن علي بن محمد بن ميمون وغيرهم ، وقرأ الأدب على أبي زكريا التبريزي رحمهم الله أجمعين ، ثم بعد ذلك كله طرقه وارد الحال فخرج إلى البراري وترك العمران واشتغل بالمجاهدة ، قال في البهجة : وبإسناده إلى الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه كان يقول على الكرسي ببغداد مكثت خمساً وعشرين سنة متجرداً سائحاً في براري العراق وخرابه ، وأربعين سنة

أصلّي الصبح بوضوء العشاء ، وخمس عشرة سنة أصلّي العشاء ثم استفتح القرآن وأنا واقف على رجل واحدة ، ويدي في وتد مضروب في حائط خوف النوم حتى أنتهي إلى آخر القرآن عند السحر ، وكنت ليلة طالعاً في سُلّم فقالت لي نفسي لو نمت ساعة ثم قمت فوقفت موضع خطر لي هذا وانتصبت على رجل واحدة واستفتحت القرآن حتى انتهيت إلى آخره وأنا على هذه الحالة ، وكنت من الثلاثة أيام إلى الأربعين يوماً لا آكل ولا أجد ما أقتات به ، وكان يأتيني إبليس في صورة فأصيح عليه فيذهب ، وكانت الدنيا تأتيني في زخارفها وشهواتها في صور حسان وقباح فأصيح عليها فتفرّ هاربة ، وأقمت في البرج المسمّى الآن ببرج العجم إحدى عشرة سنة ولطول إقامتي فيه سمي ببرج العجمي ، وكنت بايعت الله عز وجل فيه أن لا آكل حتى أُلقم ولا أشرب حتى أُسقى فبقيت مدة أربعين يوماً لا آكل ولا أشرب شيئاً ، فبعد الأربعين يوماً جاء رجل ومعه خبز وطعام فوضعه بين يدي ومضى وتركني ، فكادت نفسي تقع على الطعام من شدة الجوع فقلت والله لاحلت عما عاهدت ربي ـ تبارك وتعالى ـ عليه ، فسمعت صارخاً من باطني ينادي الجوع فلم أرتع فاجتاز بي الشيخ أبو سعيد المخزومي فسمع الصارخ فدخل عليَّ فقال : ماهذا ياعبد القادر ؟ قلت : هذا قلق النفس وأما الروح فساكنة إلى مولاها عز وجل . قال : تعال إليّ إلى باب الأزج . ومضى وتركني على حالي ، فقلت في نفسي : ما أخرج من هذا إلاّ بأمر . فجاءني أبو العباس الخضر وقال : قم وانطلق إلى أبي سعيد . فجئته فإذا هو واقف على باب داره وينتظرني . فقال : ياعبد القادر ألم يكفك قولي لك تعال حتى أمرك الخضر بما أمرتك ، ثم أدخلني

داره فوجدت طعاماً مهيئاً فجلس ولقمني حتى شبعت ، ثم ألبسني الخرقة بيده ولازمت الاشتغال عليه وكنت قبل ذلك في سياحاتي فأتاني شخص مارأيته قط ، فقال لي : هل لك في الصحبة ؟ قلت : نعم . قال : بشرط أن لاتخالفني . قلت : نعم . قال : إجلس هنا حتى آتيك . وغاب عني سنة ثم عاد إليّ وأنا في مكاني ذلك فجلس عندي ساعة ، ثم قام وقال : لاتبرح من مكانك حتى أعود إليك . فغاب عني سنة أخرى ثم جاء وأنا في مكاني ، فجلس عندي ساعة ثم قام وقال : لاتبرح من مكانك حتى أعود إليك . فغاب عني سنة أخرى ، ثم عاد ومعه خبز ولبن فقال : أنا الخضر وقد أمرت أن آكل معك . فأكلنا ثم قال : قم وادخل بغداد . فدخلنا جميعاً ، فقيل للشيخ : من أين كنت تقتات تلك السنين الثلاث ؟ قال : من المنبوتات . انتهى .

﴿ مما تفرع عن الطريقة القادرية ﴾

﴿ هذه الفروع الطيبة الزكية ﴾

ينتهي سند خرقته إلى الإمام الجنيد البغدادي رضي الله تعالى عنه وسند الإمام الجنيد معلوم غني عن الإيضاح ، ولطريقته المباركة فروع وهي :

الصمادية تنتهي إليه من طريق الشيخ مسلم الصمادي الدمشقي قدس سره .

والرومية الأشرفية وهي فرع ينتهي إليه نفعنا الله به من طريق ولده عبد الرزاق قدس سره .

والعزيزية وهي شعبة تتصل به من طريق ولده الشيخ عبد العزيز دفين جبل الحيال من أعمال الموصل قدس سره .

والهندية والمقدسية وكلاهما يتصل به ـ أمدّنا الله بإمداده ـ من طريق ولده الشيخ عبد الرزاق ، ومنه بلا واسطة أولاده من طريق الشيخ ابن قدامة المقدسي أحد من تشرّف بلبس خرقته المباركة منه رضي الله عنه وله يد في الخرقة طويلة ، وآثار جليلة ، وأحوال مباركة ، اشتهرت في الآفاق غاية الاشتهار ، وكادت تبلغ مبلغ الشمس في رابعة النهار ، توفي ـ بلّ الله ثراه بالرحمة ـ ببغداد عام إحدى وستين وخمسماية ، ودفن في رباطه المبارك المنور بقبره العطري ، نفعنا الله به وبأشياعه ، وبجميع المتمسكين بآثاره الصحيحة من أتباعه آمين آمين .

﴿ الطريقة العلية السهروردية ﴾

وهنا ذكر الطريقة العلية السهروردية ، هذه الطريقة تنتهي إلى الإمام العارف الهمام ، صدر شيوخ زمانه الأعلام ، أحد أعيان الخرقة وأفراد الطائفة أبو النجيب ضياء الدين عبد القاهر السهروردي الصديقي شيخ الطائفة السهروردية رضي الله عنه .

قال الإمام الشعراني قدس سره حين ترجمه في طبقاته الوسطى : انعقد عليه إجماع المشايخ والعلماء بالاحترام ، وكان له القبول التام في الصدور ، والمهابة في القلوب ، وتخرّج بصحبته جماعة من أكابر المشايخ كالشيخ شهاب الدين السهروردي ، والشيخ عبد الله بن مسعود الرومي ، واشتهر في الآفاق وقُصِد من كل قُطر ، وكان يقول : التصوف أوله علم ، وأوسطه عمل ، وآخره موهبة ، فالعلم يكشف عن المراد ، والعمل يعين على الطلب ، والموهبة تبلغ غاية الأمل . وكان يقول : أفضل المقامات عندنا عدّ الأنفاس فلايقع له نَفَس واحد في غفلة عن الله تعالى . وكانت

مجاهداته ومجاهدات أصحابه فوق الحد ، وله كلام عال في الطريق لا يذوقه إلاّ الكمّل فتركناه ، سكن بغداد إلى أن مات بها سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، ودفن بمدرسته على شاطىء الدجلة وقبره بها ظاهر يزار رضي الله عنه ورحمه رحمة واسعة بمنّه وكرمه انتهى .

ومناقبه أكثر من أن تذكر ، وقد حصل نشر طريقته المباركة على يد ابن أخيه صاحب كتاب (عوارف المعارف) وغيره الإمام الهمام الحُجة القدوة وليّ الله الشيخ عمر شهاب الدين السهروردي البكري قدس سره العالي ونفعنا الله به آمين .

وإلى الشيخ أبي النجيب المشار إليه تنتهي خرقة طوائف الخلوتية كلهم من طريق ابن أخيه الشيخ عمر شهاب الدين ، ومن طريق خليفته الشيخ عبد الله بن مسعود الرومي ، ومن طريق خليفته الثالث الشيخ قطب الدين الأبهري رضي الله عنهم أجمعين .

﴿ فروع الطريقة العلية السهروردية ﴾

ولهذه الطريقة المباركة فروع كثيرة منها الكبروية وهي تنتهي للإمام العارف بالله الشيخ نجم الدين الكبري قدس سره ، ولها ينتمي :

فروع البهائية ، والفردوسية ، والنوربخشية ، والهمدانية ، ومنها الطريقة العلية المولوية ، المنسوبة إلى الولي العارف بالله مولانا جلال الدين الرومي الصديقي دفين (قونيه) وهي تنتهي إلى الإمام أبي النجيب السهروردي من سندين الأول بواسطة خليفته الشيخ عمار بن ياسر ، والثاني بواسطة خليفته الشيخ قطب الدين الأبهري ، وسند الشيخ أبي النجيب ينتهي إلى الإمام الجُنيد البغدادي رضي الله عنه ، وللطريقة

السهروردية فروع جليلة أُخر ، منها الزينية ، والنجيبية ، والكلشنية ، والسنبلية ، والـدمـرداشية ، والشعبـانية ، والنجشية ، والجمـالية ، والعسالية ، والبكـرية ولها ينتمي كل من شعب الحفنية ، والسمانية ، والـدرديرية ، والدجانية ، والصاوية ، وغالب هذه الفروع مشهورة في البلاد التركية ، نفعنا الله بأُصولهم وفروعهم الصالحة أجمعين ، وبعباد الله الصالحين آمين .

﴿ الطريقة العلية الدسوقية ﴾

وقد تنتمي إلى الشيخ شهاب الدين السهروردي رضي الله عنه الطريقة العلية الـدسوقية المنسوبة إلى الشيخ الكبير ، والعلم الشهير ، القطب الغوث الحقيقي ، مولانا السيد إبراهيم الحسيني الدسوقي ، رضي الله عنه فإنه أخذ الطريقة ولبس الخرقة من كلٍّ من الشيخين الجليلين ، والعارفين بالله نجم الـدين محمود الأصفهاني ، ونور الدين عبد الصمد النطري قدس سرهما ، وهما لبساها من الشيخ نجيب الدين علي الشيرازي ، وهو لبسها من الشيخ شهاب السهروردي رضي الله عنه وعنهم أجمعين .

قلت : وكما أن الطريقة الدسوقية تنتهي خرقتها إلى الشيخ أبي النجيب السهروردي قدس سره من هذا الطريق الذي ذكرناه ، فكذلك تنتهي من طريقين إلى الغوث الكبير الرفاعي رضي الله عنه قال في (شجرة الإرشاد) للسيد حسن أبي الإقبال الوفائي الشاذلي الرفاعي قدس سره ماملخصه : لبست الخرقة المحضة الأحدية من الشيخ عبد الله العُجيمي بالصعيد ، وهو لبسها من الشيخ محمد بن غنيم الصوراني ، وهو لبسها من الشيخ نجم الدين محمود الأصفهاني ، وهو لبسها من الشيخ الإمام عز الدين

أحمد الفاروثي ، وهو لبسها من أبيه الحافظ أبي إسحاق إبراهيم الفاروثي ، وهو لبسها من أبيه الشيخ عمر الفاروثي ، وهو لبسها من شيخ الطائفة جناب الغوث الرفاعي رضي الله عنه ، ثم قال : وقد لبس عن النجم الأصفهاني جماعة عُمَد ، منهم القطب الغوث السيد إبراهيم الدسوقي ، قال : وللسيد إبراهيم الدسوقي خرقة من شيخنا السيد علي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنهما بلاواسطة ، وعلى هذا فالخرقة الدسوقية شاذلية رفاعية بلاريب . انتهى .

﴿ وللطريقة الدسوقية فروع زكية منها الشرنوبية ، والعاشورية وغيرهما ﴾

﴿ ترجمة السيد إبراهيم الدسوقي رضي الله عنه ﴾

السيد إبراهيم الدسوقي رضي الله عنه ابن أبي المجد ، ابن قريش ، ابن محمد ، بن النجا ، ابن عبد الخالق ، ابن القاسم ، بن جعفر، بن عبد الخالق ، بن أبي القاسم الزكي ، ابن علي ، بن محمد الجواد ، بن علي الرضا ، بن موسى الكاظم ، بن جعفر الصادق ، بن محمد الباقر ، ابن علي الزاهر زين العابدين ، بن الحسين ، بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه القرشي الهاشمي رضي الله عنهم أجمعين .

برع واشتهر ، وبرز بإذن الله إلى الوجود وظهر ، وشهد له رجال وقته بالولاية الكبرى ، والقطبية العظمى ، وانتهت إليه رياسة الطريق في وقته .

قال الشعراني ـ قدس سره ـ في طبقاته الوسطى حين ذكره : قد ترجمه بعضهم بأنه أحد الأئمة الذين أبرز الله لهم المغيبات ، وخرق لهم العادات ، وأوقع لهم الهيبة في القلوب ، وانعقد على فضله إجماع

المشايخ ، وكان مقصوداً بحل المشكلات ، وكشف خفيّات الموارد رضي الله عنه .

وترجمه بعضهم أيضاً : بأنه الشيخ الكامل الراسخ أحد أعيان المشايخ الواصلين ، وصاحب الكرامات والخوارق في حياته وبعد مماته ، انتهت إليه رياسة الكلام على خواطر الخلق ، وتلمذ له خلائق من العلماء والصلحاء والقضاة ، وكان له أربعون خادماً من أرباب الأحوال .

وجاء مرة سبعة من القضاة يمتحنونه ، فلما وصل مركبهم إلى البر بناحية دسوق أرسل النقيب لهم وقال له إدفعهم خلف جبل ق فوجدوا نفوسهم هناك ، فأقاموا سنة يأكلون من حشيش الأرض حتى تغيّرت أجسادهم ، وخلقت ثيابهم ، ثم تذكروا ماوقعوا فيه فتابوا هناك فأرسل لهم النقيب فدفعهم فوجدوا نفوسهم على ساحل دسوق ، ومسح الله تعالى من قلوبهم تلك الأسئلة كلها واعترفوا بما كانوا جاؤوا لأجله ، فقال لهم الشيخ قولوا ماعندكم من المسائل فضحكوا وقالوا : يكفينا ماجرى لنا . وأخذ عليهم العهد وصاروا من تلامذته حتى ماتوا .

وترجمه بعضهم : بأنه الشيخ الكامل صاحب الأفهام العرفانية ، والعلوم اللدنية ، والأسرار الربانية ، من كان له المقام العالي في قلوب العلماء والملوك والمهابة في الصدور ، وقُصد للزيارة والتبرك من سائر الآفاق ، وأمر التمساح أن يلفظ الصبي الذي ابتلعه فخرج التمساح ولفظه بحضرة الناس . رضي الله عنه .

وترجمه بعضهم : بأنه الشيخ الكامل الراسخ من أجلاء مشايخ مصر والسادات العارفين ، صاحب الكرامات الظاهرة ، والأفعال الفاخرة ،

والأحوال الخارقة ، والمقامات السنية ، والهمم الفخيمة ، صاحب الفتح الموفق والكشف المخرق ، والتصدر في مواطن القدس والترقي في معارج المعارف والتعالي في مراقي الحقائق ، كان له الباع الطويل في التصريف النافذ ، واليد البيضاء في أحكام الولاية ، والقدم الراسخ في درجات النهاية ، والطور السامي في الثبات والتمكين ، وهو أحد من ملك أسراره ، وقهر أحواله ، وغَلب على أمره ، وهو أحد أركان الطريق . انتهى .

وترجمه بعضهم : بأنه صاحب المحاضرات القدسية ، والمعراج الأعلى في المعارف ، والمنهاج الأسنى في الحقائق ، والطور الأرفع في المعالي ، والقدم الراسخ في أحوال النهايات ، واليد البيضاء في علم الموارد ، والباع الطويل في التصريف النافذ ، والكشف الخارق عن حقائق الآيات ، والفتح المضاعف في معنى المشاهدات ، وهو أحد من أظهره الله عز وجل إلى الوجود وأبرزه رحمة للخلق ، وأوقع له القبول التام عند الخاص والعام ، وصرّفه في العالم ومكّنه في أحكام الولاية وقلب له الأعيان وخرق له العادات ونطّقه بالمغيبات ، وأظهر على يديه العجائب ، وصوّمه في المهد .

وجاءه مرة فقير يطلب منه أن يلبسه الخرقة فنظر إليه وقال : ياولدي التلبيس في الأمور ماهو جيِّد ، فإنه لايصلح للبس الخرقة إلاّ من درسته الأيام وقطعته الطريق مجهدها ، وأخلص في معاملته ، وقرأ معاني رموز الطريق ، ونظر في أخبار أهلها ، وعرف مقاصدهم في حركاتهم وسكناتهم وأسفارهم وأخلاقهم ، فإن كنت ياولدي تعقد التوبة في هذا الوقت

فلاتكن مجاناً ولا لعّاباً ولا صبي العقل ، فما الأمر بقول العبد تبت إلى الله باللفظ دون القلب ، ولا بكتابة الورق والدرج ، وإنما التوبة أن يتوب العبد عن أن يلحظ الكون بعيني قلبه أو يراعي غير مولاه ، فإذا صحّ للفقير هذا الأمر هناك يُرجى له صحة التوبة . وكان يقول : قوّة المبتدي الجوع ، ومطره الدموع ، وفطره الرجوع ، يصوم حتى يرقّ ويلين وتدخل الرّقة قلبه ، وتنفتح مفاتيح لبه ، فيسمع حينئذٍ القرآن ومواعظه بقلب حاضر فينتفع ، وأما من أكل ونام ، ولغى في الكلام ، وترخّص وقال ماعلى ذلك من ملام ، فلايجيء منه شيء والسلام .

وكان يقول : مابنيت طريقتنا هذه إلاّ على النار ، والبحر الهدار ، والجوع والاصفرار ، ماهي بالشدقة ولا بالفشار ، دعونا من هذه البطالات فما وجدنا من أولادنا إلى هذا الوقت أحداً اقتفى آثار الرجال ولا صلح أن يكون محلاً للأسرار ، فآهٍ آهٍ من هذا الزمان الغرار .

وكان يقول : من شروط الفقير أن يكون كالسلطان مهابة ، وكالعبد الذليل تواضعاً ومهنة .

وكان يقول : الشيخ حكيم المريد ، فإذا لم يعمل المريد بقول الحكيم لم يحصل له شفاء .

وكان يقول : مُذ صرفنا همنا إلى ربنا لم نعرف سواه ، ولانعرف إبليس .

وكان يقول : خلوة الفقير سجادته ، وجلوته سره وسريرته . انتهى وكلماته كثيرة ، ومناقبه شهيرة ، وزيارة قبره بركة ، والتمسك بأذياله ومحبته نعمة ، وسيرته رضي الله تعالى عنه مبسوطة في كتب القوم .

﴿ الطُرق التي تنتهي أسانيدها إلى ﴾
﴿ الُجنيد البغدادي رضي الله عنه ﴾

وينتهي إلى الخرقة الجنيدية معظم طُرق الصوفية المعروفة في البلاد الإسلامية ، دون طُرق قليلة تنتهي أسانيدها إلى أيادٍ مباركة أُخر وسيأتي ذكرها ، ولنذكر بالاقتصار أسماء الطُرق المباركة المتداولة التلقّي في سائر البلاد المشرقية والمغربية فنقول : هي الطريقة المدْينية المنسوبة إلى الشيخ أبي مدين شعيب بن حسن التلمساني ، ومن فروعها الميمونية ، والعلوانية الحموية ، والطريقة العلية السعدية ، وهي المنسوبة إلى الشيخ سعد الدين الجباوي الشيباني دفين (جبى) قدس سره ونفعنا به ومن فروع طريقته التغلبية ، والسلامية وغيرهما ، ومن الطرق العلية الطريقة البيرامية المنسوبة إلى الوَليّ الكامل الحاج بيرام الأنقروي ، وهي كذلك تتصل بالشيخ أبي النجيب السهروردي ، ولها فروع منها الملامية ، والحمزوية ، والشمسية وغيرهم ، ومن الطُرق العلية أيضاً الطريقة الأدهمية ، والخرازية السهلية الخفيفية ، والعريضية ، والعقيلية ، والششترية ، واليعزية ، والبسطامية ، والأوسية ، والنقشبندية والشاذلية ، وكلها تنتمي إلى الخرقة الجنيدية العَلَوية ماعدى الشاذلية من الطريق العَلَوي الذي ينتهي إلى جابر بن عبد الله الأنصاري والإمام الحسن السبط رضي الله عنهما وهما عن الإمام علي أمير المؤمنين رضي الله عنه ، ومن الطريق الآخر فقد تقدم ذكر اتصال خرقة القطب الشاذلي قدس سره بالغوث الرفاعي رضي الله عنه وهذه النسبة جنيدية كما لايخفى وللشاذلية فروع منها الجزولية ،

والزروقية ، والناصرية ، والمسطارية ، والعفيفية وغيرها نفعنا الله بهم أجمعين .

﴿ الطُّرُق التي لاتتصل بالإمام ﴾
﴿ الجُنيد البغدادي رضي الله عنه ﴾

ومن الطُّرق التي لاتتصل بالإمام الجنيد رضي الله عنه الطريقة البكتاشية المنسوبة إلى السيد الحاج بكتاش الخراساني ، فإن يده تتصل بالشيخ أحمد اليسوي وله وِصلة تنتهي نسبتها إلى أفضل أصحاب النبي ﷺ بحر الفضل المعظم مولانا وولِيّ نعمتنا الإمام أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، والبسطامية وهي المنسوبة للأستاذ الأكبر العارف بالله الشيخ أبي يزيد البسطامي نفعنا الله به ، ووصلته تتصل بحضرة الصديق الأكبر رضي الله عنه ، والنقشبندية وهي المنسوبة إلى الوَليّ الكبير ذي الفيض الساري الشيخ محمد بهاء الدين الأُويسي البخاري المعروف بالشاه النقشبند قدس سره ، ونسبته أيضاً تتصل بحضرة أمير المؤمنين سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

والأُويسية وهي المنسوبة إلى سيد التابعين سيدنا الإمام أُويس القرني رضي الله عنه ، وله خرقتان الأُولى عمرية عن ثاني الوزيرين أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، والثانية عن سيدنا زوج البتول أسد الله علي بن أبي طالب رضي الله عنه ؛ والعقيلية وهي المنسوبة إلى الولي الجليل مولانا الشيخ عقيل المنبجي العمري قدس الله سره ونفعنا به ، ونسبته تنتهي إلى الفاروق الأعظم سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وله يد تتصل بالجُنيد البغدادي نفعنا الله بمدده العالي ، ولهذه

الأصول الطاهرة فروع كثيرة تنتمي إليها ، وتعوّل في سند الخرقة وتلقين الـذكر والعهد عليها ، أمدّنا الله بمدد رجال هذه السلاسل الطاهرة ، ونفعنا والمسلمين بهم في الدنيا والآخرة آمين .

﴿ سند اتّصال المؤلف رضي الله عنه ﴾
﴿ بطريقته العلية الرفاعية ﴾

ولنذكر الآن كما شرطنا في هذا الباب ذكر سند تشرفنا بالخرقة الرفاعية فنقول: مَنَّ الله عليّ ، وأحسن بفضله إليّ ، فلبست الخرقة وأخذت هذه الطريقة الرفاعية من سيدي ووالدي وقرّة عيني وملاذي ووسيلتي إلى الله ، السيد الكبير ، والمرشد الشهير ، الشيخ حسن وادي أفندي ، ابن السيد علي ، بن السيد خزام ، ابن السيد الشيخ علي الخزام دفين (حيش) الولي المقدام ، ابن الولي العارف العالم المرشد الكامل السيد الشيخ حسين برهان الدين ، بن السيد عبد العلّام ، ابن السيد عبد الله شهاب الدين البارك الزبيدي البصري الرفاعي ، ابن السيد محمود الصوفي ، بن السيد محمد برهان ، بن السيد حسن الغواص ، بن السيد الحاج محمد شاه ، بن السيد محمد خزام دفين (الموصل) بن السيد نور الدين ، بن السيد عبد الواحد ، ابن السيد محمود الأسمر ، بن السيد حسين العراقي ، بن السيد إبراهيم العربي ، ابن السيد محمود ، بن السيد عبد الرحمن شمس الدين ، بن السيد عبد الله قاسم نجم الدين المبارك ، ابن السيد محمد خزام السليم ، بن السيد شمس الدين عبد الكريم ، بن السيد صالح عبد الرزاق ، ابن السيد شمس الدين محمد ، بن السيد صدر الدين علي ، ابن القطب الجواد السيد عز الدين أحمد الصياد ، ابن

السيد ممهد الدولة والدين عبد الرحيم الرفاعي ، ابن الإمام وليّ الرحمن السيد عثمان ، بن السيد حسن ، بن السيد عسلة ، بن السيد الحازم ، ابن السيد أحمد ، بن السيد علي المكي ، بن السيد رفاعة ويقال له الحسن نزيل المغرب ، ابن السيد المهدي ، ابن السيد أبي القاسم محمد ، بن السيد الحسن ، بن السيد الحسين ، ابن السيد أحمد ، بن السيد موسى الثاني ، بن السيد إبراهيم المرتضى ، ابن الإمام موسى الكاظم ، ابن الإمام جعفر الصادق ، ابن الإمام محمد الباقر ، ابن الإمام زين العابدين علي الأصغر السجاد ، ابن الإمام الهمام ، عَلَم الإسلام ، عين أئمة الأعلام ، سبط الرسول عليه الصلاة والسلام ، الذي امتحن بأنواع البلا أمير المؤمنين مولانا أبي عبد الله الحسين الشهيد بكربلا ، ابن إمام الأئمة ، وأمير نحل هذه الأمّة ، سيد الأولياء ، وقائد أزمّة الأصفياء ، أمير المؤمنين مولانا الإمام علي ، رُزِقه من زوجته فاطمة سيدة نساء العالمين ، بنت سيد المخلوقين ، عليه أفضل صلوات رب العالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وسيدي الوالد حفظه الله تعالى لبس الخرقة من شيخه الولي العارف بالله أحد أعيان هذا البيت العامر مولانا السيد رجب الصيادي ، وهو تلقى سند الخرقة عن شيخه السيد أحمد الجندي الصيادي ، عن أبيه السيد مصطفى ، عن شيخه السيد عرفات الصيادي ، عن شيخه الولي الكبير المحترم السيد خير الله الصيادي صاحب العلم قدس سره .

وتشرفت أيضاً بلبس هذه الخرقة المباركة من شيخي ومولاي ابن عمنا السيد الشيخ الحاج علي أفندي ابن خير الله شيخ المشايخ بحلب ، وقد

لبس شيخي السيد علي أفندي المشار إليه الخرقة الرفاعية من والده الأستاذ السيد الشيخ خير الله ، وهو لبسها من شيخه ووالده السيد محمد ، وهو لبسها من حضرة والده الأستاذ الولي العارف بالله السيد الشيخ خير الله صاحب العلم ، الذي سبق ذكره المبارك في سند سيدنا الوالد حفظه الله تعالى ، وهو لبسها من شيخه ووالده السيد الشيخ أبي بكر وهو لبسها من شيخه وابن عمه السيد الشيخ محمد بن حجازي ، وهو لبسها من شيخه وابن عمه السيد الشيخ أبي بكر ، وهو لبسها من شيخه وجده السيد الشيخ موسى الكبير ، وهو لبسها من شيخه ووالده السيد الشيخ عمر ، وهو لبسها من شيخه ووالده السيد الشيخ عبد السميع ، وهو لبسها من شيخه ووالده السيد الشيخ شمس الدين محمد ، وهو لبسها من شيخه ووالده السيد الشيخ صدر الدين علي ، وهو صحب بها والده قطب الأقطاب ، ونجيب الأنجاب ، قدوة الأفراد ، وعلم الأوتاد ، القطب الجواد ، سيدنا وقدوتنا إلى الله السيد الشيخ أحمد المعروف بالصياد رضي الله تعالى عنه ، وهو صحب بها شيخه القطب المتمكن ، السيد الشيخ عبد المحسن ، وهو صحب بها شيخه وجده الحسيب النسيب ، صاحب العلوم المفيدة ، والكرامات العديدة ، أحد المتصرفين في الحياة والممات ، صاحب المناقب والكرامات الظاهرات ، مربي المريدين ، وقدوة المسلكين ، وسلطان الأولياء والعارفين ، الذي محى بإذن الله اسم مريده من ديوان الأشقياء ، وكتبه في ديوان السعداء ، موصل كل أعرج ، من ذلت له الأسود والأفاعي ، مولانا غوث الثقلين ، أبا العلمين ، الممتاز على الأولياء الأعلام بشرف تقبيل يد سيد الكونين ، السيد الشيخ أحمد

محيي الدين أبا العباس الحسيني الحسني الرفاعي رضي الله عنه ، ونفعنا ببركته .

وتشرفت بلبس هذه الخرقة المباركة الرفاعية أيضاً من يد شيخي وملاذي ، وقرّة عيني وَليّ الله ، العارف بالله ، المستأنس به المعرض عن الناس ، أبي البركات مولانا السيد محمد بهاء الدين مهدي الرواس ، الصيادي الرفاعي الحسيني رضي الله عنه ، وهو لبسها من السيد عبد الله الراوي قدس سره ، وهو لبسها من السيد أحمد الراوي الكبير ، وهو لبسها من السيد نور الدين حبيب الحديثي ، وهو لبسها من القطب الغوث السيد الشيخ سراج الدين البغدادي ، وهو لبسها من المرشد الأعظم الشيخ جمال الدين السليمي ، وهو لبسها من الشيخ قطب الدين الرفاعي ، وهو لبسها من الشيخ شمس الدين الصيادي ، وهو لبسها من أبيه الإمام الأجل صاحب القدر العلي ، شيخ الإسلام مولانا السيد صدر الدين علي ، وهو لبسها من أبيه القطب الغوث الفرد الجواد ، مولانا السيد عز الدين أحمد الصياد رضي الله عنه ، وهو لبسها من جده الغوث الرفاعي رضي الله عنه .

ولسيدنا السيد محمد مهدي الرواس قدس سره وصلة أخرى بالحضرة الرفاعية فإنه أخذ عن شيخه الإمام العارف بالله السيد عبد الله الراوي ، عن شيخه السيد أحمد الراوي ، عن شيخه السيد نور الدين حبيب الله الحديثي ، عن السيد حسين برهان الدين الخزامي الصيادي ، عن أخيه السيد نور الدين ، عن أبيه السيد عبد العلام الخزامي ، عن عمه إمام العارفين السيد سراج الدين ، عن جده السيد محمود الصوفي ، عن أبيه

السيد محمد برهان ، عن أبيه السيد حسن الغواص ، عن أبيه السيد الحاج محمد شاه ، عن أبيه مقتدى الرجال الأعلام السيد محمد خزام دفين (الموصل) ، عن عمه السيد ملك المندلاوي ، عن أبيه السيد محمود الأسمر ، عن أبيه السيد حسين العراقي ، عن ابن عمه السيد تاج الدين ، عن ابن عمه السيد عبد الرحمن شمس الدين ، عن جده السيد محمد خزام السليم ، عن أبيه السيد شمس الدين عبد الكريم أبي محمد الواسطي ، عن أبيه السيد صالح عبد الرزاق ، عن أبيه السيد شمس الدين محمد ، عن أبيه السيد صدر الدين علي ، عن أبيه قطب الأفراد السيد أحمد الصياد ، عن أخيه القطب المتمكن أبي الحسن عبد المحسن ، عن جده لاثم يد الرسول المكرم ، غوث العرب والعجم ، أبي العباس مولانا السيد أحمد الكبير الحسيني الرفاعي رضي الله عنه وعنهم أجمعين .

﴿ ترجمة الغوث الرفاعي الكبير ﴾
﴿ رضي الله عنه ﴾

وهنا نبذة تشير إلى جلالة قدر الغوث الرفاعي رضي الله تعالى عنه .

قال الإمام ، البحر الطام ، حُجة الله على الأنام ، الشيخ عبد الكريم بن محمد الرافعي ، مجتهد مذهب سيدنا الإمام الشافعي رضي الله عنهما في كتابه (سواد العينين) بعد أن ذكر نسبة سيدنا السيد أحمد الكبير رضي الله عنه : حدثني الشيخ الصالح محمد ابن الحسن البزاز عن الشيخ الورع أبي محمد القوصي ، قال : مرّ السيد أحمد الرفاعي بموكب من فقرائه في أرض البطائح فأنكرت حاله في سرّي ، فنمت ليلي وإذا بالنبي ﷺ وهو يثني على السيد أحمد الرفاعي ويقول : ولدي السيد أحمد

الرفاعي عَلَم الحقيقة ، يُرِي بحاله أكثر مما يربي بمقاله ، من أحبّه فقد أحبّني ومن آذاه فقد آذاني . فقمت مرعوباً وأتيته فلما رآني تبسم وقال : الرجل الكامل يُربي بحاله أكثر مما يربي بمقاله .

وقال أيضاً : وُلد رضي الله عنه سنة اثنتي عشرة وخمسمائة ، ونشأ في حجر خاله فأدّبه وهذّبه ، وتلقّى عن خاله الطريقة وعلم التصوف ، ولبس خرقته وأخذ عنه علوم الشريعة ، وتفقه على الشيخ أبي الفضل علي الواسطي المعروف بابن القاري ، وعن جماعة من أعيان الواسطيين ، منهم خاله الصوفي الجليل ، شيخ وقته سلطان العلماء والعارفين الشيخ أبو بكر الواسطي أخو الشيخ منصور ، وانتهت إليه الرياسة في علوم الشريعة وفنون القوم ، وخدمه الأئمة والفقهاء والملوك والخلفاء ، وانعقد عليه إجماع الطوائف ، وقال بتقدمه على جميع رجال عصره الموافق والمخالف ، وأطبق على علوّ قدمه ، ورفعة رتبته ، وكرم خُلقه ، وترقّيه عن منزلة القطبية الكبرى ، والغوثية العظمى جحاجحة الأرض المقدسة الحجاز والشام ، واعترف رجال وقته بالعجز عن درك منتهاه في السير ، وقال بذلك الخواص منهم والعوام .

وقال فيه الشيخ منصور : وزنته بجميع أصحابي وبي أيضاً فرجحنا جميعاً ، ويكفيك أن من أصحابه الشيخ حماد الدباس البغدادي أجلّ أشياخ الشيخ عبد القادر الجيلي ، والشيخ عثمان البطائحي ، والشيخ خميس ، والشيخ مكي الطستاني وأمثالهم وعدّ نفسه الزكية أيضاً ، ويعجبني ماقال فيه الفيروزابادي مفرداً :

أبا العلمين أنت الفرد لكن إذا حُسب الرجال فأنت حزب

* * *

حدثني الشيخ الإمام أبو شجاع الشافعي فيما رواه قائلاً : كان السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه عَلَمًا شامخاً ، وجبلاً راسخاً ، وعالماً جليلاً ، محدثاً فقيهاً ، مفسِّراً ذا روايات عاليات ، وإجازات رفيعات ، قارئاً مجوِّداً ، حافظاً مُجيداً ، حُجة رحلة ، متمكناً في الدين ، سهلاً على المسلمين ، صعباً على الضالين ، هيِّناً ليِّناً بشّاً ليِّنَ العريكة ، حسن الخلق ، كريم الخُلُق ، حلو المكالمة ، لطيف المعاشرة ، لايملّه جليسه ، ولاينصرف عن مجالسه إلّا لعبادة ، حمولاً للأذى ، وفيّاً إذا عاهد ، صبوراً على المكاره ، جواداً من غير إسراف ، متواضعاً من غير ذِلّة ، كاظمًا للغيظ من غير حقد ، أعلم أهل عصره بكتاب الله ، وسنّة رسوله ، وأعملهم بها ، بحراً من بحار الشرع ، سيفاً من سيوف الله ، وارثاً أخلاق جده رسول الله ﷺ .

وقال الإمام الرافعي أيضاً في كتابه المذكور : أخبرني شيخنا الإمام الحُجة القدوة عمر أبو حفص شهاب الدين السهروردي عن عمه الولي العارف شيخ الشيوخ أبي النجيب وعن شيخه الإمام الهمام ، البحر الطام محمد بن عبد البصري رضي الله عنهم قال : كل الأولياء أدركنا مقاماتهم وما وصلوا إليه وعرفنا منتهاهم في السير إلّا السيد أحمد الرفاعي فإنه لايعرف منتهاه في السير وإنما رجال عصرنا على الإطلاق يعرفون الوجهة التي اتجه إليها ، ومن ادّعى الوصول إلى مرتبته والاطّلاع على رتبته فكذِّبوه ؛ أي إخواني هذا رجل لايعرف ولايُحدّ ، هذا رجل انسلخ من علائق بشريته ، وعوائق نفسه كانسلاخ الثوب عن البدن ، والأولياء في عصرنا هذا كبارهم وصغارهم ، المشارقة والمغاربة ، الأعارب والأعاجم

عيال عليه ، يستمدون منه ، ويأخذون عنه ، وهو شيخ الكل في الكل ، يسح النوال من حُجرة جده عليه الصلاة والسلام على قلبه ، وهو يُقَسِّمه على الرجال في الأرضين ، ولايقطع مدده بإذن الله ، والدولة له ولذريته إلى يوم القيامة مع طيب نفس المحب ورغم أنف الحاسد ، يفعل الله مايشاء ، لا رادّ لأمره ، ولا مُنازع لحكمه .

قال لي شيخنا سند المحدِّثين عبد السميع الهاشمي الواسطي ببغداد ، وقد جرى ذكر السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه : أي عبد الكريم كان السيد أحمد آية من آيات الله ، ومعجزة من معجزات رسول الله ، يمشي على وجه الأرض ماوقعت الأبصار على نظيره في عصره ، قلَّ في السلف مثيله ، ولايوجد في الخلف عديله ، كان طريقه الكتاب والسُّنّة ، كان فعّالاً لا قوّالاً ، شربها وحكم عليها ، قهر حاله وغلب طوره ، كان إماماً عالماً عدلاً لو رأيته لرأيت كل السلف .

ليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالَم في واحد

* * *

رأيته يوماً وقد امتلأت أطراف (أمّ عَبيدة) من زائريه وهو يبكي ويقول :

حيَّرت فيك العُقَلا ... يا من لعقلي عقلا
كتمتُ فيك حالتي ... فضحتني بين الملا

* * *

وكنت مع الزوار في الحرم النبوي عام حجه الذي مُدّت له فيه يد النبي ﷺ ، وشاهدت اليد النبوية ببركته رضي الله عنه ، وكان فيمن

حضر الشيخ علي الهيتي الذي هو الآن بين أظهرنا ، والشيخ عدي بن مسافر ، والشيخ عبد القادر الجيلي ، والشيخ الزعفراني ، والشيخ عزاز ، وغير رجل فلما تحلى الله عليه بهذه الموهبة العظيمة ، والمنّة الكريمة ، وآن وقت انصراف جسمه من الحضور النبوي اضطجع بباب الحرم ، وأقسم على الناس أن يدوس كلهم عنقه ، فكانت العامة تتخطى عنقه المبارك والخاصة انصرفوا من أبواب أُخر ، وكنت لديه وهو يبكي ويقول : اللهم زدني تمكيناً وإيماناً ومعرفة بك وبنبيك ﷺ .

وأخبرنا شيخنا الإمام الحجة القدوة أبو الفرج عمر الفاروثي الواسطي قال : حج سيدنا وشيخنا السيد أحمد الرفاعي عام خمس وخمسين وخمسمائة ، فلما وصل المدينة وتشرف بزيارة جده عليه الصلاة والسلام وقف تجاه حُجرة النبي ﷺ ووقفنا خلف ظهره ، فقال : السلام عليك ياجدي . فقال له عليه أفضل صلوات الله : وعليك السلام ياولدي . فتواجد لهذه النعمة وقال منشداً :

في حالة البُعد روحي كنت أُرسلها	تقبّل الأرض عني فهي نائبتي
وهذه دولة الأشباح قد حضرت	فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

* * *

فمدَّ له رسول الله ﷺ يده الشريفة من قبره الكريم فقبلها في ملأ يقرب من تسعين ألف رجل والناس ينظرون يد النبي ﷺ ويسمعون كلامه ، وكان فيمن حضر الشيخ حيوة بن قيس الحراني ، والشيخ عبد القادر الجيلي ، والشيخ عدي الشامي ، وشاهدوا ذلك هم وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين .

ولايخفى أن منقبة مدّ يد النبي ﷺ لولده القطب الجليل الرفاعي رضي الله عنه بلغت بين المسلمين جيلاً بعد جيل مبلغ التواتر ، وسارت بذكرها الركبان ، وعطّر مسك خبرها القيعان ، ولذلك اكتفينا بالإشارة إليها بهذا المقدار ، ويحسُن أن نتبرّك بذكر قصيدة مَنَّ الله بنظمها على عبده الفقير تشير لهذه القصة ، وتشتمل على مدح الغوث الرفاعي رضي الله عنه وهي :

نور قرب في حالة البُعد أقبل ... فغشى موكب الإمام المبجّل
شيخنا السيد الكبير الرفاعي ... أعظم الصالحين حالاً وأفضل
لاثم الراحة الشريفة في مشـ ... ـهد مجد سما بأشرف مُرسَل
فرع ذاك الأصل الأصيل سليل الـ ... ـمنسب الطاهر الشريف المسلسل
ناصر السُّنة السنية شيخ الـ ... ـقوم أنداهمُ يميناً وأطول
صاحب الهمة التي قام منها ... فوق عرش الكمال للفضل هيكل
فلك الفخر بهجة الدهر معنى ... دولة الأولياء في كل محفل
ذلّ في ساحة الدلال كمالاً ... وعجيب مُدلّل يتذلّل
حلّ من حضرة التمكن رحباً ... عزّ أن ينتهي إليه مُكمِّل
فلهذا أضحى إمام البرايا ... وعليه في العارفين المعوّل
جبل راسخ أبان سلوكاً ... عن طريق الرسول لايتحوّل
شرف حطّ عن مداه السواري ... وفخار نصوصه البيض تُنقل
ليت شعري وهل تساعد ليت ... وأراني برحبه أتململ ؟
ذاك غاب فيه توسّد ليث ... من عليٍّ ليث الإله تنسّل
عَلَم الشرق قطب دائرة الصد ... ق منبع الحمى الإمام المفضل

باب وصل بفضله لأبيه | سيد الأنبيا الأولى يُتوصّل
ويعالي عرفانه في المهمّا | ت إلى الله ربنا يُتوسّل
وجدير بمن يرضاه ضراعاً | أن يرى النجح في الأمور ويُقبل
رضي الله عنه ما افترّ ثغر الـ | ـروض لطفاً في ساحة رشّها الطل

* * *

قال مولانا العلّامة الإمام سلطان المحدّثين وليّ الله الشيخ عز الدين أحمد الفاروثي الواسطي قدس سره في كتابه (النفحة المسكية) : وقد طاب لي أن أذكر شيئاً قليلاً من علوّ مرتبة ولاية السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه ، وما منّ الله به عليه من سمو المنزلة ، وعظيم الرفعة التي قدّمته على أولياء الله الكبار ، العبيد منهم والأحرار ، منه مانقله لنا الوليّ الشامخ الأركان الشيخ عبد الرحمن ابن الشيخ يعقوب بن كراز عليهم الرضوان ، راوياً عن أبيه الوليّ المحبوب ، الشيخ يعقوب أنه قال : حدّثني سيدي الشيخ بدر ابن بنت شيخنا القطب الصمداني ، الشيخ منصور البطائحي الرباني قال : كان سيدي الشيخ منصور في بعض الأيام جالساً يحدّث الناس فلما قضى المجلس وانصرف الناس وبقي سيدي وأنا ولم يكن معنا ثالث ، فخطر في سري خاطر فقلت : أشتهي التعرّى وألصق جسمي لجسم سيدي حتى لاتمسني النار ، قال : فلم يتم خاطري حتى ناداني أي بدر تعرَّ وتعال ، قال ففرحت بذلك وانشرح صدري لبلوغ ماضمرت له ، ثم إني خلعت ثيابي وجئت إليه فلما قربت منه وأردت أن أحتضنه صرخ صرخة عظيمة ولطمني فأرماني على وجهي ووقع هو على الأرض وبقيت أنا ملقياً زماناً ، فلما أفقت رأيت سيدي الشيخ منصور ملقياً على

الأرض وهو يخور كما تخور الدابة ، فبقي كذلك ماشاء الله تعالى وسمعته يقول في غشوته نعم نعم ويكررها مراراً ، فلما أفاق ناداني : أي بدر تعال . فجئت إليه وأنا أبكي فقال لي : مايبكيك أي بدر . فقلت له : كيف لا أبكي وقد جئت إليك فلطمتني ورميتني ، فقال : ياولدي لما قلت لك تعرّ غارت الربوبية وخرج لك سهم القدرة فدفعتك عنه وأخذته عنك بنفسي ثم إني حضنته . وقلت له : أي سيدي سمعتك تقول في غشيتك نعم نعم . فقال لي : نعم ياولدي أسمعتني قلت نعم ؟ فقال لي : أما تعرف السيد أحمد ابن أختي الذي يجيء إلينا في كل سنة ؟ وجعل يصفه لي . فقلت له بلى . فقال : بينما أنا في الموضع الذي وصلت إليه وإذا به قد جازني وصعد إلى مكان لا أعرفه ولا أدري عنه ولا وصلته ولا أعلم إلى أين وصل ، فلما رأيته أخذتني الغَيرة منه ، فأخذني النداء : أي منصور تأدب هذا السيد أحمد حبيبنا نظهره على غوامض غيوبنا ، أي منصور هذا السيد أحمد نائب الدولة المحمدية ، وعروس المملكة المصطفوية ، وشيخ جميع الأمّة الأحمدية ، وشيخك فقل نعم . قلت : نعم نعم ، فقال : نحن نتصرف بملكنا كما نشاء . فقلت : نعم نعم ، ثم إني حملت الغاشية بين يديه ، وأخذت العهد على يديه ، فأنا شيخه بالخرقة وهو شيخي بالخُلق والخلقة .

وبالسند الصحيح إلى شيخنا الشيخ منصور البطائحي الرباني رضي الله عنه : أنه رأى رسول الله ﷺ وهو يقول له : يامنصور أبشّرك أن الله تعالى يعطي إلى أختك بعد أربعين يوماً ولداً يكون اسمه أحمد الرفاعي مثلما أنا رأس الأنبياء كذلك هو رأس الأولياء ، وحين يكبر فخذه إلى الشيخ علي

القاري الواسطي وأعطه له كي يربيه لأن ذلك الرجل عزيز عند الله ولاتغفل عنه . قال فقلت له الأمر أمركم يارسول الله عليك الصلاة والسلام ، وكان الأمر كما ذكر رسول الله ﷺ .

وقد بشّر به قبل ولادته بسنين أكابر الأولياء ، وانتظر ظهوره أماجد الأصفياء ، وأمروا إخوانهم إذا رأوه وصاروا في زمانه أن يعرفوا حق حرمته ، وعظيم منزلته ، وقالوا : إنه صاحب الوقت والزمان والدولة له ولذريته إلى يوم القيامة ، وقالوا : إنه متى ظهر يغلق أبواب الصالحين ، ويصير الوقت له ولأهله ، وتحكّمه وتصرّفه يصل إلى مرتبة عظيمة ، يضرب داغه على جبهات الذراري في أصلاب الآباء ، وسيسلك طريقاً لم يسلكها أحد قبله ولا بعده ، وهي طريق الذلّ والانكسار ، والمسكنة والافتقار ، والخضوع والحيرة ، ولم يكن في الطُرق إلى الله أعظم وأصعب منها .

وممن بشّر به بالأسانيد الصحيحة الثابتة الشيخ الكبير تاج العارفين أبو الوفا ، والشيخ أحمد كنز العارفين الزاهد ، والشيخ نصر الهماماتي ، والشيخ أحمد بن خميس ، والشيخ أبو بكر النجاري الأنصاري ، والشيخ منصور الرباني البطائحي وغيرهم رضي الله عنهم والذين عددتهم لك من عرفتهم غصّت بفضائلهم الأوراق ، وانتشر صيتهم في الآفاق ، وقال جمّ من أهل الولاية بعلوّ مرتبته عن الغوثية والسلطنة ، وأن له عند الله منزلة لايعرفها أحد من رجال عصره ، وأنه كان في حضرة الحبيب .

وقال القطب الرباني الشيخ عبد القادر الجيلاني ، والشيخ اليعقوبي

وغيرهما من رجال وقته في شأنه : إنه رجل لايعرف ولايُحد ، ولايصل إلى مرتبته أحد .

﴿ أخلاقه ومزاياه المحمدية التي كان عليها ﴾
﴿ ودعى الناس بلسان حاله ومقاله إليها ﴾

وأما أخلاقه ، فقد وافقتها أعراقه ، طاب أصلاً وخَلقاً ، وحالاً وخُلُقاً ، كان خُلُقه السُّنة المحمدية ، ومشربه الحالة النبوية ، لم يُعهد ولم يُسمع في طبقات القوم من بعد الصحابة وأئمة الآل ـ رضي الله عنهم ـ عن أحد من الرجال أنه بلغ مابلغه ـ قدست أسراره ـ من الصفا والزهد والصدق والتواضع والانكسار ، والحيرة والافتقار ، أتى بكل أخلاق أهل عصره وعباداتهم ، ولم يأت كلهم بكل أخلاقه وعباداته ، وجاء بكل كراماتهم ومناقبهم ، ولم يجيء كلهم بكل كراماته ومناقبه ، فالحمد لله الذي مَنَّ علينا باتِّباعه ، وجعلنا من أتباعه ؛

قال السيد عبد الرحيم صاحب الشباك : وُلد السيد أحمد ـ قدس سره ـ في أوائل رجب ، فكان يشرب اللبن إلى أن قدم رمضان ، فتقيّد عن شرب اللبن نهاراً إلى أن جاء العيد فشرب اللبن . انتهى .

كان رضي الله عنه أعطف أولياء عصره قلباً ، وأكرمهم طبعاً ، وأجملهم منظراً . قال صاحب (النجم الساعي) حين ذكر شكله وشمائله : كان السيد أحمد الرفاعي عالماً حكيمًا متورعاً متواضعاً قانعاً ، قاطعاً عمره في الرياضة ، أسمر اللون ، متوسط القد ، نيِّر الوجه ، شعره أسود ، وفي صدره شعر أسود ، كريم الخلق ، صاحب أسرار خارقة ، ومواجد وأحوال ، ملازماً قراءة القرآن ، كثير المحبة والشوق لله ، وفقراؤه ومريدوه

موازينهم أرجح موازين الفقرا ، ولاتنقطع فقراؤه ومريدوه إلى يوم القيامة بإذن الله تعالى . انتهى .

وُلد رضي الله عنه بقرية (حسن) من أعمال واسط البصرة المعروفة بـ (أمّ عَبيدة) في عام وفاة خليفة بغداد أحمد المستظهر بالله العباسي ، وعاش إلى أوائل خلافة أحمد الناصر لدين الله ، وأيامه مضت على الغالب حال شهرته العظيمة في أيام خلافة المستنجد بالله والمستضيء بأمر الله العادلين المشهورين ، ودفن بـ (أمّ عَبيدة) بقبته الشهيرة مع جده لأمه الشيخ الوليّ العارف الشيخ يحيى النجاري الأنصاري قدس سرهما .

قال الشيخ الشعراني ـ قدس سره ـ : كان السيد أحمد الرفاعي ـ رضي الله عنه ـ على جانب عظيم من حُسن الخُلق ، وكان يُضرب به المثل في تحمّل الأذى والعفو والصفح والشفقة على خلق الله .

وقال أيضاً في كتابه المنن ماملخصه : إن المشايخ اتفقوا أن أكبرهم قدراً السيد أحمد الرفاعي ، كان قطب الأقطاب في الأرض ثم صار قطب الأقطاب في السماوات ، ثم صارت السماوات السبع كالخلخال في رجله ، ثم لاعلم لنا بعد ذلك إلى أين وصل ، ثم قال : كلما حصل لسيدنا أحمد من علوّ القدر والمنزلة حصل بذلة نفسه وصبره وتواضعه رضي الله عنه .

قال الشعراني : كان السيد أحمد الرفاعي شافعي المذهب ، قرأ كتاب التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي في المذهب ، وتفنن في العلوم ، وكشف مشكلات القوم ، وانتهت إليه الرياسة في علومهم .

وقال بيضة عش الولاية الأحمدية سيدي عبد الرحيم بن عثمان : ما أرى في العصر الذي كان فيه سيدي أحمد الرفاعي ـ رضي الله عنه ـ رجلاً

أفقه وأعلم وأحلم وأسخى وأنفع للمخلوقين منه ، كان عطوفاً على الملهوفين ، شفوقاً على المحتاجين ، صبوراً على أذيّة الخلق ، رحب الصدر ، متمسكاً بسنّة رسول الله ﷺ متخلّقاً بأخلاقه عليه السلام ، وكانت حلقة وعظه في صحن رواقه كل يوم تزيد عن خمسة آلاف رجل ، حتى إن الأصم والأطروش يسمع كلامه في مجلسه ويحفظه حرفاً حرفاً بإذن الله ، وكان أهل القرى التي حول (أُمّ عَبيدة) من الجهات الأربع يجتمعون على أسطحة بيوتهم وقت مجلسه فيسمعون كلامه كالحاضرين في رواقه الشريف . وكان يقول رضي الله عنه : أنا من قوم تعلّموا وعلّموا ، وعملوا بما علموا ، فوصلوا وأوصلوا . قال صاحب (أُمّ البراهين) : كان السيد أحمد الرفاعي ينفع الناس بيده ولسانه وماله ومقاله وأفعاله واحتماله .

قال صاحب (جلاء الصدا) مولانا أحمد بن جلال ـ قدس سره ـ : كان السيد أحمد الرفاعي يسكت حتى يقال إنه لايتكلم ، فإذا تكلم بلّ بعذوبة كلامه الغليل ، وداوى العليل ، ترك نفسه وتواضع للناس من غير حاجة ، وكظم غيظه من غير ضجر ، وكان ليّن العريكة ، هينُ المؤنة ، سهل الخُلق ، كريم النفس ، حسن المعاشرة ، بساماً من غير ضحك ، محزوناً من غير عبوس ، متواضعاً من غير ذِلّة ، جواداً من غير إسراف ، اجتَمَعَت فيه مكارم الأخلاق ، كان فقيهاً عالماً قارئاً مُجوِّداً مُحدِّثاً ، وله إجازات وروايات عاليات ، إذا تكلّم أجاد ، وإذا سكت أفاد ، يأمر بالمعروف لأهله ، وينهى عن المنكر وفعله ، كان كهف الحرائر وملجأ المحتاجين ، وكعبة القاصدين ، أباً للأرامل والأيتام ، يعطي من غير

سؤال ، ويمنح من غير إهمال ، إذا قال قولاً أتبعه بصحة الفعل ، وصدق القول ولم يخالف قوله فعله قط .

﴿ كلامه لروح كل ابن ذوق غذاء ﴾
﴿ وكذا حبه يجده في الماء والهواء ﴾

ومن حِكَمه وكلامه قوله رضي الله عنه : الأدب سُنّة الفقراء وزينة الأغنياء . وقال رضي الله عنه : من لجَّ وجدَّ ، ولَجَ ووجد . وقال : خير الناس من ينفع الناس . وقال : ليست النائحة الثكلى مثل النائحة المستأجرة . وقال : العاقل لايشكو إلى قاضٍ ولا إلى سلطان . وقال ـ قدس سره ـ لأصحابه : من اشتغل بالعلم كان له معنا أوفر سهم . وقال رضي الله عنه : أبناء الدنيا إن أكرمتهم أهانوك ، وإن أحببتهم أبغضوك ، وإن مازحتهم لايهابوك ، وإن غبت عنهم اغتابوك ، وفي كل حال يعيبوك ، لأنهم لم يروا حبك لهم والسلام عليهم والتودد لهم والتردد على أبوابهم والترحب بهم إلاّ لأجل دنياهم وأنك محتاج إلى عزهم فعزّ نفسك عنهم وعن صحبتهم .

وقال : الفتوّة الصفح عن عثرات الإخوان ، وأن لاترى لنفسك فضلاً على غيرك .

وقال : الصديق الذي تسكن النفس إليه ، ويستريح القلب فيه .

وقال : العاقل يُقدِّم بين يدي كل عمل ، لِمَ ، ولمن ، فإن كان لله أمضاه ، وإن كان لغيره تركه وأبقاه .

وقال : إن ذرّية الأولياء منظور إليها بعين الرحمة في الغالب ، وذرية الظالمين منظور إليها بعين السخط في الغالب .

وقال : أقدر أن أرضي كل عدو إلاّ حاسد نعمة الله فإنه لايرضى إلاّ بزوالها .

وقـال : لاتعتبروا المسلم إلاّ بالإنصاف في المعاملة والبيع والشرى ، والأخذ والعطا فمتى أنصف فهو مسلم .

وقال : الفقير إذا انتصر لنفســه تعب ، وإذا سلّم الأمر لمولاه نصره من غير عشيرة ولا أهل .

وقال : علامة الفقير الصادق جمع الهمة ، وغض الطرف ، وسكون الجوارح .

وقال : ليس التصوف أحبوني وأكرموني ولازموني .

وقال : ماوقف على باب أحد من أهل الدنيا كامل المعرفة .

وقال : من ملكته نفسه ذلّ ، ومن ملكها ساد .

وقال : من لم يرفع قضيته إلى الله عز وجل عجز وضلّ عن الطريق .

وقال : الأنس بالخلق انقطاع عن الحق .

وقال : السعيد لايهمل وقته .

وقال : الرجل يخزن لسانه عن النطق ، ولايطلقه في غير حقه ، إذا نطق ينطق بعلم ، وإذا صمت يصمت بحلم ، لايعجل بالجواب ، ولايهجم على الخطاب ، وإذا رأى من هو أعلم منه أنصت لاستماع الفائدة ، يحذر من الخطأ ، ويحترز من الغلط والزلل ، لايتكلم فيما لايعلم ، ولايناظر فيما لايفهم .

وقال : من أراد صديقاً بلا حيف بقي زمانه بلا صديق .

وقال لسبطه سيدنا السيد إبراهيم الأعزب ـ قدس سره ـ : يا إبراهيم دارَ هذا اللاّش جدّك جميع الطُّرُق فلم يرَ أقرب وأوضح وأيسر وأصلح من طريق الذل والانكسار ، والحيرة والافتقار ، أي إبراهيم إذا أرادك لأمر هيّأك له ، وهيّأه لك .

هذا ما أوردناه هنا من كلماته الجوهرية على سبيل البركة بالاختصار ، وإلاّ فكتب القوم طافحة بكلماته نفعنا الله ببركاتهم وبركاته آمين .

﴿ بعض مؤلفاته ومجالس وعظه العظيمة ﴾

﴿ وثناء العلماء عليها والعارفين ذوي المكانة والقيمة ﴾

وقد جمع كلماته الحِكَمية مولانا الشيخ عبد المعظَّم بن عبد القوي بن أحمد المنذري في كتاب سمّاه (المجالس الأحمدية) أورد فيه ماقاله سيدنا السيد أحمد الكبير رضي الله عنه في كل مجلس على الغالب بعينه ، ومن مؤلفات مولانا السيد أحمد رضي الله عنه (البهجة) في التصوف ، و(الطريق إلى الله) في التصوف ، و(معاني بسم الله الرحمن الرحيم) في التفسير على طريقة القوم ، وتفسير سورة القدر ، و(شرح التنبيه) في الفقه الشافعي ، وكتاب (البرهان المؤيد) وكتاب (الحِكَم) وإن هذين الكتابين يشتمل موضوعهما على الحكم الشرعية والتصوفية ، والرواية في الحديث ، والمجالس في الوعظ وغيرها من العلوم العالية ، والفنون الباهرة الزاهية ، ومن أجلِّ كتبه المباركة كتاب (البرهان المؤيد) الذي سبق ذكره ، فإنه كتاب كريم ، سلك بأهله الصراط المستقيم ، وقد أثنى عليه العلماء العارفون ، والمشايخ الصالحون ؛ ويعجبني ماقاله في شأنه سيدنا شيخ الإسلام السيد سراج الدين الرفاعي المخزومي رضي الله عنه وهو :

إنّ الرفاعي جدير بأن ... يتوج بالألماس برهانه
آياته أعجز عن دركها ... في ساحة العرفان أقرانه

* * *

وقال أيضاً :

لعمرك برهان الرفاعيّ سيفه ... لأعناق أصحاب الضلالة قاطع
مرصّعة آياته بجواهر ... حقائقها منها البدور الطوالع

* * *

وقال سيدنا الإمام عبد الكريم الرافعي الشافعي رضي الله عنه في كتابه ﴿ سواد العينين ﴾ عند ذكر كتاب الـ ﴿ برهان المؤيد ﴾ مُؤلَّف سيدنا الغوث الرفاعي رضي الله عنه : هو الكتاب الجليل ، الذي عزّ شأن سبكه عن المثيل ، الذي جمعه من مجالس وعظه ودوّنه شيخ الإسلام شرف الدين ابن الشيخ عبد السميع الهاشمي العباسي الواسطي نفعنا الله بهم أجمعين ؛

قال لي شيخنا القوصي : ما قُرأ هذا الكتاب يعني ﴿ البرهان المؤيّد ﴾ على أهل مجلس إلاّ وظهرت لهم نفحات العرفان والإخلاص ، والتمكن والوقوف عند الحدود المرضية الشرعية . قلت : وقد أتى سيدنا السيد أحمد بهذا الكتاب بالعجب العجاب ، فما أبقى حقيقة إلاّ وكشفها بحِكَم كلماته ، ولا ترك وصلة مقدّسة إلاّ ودلّ عليها بإشاراته ، وسيأتي - إن شاء الله تعالى - بالمناسبات ذِكر بعض مقولاته الجليلة ، أمدّنا الله بإمداداته الجزيلة آمين .

وحيث أن القصد ذكر نبذة يسيرة تشير إلى جلالة قدره، وعلو مكانة

أمره ، فلذلك اكتفينا بهذا المقدار ، على أن منزلته الجليلة أعمّ نوراً من الشمس في رابعة النهار ، أفاض الله علينا من بركاته ، وغمرنا والمسلمين ببره ونفحاته آمين .

ويلذّ أن نختم هذا الباب بهذه القصيدة الفريدة التي امتدح بها الغوث المشار إليه مولانا شيخ الإسلام السيد سراج الدين المخزومي الرفاعي البغدادي ـ رضي الله عنهما ـ فإنها أوضحت نزراً يسيراً من مناقب الممدوح وأحواله ، وأشارت إلى ما منّ الله به عليه من مواهبه وجزيل نعمه وأفضاله ، وهي :

طابت بحضرة ذكرك الوثبات ... وبها لحزبك صولة وثبات
وظلال بابك يا رفاعيّ العُلا ... سرح به تتنزل البركات
ولك اليد البيضا التي كشفت لنا ... ستراً لديه تُسكب العبرات
وأخذت من لُب الشريعة منهجاً ... قصرت لعمرك بعده الخطوات
أرضيت فيه الله جلّ جلاله ... ونصرت ما جاءت به الآيات
ومضيت مقتفياً لإثر محمد ﷺ ... طوعاً لك الحركات والسكنات
فنظرت منه بنظرة جذابة ... خُرقت بها لك في الملا العادات
وسرى بمتّبعيك نافذ سرها ... تركته في أحيائها الأموات
نور أراد الحق أن تحبى به ... رغماً لمن فتكت به الظلمات
أوضحت ياشيخ الوجود طريقة ... سُدّت بغير سلوكها الطرقات
ونشرت فيها راية علويّة ... خضعت لرفعة قدرها الهامات
وجعلت متن الانكسار مطيّة ... حُزمت بخُلّق ما لديه هنات
وسبقت كل العارفين بهمة ... فُتحت لواقد عزمها الحضرات

وأكلت مائـدة القبـول بخشعة ... ولكم أجـاعت غيرك الشطحاتُ
يا صاحب العلمين يا غوث الورى ... طِبْ إنّ رمسك عمه الرحماتُ
هذا جزاء الـصـابـرين كما أتى ... والقـوم يا ابن المصطفى درجاتُ
أتـقـنـت نهج الأتـبـاع لأحـمـد ... في المشربـين ومـا عَراك شتـاتُ
ولنـا الأدلّـة في ثنـاء طباعك الـ ... ـسمحـاء والأحـوال والكلماتُ
ولأنـت معـجـزة لجدك محضـة ... وضّـاحـة ما شابهـا الشبهـاتُ
ثبتت منـاقبـك الـرجاح تواتـراً ... لزمـانـنـا وبـنـفيهـا الإثبـاتُ
خُرس بها أهـل الجحـود لأنها ... فوق البـداهـة عنـدهـا مرقـاةُ
ذلّت لسطْوَتـك الأُسود وما رأت ... أن تحمهـا من بأسـك الغـابـاتُ
ربضت على أعتـاب عزّك ذِلّـة ... وكـذلـك الأنـهار والحـيّاتُ
والنـار تخمـد والسلاح مُعطّل ... لما بـنـديـك تكثـر الضجّـاتُ
الله أكـبر إنها خصـائص ... بيد النـبي بها حبتـك الـذاتُ
شكراً لمولانـا الـذي أهـدى إلى ... تصـديق من تُمحى به الـزلاّتُ
وإلى طريقتـك الـتي هي بابـه ... وعـليه عطّر قبره الـصـلواتُ
والآل والأصحـاب والقوم الأُولى ... وعـليك مـا هبّت بنـا النسماتُ

* * *

الباب الثالث

« في سبب إطلاق اسم الصوفية ، على هذه العصابة المرضية »

قال سيدنا الغوث الأكبر ، والعَلَم الأشهر ، مولانا السيد أحمد الرفاعي ـ رضي الله عنه ـ في كتابه (البرهان المؤيد) مانصه : التصوف الإعراض عن غير الله ، وعدم شغل الفكر بذات الله ، والتوكل على الله ، وإلقاء زمام الحال في باب التفويض ، وانتظار فتح باب الكرم ، والاعتماد على فضل الله ، والخوف من الله في كل الأوقات ، وحُسن الظن به في جميع الحالات . وقال ـ رضي الله عنه ـ في محل آخر من الكتاب المذكور : أي سادة الفقير على الطريق مادام على السُّنَّة ، ومتى حاد عنها زلَّ عن الطريق ؛ قيل لهذه الطائفة الصوفية واختلف الناس في سبب التسمية وسببها غريب لايعرفه الكثير من الفقراء ، وهو أن جماعة من مُضر يقال لهم بنوا الصوفة وهو الغوث بن مر ، بن أد ، بن طابخة الربيط كانت أُمّه لايعيش لها ولد ، فنذرت إن عاش لها ولد لتربطن برأسه ، وتجعله ربيط الكعبة ، وقد كانوا يجيزون الحاج إلى أن مَنَّ الله بظهور الإسلام فأسلموا وكانوا عُبَاداً ؛ ونقل عن بعضهم حديث رسول الله ﷺ فمن صحبهم أو تعبَّد ولبس الصوف مثلهم ينسبونه إليهم فيقال صوفي ، ونَوَّع الفقراء الأسباب ، فمنهم من قال : التصوف الصفاء . ومنهم من قال : المصافاة . وغير ذلك ، وكله صحيح من حيث معناه لأن أهل هذه الخرقة

التزموا الصفاء والمصافاة وعملوا بالآداب الظاهرة ، وقالوا : إنها تدل على الآداب الباطنة ، وقالوا : أحسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن ، وقال : من لم يعرف أدب الظاهر لايؤتمن على أدب الباطن ، كل الآداب منحصرة في متابعة النبي ﷺ قولاً وفعلاً وحالاً وخُلقاً ، فالصوفي آدابه تدل على مقامه ، زنوا أقواله وأفعاله وأحواله وأخلاقه بميزان الشرع يُعْلَم لديكم ثقل ميزانه وخفته ، خُلُق النبي القرآن قال تعالى : ﴿ مافرّطنا في الكتاب من شيء ﴾ من الْتزم الآداب الظاهرة دخل في جنسية القوم وحسب في أعدادهم ، ومن لم يلتزم الآداب الظاهرة فهو فيهم غير لايلتبس حاله عليهم ، لأن استعمال الآداب دليل الجنسية بل تكون علّة الضم .

قال رويم : التصوف كله أدب ، وهذا الأدب الذي أشار إليه الطائفة أدب الشرع ، كن متشرعاً ودع حاسدك يكذب عليك ، وينسب مايحب إليك .

ولست أبالي في زماني بريبة ... إذا كنت عند الله غير مريب
إذا كان سرّي عند ربي منزّهاً ... فما ضرّني واشٍ أتى بغريب

* * *

وذكر صاحب (أم البراهين) أن سيدنا السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه كان يقول :

ليس التصوف بالخرق ... من قال هذا ماصدق
إن التصوف يافتى ... خُرق يُمازجها قلق

* * *

وقد شطّرتها تشبثاً بأذياله ـ قدس الله سره ـ فقلت :

(ليس التصوف بالخرق) أو بالتوهم والعلق
أو بالتعالي والجفا (من قال هذا ماصدق)
(إن التصوف يافتى) سرٌ على القلب اتسق
ويشع من مكنونه (خُرَق يُمازجها قلق)

* * *

وأنشد بعضهم :

تنازع الناس في الصوفيّ واختلفوا فيه وظنّوه مُشتقاً من الصوف
ولست أمنح هذا الإسم غير فتى صاق وصُوفي حتى سُمّيَ الصوفي

* * *

وقد عقد الشيخ العارف بالله شهاب الدين السهروردي باباً في ذكر تسمية الصوفية بهذا الإسم في كتابه (عوارف المعارف) قال فيه : أخبر الشيخ أبو زرعة طاهر بن محمد بن طاهر ، قال: أخبرني والدي ، قال: أخبرنا أبو علي الشافعي بـ (مكة) ـ حرسها الله تعالى ـ قال : أخبرنا أحمد بن إبراهيم ، قال : أخبرنا أبو جعفر محمد بن إبراهيم ، قال: أخبرنا أبو عبد الله المخزومي ، قال : حدَّثنا سفيان عن مسلم أنه سمع أنس بن مالك يقول : كان رسول الله ﷺ « يجيب دعوة العبد ويركب الحمار ويلبس الصوف » فمن هذا الوجه ذهب قوم إلى أنهم سُمّوا صوفية نسبة لهم إلى ظاهر اللبسة ، لأنهم اختاروا لبس الصوف لكونه أرفق ، ولكونه كان لباس الأنبياء عليهم السلام ، ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « مرَّ بالصخرة من الروحاء

سبعون نبياً حفاة عليهم العباء يؤمون البيت الحرام » وقيل : إن عيسى عليه السلام كان يلبس الصوف والشعر ويأكل من الشجر ويبيت حيث أمسى . وقال الحسن البصري : لقد أدركت سبعين بدرياً كان لباسهم الصوف ، ووصفهم أبو هريرة وفضالة بن عبيد قالا : كانوا يخرّون من الجوع حتى تحسبهم الأعراب مجانين ، وكان لباسهم الصوف حتى إن بعضهم كان يعرق في ثوبه فيوجد منه رائحة الضأن إذا أصابه الغيث ، وقـال بعضهم : إنـه ليؤذيني ريح هؤلاء أما يؤذيك ريحهم ؟ يخاطب رسول الله ﷺ بذلك ، فكان اختيارهم للبس الصوف لتركهم زينة الدنيا وقناعتهم بسدّ الجوعة وستر العورة ، واستغراقهم في أمر الآخرة ، فلم يتفرّغوا لملاذّ النفوس وراحاتها لشدة شغلهم بخدمة مولاهم وانصراف همّهم إلى أمر الآخرة ، وهذا الاختيار يلايم ويناسب من حيث الاشتقاق لأنه يقال تصوّف إذا لبس الصوف كما يقال تقمص إذا لبس القميص ، ولما كان حالهم بين سير وطير لتقلبهم في الأحوال وارتقائهم من عال إلى أعلى منه ، لايقيّدهم وصف ، ولايحبسهم نعت ، أبواب المزيد علماً وحالاً عليهم مفتوحة ، بواطنهم معدن الحقائق ومجمع العلوم ، فلما تعذّر تقييدهم بحال لتنوّع وجدانهم ، وتجنّس مزيدهم نُسبوا إلى ظاهر اللبسة ، فكان ذلك أبين في الإشارة إليهم ، وأدعا إلى حصر وصفهم لأن لبس الصوف كان غالباً على المتقدمين من سلفهم ، وأيضاً لأن حالهم حال المقربين كما سبق ذكره ، ولما كان أن الاعتزاء إلى القرب وعظم الإشارة إلى قرب الله تعالى أمر صلف يعز كشفه والإشارة إليه ، وقعت الإشارة إلى زيّهم ستراً لحالهم ، وغيرة على عزيز مقامهم أن تكثر الإشارة إليه وتتداوله الألسنة فكان هذا أقرب إلى الأدب ، والأدب في الظاهر والباطن والقول

والفعل عماد أمر الصوفية ، وفيه معنى آخر وهو أن نسبتهم إلى اللبسة تنبىء عن تقلّلهم من الدنيا ، وزهدهم فيما تدعو النفس إليه بالهوى من الملبوس الناعم ، حتى المبتدي المريد الذي يؤثر طريقهم ، ويحب الدخول في أمرهم ، يوطّن نفسه على التقشف والتقلّل ، ويعلم أن المأكول أيضاً من جنس الملبوس فيدخل في طريقهم على بصيرة ، وهذا أمر مفهوم معلوم عند المبتدي ، والإشارة إلى شيء من حالهم وتسميتهم بذلك أبعد من فهم أرباب البدايات ، فكان تسميتهم بذلك أنفع وأوْلى ، وأيضاً غير هذا المعنى مما يقال انهم سمّوا صوفية لذلك يتضمّن دعوى ، وإذا قيل سُمّوا صوفية للبسهم الصوف كان أبعد من الدعوى ، وكل ماكان أبعد من الدعوى كان أليق بحالهم ، وأيضاً لأن لبس الصوف حكم ظاهر على الظاهر من أمرهم ، ونسبتهم إلى أمر آخر من حال أو مقام أمر باطن ، والحكم بالظاهر أوفق وأوْلى ، فالقول بأنهم سُمّوا صوفية للبسهم الصوف أليق وأقرب إلى التواضع ، ويقرب أن يقال لما آثروا الذبول والخمول والتواضع والانكسار والتخفي والتواري كانوا كالخرقة الملقاة والصوفة المرمية التي لايرغب فيها ولايلتفت إليها ، فيقال صوفي نسبة إلى الصوفة كما يقال كوفي نسبة إلى الكوفة وهذا ذكره بعض أهل العلم ، والمعنى المقصود به قريب ويلايم الاشتقاق ، ولم يزل لبس الصوف اختيار الصالحين ، والزهّاد والعُبّاد والمتقشفين .

أخبرنا أبو زرعة طاهر عن أبيه ، قال: أخبرنا عبد الرزاق بن عبد الكريم ، قال: أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد ، قال: حدّثنا أبو علي إسماعيل بن محمد ، قال: حدّثنا الحسن بن عرفة ، قال: حدّثنا

خلف بن خليفة عن حميد الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يوم كلّم الله تعالى موسى عليه السلام كان عليه جبة صوف وسراويل من صوف وكساء من صوف وكمة من صوف ونعلاه من جلد حمار غير ذكيّ » وقيل: سُمّوا صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل بارتفاع هممهم وإقبالهم على الله بقلوبهم ووقوفهم بسرائرهم بين يديه ، وقيل: كان هذا الاسم في الأصل صفوي فاستثقل ذلك وجعل صوفياً ، وقيل: سُمّوا صوفية نسبة إلى الصُفة التي كانت لفقراء المهاجرين على عهد رسول الله ﷺ ، قال الله تعالى فيهم : ﴿ للفقراء الذين أُحصروا في سبيل الله لايستطيعون ضرباً في الأرض ﴾ الآية وهذا وإن كان لايستقيم من حيث الاشتقاق اللغوي ، ولكن صحيح من حيث المعنى لأن الصوفية يشاكل حالهم حال أولئك لكونهم مجتمعين متألفين مصاحبين لله وفي الله كأصحاب الصفة ، وكانوا نحواً من أربعماية رجل لم تكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشاير جمعوا أنفسهم في المسجد كاجتماع الصوفية قديماً وحديثاً في الزوايا والرُبط ، وكانوا لايرجعون إلى زرع ولا إلى ضرع ولا إلى تجارة ، كانوا يحتطبون ويرضخون النوى بالنهار وبالليل يشتغلون بالعبادة وتعلُم القرآن وتلاوته ، وكان رسول الله ﷺ يواسيهم ويحث الناس على مواساتهم ، ويجلس معهم ويأكل معهم ، وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ وقوله تعالى : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ ونزل في ابن أم مكتوم قوله تعالى : ﴿ عبس وتولّى أن جاءه الأعمى ﴾ وكان من أهل الصفة فعوتب النبي ﷺ لأجله ، وكان

رسول الله ﷺ إذا صافحهم لاينزع يده من أيديهم ، وكان يفرقهم على أهل الجدة والسَّعَة يبعث مع واحد ثلاثة ، ومع الآخر أربعة ، وكان سعد بن معاذ يحمل إلى بيته منهم ثمانين يطعمهم ، وقال أبو هريرة : لقد رأيت سبعين من أهل الصفة يُصلُّون في ثوب واحد منهم من لايبلغ ركبتيه فإذا ركع أحدهم قبض بيديه مخافة أن تبدو عورته ، وقال بعض أهل الصفة : جئنا جماعة إلى رسول الله ﷺ وقلنا : يارسول الله أحرق بطوننا التمر ، فسمع بذلك رسول الله ﷺ فصعد المنبر ثم قال : « مابال أقوام يقولون أحرق بطوننا التمر أما علمتم أن هذا التمر هو طعام أهل المدينة وقد واسونا به وواسيناكم مما واسونا به والذي نفس محمد بيده إن منذ شهرين لم يرتفع من بيت رسول الله ﷺ دخان للخبز وليس لهم إلاّ الأسودان الماء والتمر » أخبرنا الشيخ أبو الفتح محمد بن عبد الباقي في كتابه قال: أخبرنا الشيخ أبو بكر بن زكريا الطريثيثي ، قال: أخبرنا الشيخ عبد الرحمن السلمي ، قال: حدَّثنا محمد بن محمد بن سعيد الأنماطي ، قال: حدَّثنا الحسن بن يحيى بن سلام ، قال: حدَّثنا محمد بن علي الترمذي ، قال: حدَّثني سعيد بن حاتم البلخي ، قال: حدَّثنا سهل بن أسلم عن خلاَّد بن محمد عن أبي عبد الرحمن السكري عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس قال : وقف رسول الله ﷺ يوماً على أهل الصفة فرأى فقرهم وجهادهم وطيب قلوبهم فقال : « أبشروا يا أصحاب الصفة فمن بقي منكم على النعت الذي أنتم عليه راضياً بما فيه فإنه من رفقائي يوم القيامة » وقيل : كان منهم طائفة بخراسان يأوون إلى الكهوف والمغارات ولايسكنون القرى والمدن ،

يسمونهم في خراسان شكفتية لأن (شكفت) اسم الغار ينسبونهم إلى المأوى والمستقر ، وأهل الشام يسمونهم جوعية ، والله تعالى ذكر في القرآن طوائف الخير والصلاح ، فسمّى قوماً أبراراً ، وآخرين مقربين ، ومنهم الصابرون ، والصادقون ، والذاكرون ، والمحبون ، واسم الصوفي يشمل جميع المتفرق في هذه الأسماء المذكورة ، وهذا الاسم لم يكن في زمن رسول الله ﷺ ، وقيل : كان في زمن التابعين ، ونقل عن الحسن البصري أنه قال : رأيت صوفياً في الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه وقال معي أربعة دوانيق يكفيني مامعي ، ويُشيِّد هذا القول مارُوي عن سفيان أنه قال: لولا أبو هاشم الصوفي ماعرفت دقيق الرياء ، وهذا يدل على أن هذا الاسم كان يُعرف قديماً ، وقيل: لم يعرف هذا الاسم إلى المايتين من الهجرة العربية لأن في زمن رسول الله ﷺ كان أصحاب رسول الله ﷺ يُسمّون الرجل صحابياً لشرف صحبته رسول الله ﷺ وكون الإشارة إليها أوْلى من كل إشارة ، وبعد انقراض عهد رسول الله ﷺ من أخذ منهم العلم سُمّي تابعياً ، ثم لما تقادم زمان الرسالة وبَعُد عهد النبوّة، وانقطع الوحي السماوي ، وتوارى النور المصطفوي ، واختلفت الآراء ، وتنوعت الأنحاء ، وتفرّد كل ذي رأي برأيه ، وكدّر شرب العلوم شوب الأهوية ، وتزعزعت أبنية المتقين ، واضطربت عزائم الزاهدين ، وغلبت الجهالات وكثف حجابها ، وكثرت العادات وتملكت أربابها ، وتزخرفت الدنيا وكثر خطابها ، تفرّد طائفة بأعمال صالحة وأحوال سنية ، وصدق في العزيمة ، وقوّة في الدين ، وزهد في الدنيا ، واغتنموا العزلة والوحدة ، واتخذوا لنفوسهم زوايا يجتمعون فيها تارة وينفردون أخرى أسوة بأهل الصفة ، تاركين الأسباب ، متبتلين إلى رب الأرباب ، فأثمر لهم صالح الأعمال

سَني الأحوال ، وتهيّأ لهم صفاء الفهوم لقبول العلوم ، وصار لهم بعد اللسان لسان ، وبعد العرفان عرفان ، وبعد الإيمان إيمان ، كما قال حارثة : أصبحت مؤمناً حقاً . حيث كوشف برتبة في الإيمان غير مايتعاهدها ، فصار لهم بمقتضى ذلك علوم يعرفونها ، وإشارات يتعاهدونها فحرروا لنفوسهم اصطلاحات تشير إلى معانٍ يعرفونها ، وتعرب عن أحوال يجدونها ، فأخذ ذلك الخلف عن السلف حتى صار ذلك رسماً مستمراً ، وخيراً مستقراً ، في كل عصر وزمان ، فظهر هذا الاسم بينهم وتسمّوا به وسُمّوا به ، فالاسم سمتهم ، والعلم بالله صفتهم ، والعبادة حليتهم ، والتقوى شعارهم ، وحقائق الحقيقة أسرارهم ، نُزّاع القبائل وأصحاب الفضائل ، سُكّان قباب الغيرة ، وقُطّان ديار الحيرة ، لهم مع الساعات من امداد فضل مزيد ، ولهيب شوقهم يتأجج ويقول هل من مزيد . انتهى .

قلت : والحاصل هم طائفة صفت مناهلهم ، وعذبت مشاربهم ، أمكنوا في القلوب من محبة الله الأساس ، وترددوا بعد ذلك بما يليق لهم من الزيّ واللباس ، فأخفاهم سبحانه وتعالى حالة ظهورهم عن أعين الأغيار ، ونشر عليهم من أردية القبول أشرف الأستار ، وجرّدهم له منهم رضي الله تعالى عنهم ، وحسّن ماقيل فيهم ، جعلنا الله من خواص محبيهم :

لله تحت بساط الغيب طائفة   أخفاهمُ عن عيون الناس إجلالا

همُ السلاطين في أطمار مسكنة   جرّوا على فلك الخضراء أذيالا

* * *

وقد ذكر سيدنا الكبير السيد أحمد الرفاعي ـ رضي الله عنه ـ في كتابه ﴿ البرهان المؤيد ﴾ من سيرة هذه الطائفة وحالهم ومراتبهم مايشفي القلب العليل ، ويبرد الغليل ، وهاهو بحروفه :

قال رضي الله عنه : ما أُحب أن يُعرف إلاّ شقي ، ليس من التصوف أحبوني ولا أكرموني ولا زوروني ، ماوقف على باب أهل الدنيا رجل كامل المعرفة ، الأُنس بالخلق انقطاع عن الحق ، من اعتزَّ بغير الله ذلّ ، ومن حرم درجة اليقين سقط من مراتبِ المتقين ، ومن انقطع لله وصله ، الانقطاع إلى الله حال أهل الحال مع الله ، لو أردت أن أتكلَّم عليكم بلسان الحال لوقرت لكم ستينَ بعيراً بإذن الله ، ولكن أقول لكم لو تكلَّم المتكلِّم حتى أصمّ الأسماع وكان كلامه مردوداً عند الظاهر فتركه الكلام أَوْلى له ، وإذا سكت حتى ظنَّ جليسه أنه لايتكلم ثم تكلم بكلمة واحدة سائحة من الباطن ، سابحة في الظاهر ، مقبولة عند الشرع ، فتح الله لسماع كلمته القلوب ، وتلقّاها السامعون بالإذعان ، وتكفيه ، كل حقيقة ردّتها الشريعة فهي زندقة ، إذا رأيتم شخصاً تربّع في الهواء فلاتلتفتوا إليه حتى تنظروا حاله عند الأمر والنهي ؛ أي سادة كل حال القوم من أولهم إلى آخرهم تحت أربع درجات ، وكل حال العلماء والفقهاء كذلك :

فأما الدرجة الأولى من حال القوم فدرجة رجل طلب المرشد لما رأى من إقبال العامة على الطائفة فأحبَّ ذلك وفرح بالرواق والجمعية والزيّ .

والدرجة الثانية درجة رجل طلب المرشد عن حُسن ظنّ بالطائفة فأحبّهم وأحبَّ ماهم عليه ، وأخذ بصميم القلب كل مانقل عنهم ،

وأخذ منهم بالاعتقاد الصحيح النظيف .

والدرجة الثالثة درجة رجل سلك المقامات ، وقطع العقبات ، وبلغ من الطريق العوالي من الدرجات ، ولكن وقف تارة عند قوله تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا ﴾ الآية فساعة يرى الكون بمشهد الآية التي أُريت له فيغيب بها عمن أراه إيّاها ، وساعة يرى نفسه بمشهد الآية التي أُريت له في نفسه فيغيب بها ، وهذا المشهد مشهد الإدلال ، ومنه تحصل الشطحات والتجاوز ، وإظهار العُلوّ على الأعالي ، والبروز بحال السلطنة ، والظهور بالقول والفعل والحول والقوّة .

والدرجة الرابعة درجة رجل سلك الطريق مقتفياً آثار النبي ﷺ في كل قول وفعل وحال وخُلق ، حاملاً راية العبدية ، فارشاً جبين الذل في الحضرة الربانية ، يشهد على هامة كل شيء ﴿ كل شيء هالك إلاّ وجهه ﴾ ويقرأ من صحيفة جبهة كل ذرّة مخلوقة ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ يقف عند حدّه ، ويبسط على تراب الأدب بساط خده ، ويمر في أثناء سيره على عقبات الآيات فينصرف عنها إلى المعبود ﴿ ولايشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ . فصاحب الدرجة الأولى محجوب ، وصاحب الدرجة الثانية محب ، وصاحب الدرجة الثالثة مشغول ، وصاحب الدرجة الرابعة كامل ، وفي كل درجة من الدرجات المذكورات درجات كثيرة تظهر للعارف من حال الرجل .

وأما درجات العلماء والفقهاء : فالدرجة الأولى درجة رجل طلب العلم للمماراة والجدال والتفاخر وجمع المال وكثرة القيل والقال .

والدرجة الثانية : درجة رجل طلب العلم لا للمناظرة ولا للرياسة

ولكن ليحسب في أعداد العلماء فيمدح بين أهله وعشيرته وأهل قريته ، مكتفياً بهذا المقدار متمسكاً بالظاهر لاغير .

والدرجة الثالثة : درجة رجل حلّ عويص المشكلات ، وكشف دقائق المنقولات والمعقولات ، وغاص بحور الجدل مضمر الهمة لنصرة الشرع في أحواله إلاّ أنه أخذته عزّة العلم على من هو دونه ، وإذا انتصر للشرع وعورض بدليل اختطفته نصرة نفسه ، فأفرط وأقام الأدلّة على خصمه وشنّع عليه وربما كفّره وطعن فيه ، وهجم عليه هجوم الحيوان المفترس مع عدم رعاية الحد المحدود شرعاً في كل حال من أحواله وأحوال خصمه .

والدرجة الرابعة : درجة رجل علّمه الله فنصّب نفسه لتنبيه الغافل ، وإرشاد الجاهل ، وردّ الشارد ، ونشر الفوائد ، والنصيحة وإنكار ماينكر شرعاً وقبول مايقبل شرعاً بحسن التجرد من الغرض ، يرى أن الحسن ماحسّنه الشرع والقبيح ماقبّحه الشرع ، يأمر بالمعروف أمر حكيم غير غليظ ولا فظ ، وينهى عن المنكر نهي مشفق غير ظالم ولا عاد .

فصاحب الدرجة الأولى سيّء ، وصاحب الدرجة الثانية محروم ، وصاحب الدرجة الثالثة مغرور ، وصاحب الدرجة الرابعة عارف ؛ وفي كل درجة من الدرجات المذكورات كذلك درجات تظهر من حال الرجل ، والمعصوم من عصمه الله وقد ظهر لكم .

أي سادة إن نهاية طريق الصوفية نهاية طريق الفقهاء ، ونهاية طريق الفقهاء نهاية طريق الصوفية ، وعقبات القطع التي ابتلي بها الفقهاء في الطلب هي العقبات التي ابتلي بها الصوفية في السلوك ، والطريقة هي الشريعة والشريعة هي الطريقة ، والفرق بينهما لفظي والمادة والمعنى

والنتيجة واحدة ، وما أرى الصوفي إذا أنكر حال الفقيه إلاّ ممكوراً ، ولا الفقيه إذا أنكر حال الصوفي إلاّ مبعوداً إلاّ إذا كان الفقيه آمراً بلسانه لا بلسان الشرع والصوفي سالكاً بنفسه لا بسلوك الشرع فلاجناح عليهما ، والشرط هنا الصوفي الكامل ، والفقيه العارف كما ذكرنا كيف يعمل الصوفي الكامل إذا قال له الفقيه العارف أأنت تقول لتلامذتك لاتصلّوا ولاتصوموا لاتقفوا عند حدود الله ؟ بالله عليكم هل يقدر أن ينطق إلاّ بحاشا لله ؟ كيف يعمل الفقيه العارف إذا قال له الصوفي الكامل أأنت تقول لتلامذتك لاتكثروا ذكر الله لاتحاربوا النفس بالمجاهدات لاتعملوا بصحة الإخلاص لله ؟ بالله عليكم هل يقدر أن ينطق إلاّ بحاشا لله ؟ فحينئذ اُتّحدت المادة والمعنى والنتيجة واختلفت اللفظة لاغير ، فمن حجبه من الصوفية حجاب اللفظة عن أخذ ثمرة المادة والمعنى والنتيجة فهو جاهل ، ما اتّخذ الله ولياً جاهلاً ، ومن حجبه من الفقهاء حجاب اللفظة عن أخذ ثمرة ماذكرناه فهو محروم ، اللهم إني أعوذ بك من علم لاينفع ، وليعلم أن المرء لايدخل في جنسية القوم بمجرد الاكتسا بكسوتهم والتلبُّس بخرقتهم إنما يدخل في حسابهم إذا تأدّب بآدابهم .

قال سيدنا السيد أحمد الرفاعي ـ رضي الله عنه ـ في كتابه (الحِكَم) : ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة . وقلت في كتابي (قلائد الزبرجد) عند شرح هذه الحكمة : أراد بذلك ـ رضي الله تعالى عنه ـ أن الدخيل في القوم بلاصدق ولا علم ولا عمل لايُعدُّ منهم ولايكون مثلهم .

ويعجبني ماذكره صاحب كتاب (آداب الأقطاب) مولانا عليّ بن محمد الكازروني الرفاعي ـ قدس سره ـ في مقدمة كتابه حيث يقول : سألتني

زادك الله توفيقاً ، ويسّر وفتح لك إلى كل خير طريقاً ، أن أذكر لك طرفاً من آداب التصوف وقواعده ، ونبذة من أحواله ومراشده ، فأجبت إلى ذلك إجابة معترف بالتقصير ، معتمد على اللطيف الخبير ، وسأرشدك إلى موضع سدادك ، وأدلك على إرشادك ، وإن كان هذا فنٌّ قد طُويَ بساطه ، وانحلَّ رباطه ، ونُسيَ رسمه ، ولم يبق إلاّ اسمه ، ذهبت الآثار ، وعفت الديار ، ونُسيت الآداب ، وعمي الصواب ، وطمست تلك العبارات ، واضمحلّت تلك الإشارات ، وعُدم أهل الطريقة على الحقيقة وانقرضوا ، وطُوي بساط الأُنس بهم فليت شعري أين مضوا .

أسـائلكم عنها فهل من مخبر؟   فمالي بنُـعْـمٍ بعد أن رحلوا عِلم
فلو كنت أدري أين خيّم أهلها   وأيّ بلاد الله إذ رحلوا أمّوا
إذاً لسلكنا مسلك الريح خلفها   ولو أصبحت نُعْمٌ ومن دونها النجم

* * *

أُطفئت مصابيح القوم فأظلم لفقدهم الكون ، وحصلنا من المعاني على الصُّوَر ، وبيننا وبينهم بون (ليس التكحل في العينين كالكَحل) تشبّه بالقوم من ليس منهم ، وقام في مقامهم من لايغني عنهم :

رضوا بالطيلسان إذ اكتسوها   وتفخيم البرانس والعمامة
كذا دجج البيوت لهن ريش   ولكن لايطرن مع الحمامة

* * *

اقتصروا على تحسين الظاهر مع سماجة الخواطر ، وقبح السرائر وخبث الضمائر ، (فضح التطبع شيمة المطبوع) حسُنت الأشكال ، وقبحت الخلال ، وتخيّل لمن خلف ، أنه يقوم مقام السلف ، (وأين الثريا من يد

المتطاول المتناول) أين البقر من الأسد ، أين الضبع من أبي لبد ، طاحت والله بهم طوايح الأقدار ، فلم يبق سوى الآثار ، [تلك أمّة قد خلت] [فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلّا قليلاً] .

قف بالديار فهذه آثارهم ... تبكي الأحبّة حسرة وتشوّقاً
كم قد وقفت بها أُسائل مخبراً ... عن أهلها أو صادقاً أو مشفقاً
فأجابني داعي الهوى في رسمهم ... فارقت من تهوى فعزّ الملتقى

* * *

أين تلك الأحوال والمقامات ، ذهبت مع من ذهب من القوم ومات .

.... وبقيت في خلف كجلد الأجرب

كان طريق القوم عدم النوم ، واغتنام الأسحار ودوام الأفكار ، والخشوع بين يدي الواحد الجبار ، لا جرم أنه رفعت لهم أعلام الأعلام ، برضى الواحد العلّام ، فقبورهم تُزار ، ومشاهدهم تُحط بها الأوزار .

لا الدار بعدهمُ دار السرور ولا ... تلك المنازل والأوطان أوطان

* * *

عزفت نفوسهم عن شوائب أكدار هذه الديار فتركوها ، وقاموا بالعبودية فأحسنوا الطريقة وسلكوها ، وقاموا في مقام الأُنس بمحبوبهم ، فظفروا في الآخرة بمطلوبهم ، ﴿ كانوا قليلاً من الليل مايهجعون وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ فهم جلساء الله وأحبّاؤه ، وخواصّه وأودّاؤه ، إن قاموا فبالله ، وإن قعدوا فلله ، وإن نطقوا فمن الله ، وإن سكتوا شغلوا بالله ؛

قال شيخنا السيد علي مهد الدين الرفاعي فيهم :

رجال إذا الدنيا دجت أشرقت بهم
وإن أجدبت يوماً بهم ينزل القطر

أقاموا بظهر الأرض فاخضرّ عودها
وحلّوا ببطن الأرض فاستوحش الظهر

* * *

فهذه صفة القوم ، فأين مثلهمُ اليوم ، وقد كثر في زماننا المتسمون بهذه الطائفة ، والمتلبسون بلباسهم والمتسمون بسمتهم ، فلوثوا المذهب وكدّروا صافي المشرب ، ألا ترى أنهم يتصدرون ويتشدّقون ويحيلون إلى تقبيل الأكف والاحترام ، واجتماع المريدين ومخاطبتهم لهم بالمشيخة ، فنقضوا بذلك أركان التصوف وغيّروا معانيه ، واتخذوا بيوت العبادة حوانيت السيادة ، واكتفوا بلبس المرقعات والمصبغات وتقصير الأثواب مع إهمال الآداب إلى آخر ماقال . انتهى .

وأحسن منه ماقاله سيدنا الغوث الأكبر ، والعَلَم الأشهر ، مولانا السيد أحمد الرفاعي الكبير رضي الله عنه في كتابه (البرهان المؤيد) وهو :

أيها المتصوف لِمَ هذه البطالة صِرْ صوفياً حتى نقول لك أيها الصوفي ، أي حبيبي تظن أن هذه الطريقة تورث من أبيك ، تسلسل من جدك تأتيك باسم بكر وعمرو ، تصير لك في وثيقة نسبك ، تنقش لك على جيب خرقتك ، على طرف تاجك ؟ حسبت هذه البضاعة ثوب شَعْر وتاجاً وعكازاً ، ودلقاً وعمامة كبيرة ، وزيّاً صالحاً ؟ لا والله ، إن الله لاينظر إلى كل هذا ، ينظر إلى قلبك ، كيف يفرغ فيه سره وبركة قربه وهو غافل عنه

بحجاب التاج ، بحجاب الخرقة ، بحجاب السبحة ، بحجاب العصا ، بحجاب المسوح ، ايش هذا العقل الخالي من نور المعرفة ؟ ايش هذا الرأس الخالي من جوهر العقل ؟ ماعملت بأعمال الطائفة وتلبس لباسهم يامسكين ، يا أخي لو كلّفت قلبك لباس الخشية ، وظاهرك لباس الأدب ، ونفسك لباس الذل ، وأنانيتك لباس المحو ، ولسانك لباس الذكر وتخلصت من هذه الحجب ، وبعدها تلبّست بهذه الثياب كان أوّلى لك ثم أوّلى ، لكن كيف يقال لك هذا القول وأنت تظن أن تاجك كتاج القوم ، وثوبك كثوبهم ، كلا الأشكال مؤتلفة ، والقلوب مختلفة ، لو كنت على بصيرة من أمرك خلعت أباك وأمّك ، وجدك وعمك ، وقميصك وتاجك ، وسريرك ومعراجك ، وأتيتنا بالله وبعد حُسن الأدب لبست ، وأظنك بعد الأدب تقطع نفسك عن الثوب والعوارض القاطعة ، أي مسكين تمشي مع وهمك ، مع خيالك ، مع كذبك ، مع عجبك وغرورك ، وتحمل نجاسة أنانيتك وتظن أنك على شيء ، وكيف يكون ذلك ، تعلّم علم التواضع ، تعلّم علم الحيرة ، تعلّم علم المسكنة والإنكسار ، أي بطال تعلّمت علم الكبر ، تعلّمت علم الدعوى ، تعلّمت علم التعالي ، ايش حصل لك من كل ذلك ؟ تطلب هذه الدنيا الجائفة بظاهر حال الآخرة ؟ لبئس ماصنعت ما أنت إلاّ كمشتري النجاسة بالنجاسة ، كيف تغفل نفسك بنفسك ؟ وتكذب على نفسك وأبناء جنسك ، لايقرب المحب من محبوبه حتى يبعد عن عدوّه ، رمى بعض المريدين ركوته في بعض الآبار ليستقي الماء فخرجت مملوءة بالذهب ، فرمى بها في البئر وقال ياعزيزي وحقك لاأريد غيرك ، من أثبت نفسه مريداً صار مراداً ، من أثبت نفسه طالباً صار مطلوباً ، من

عكف على الباب دخل الرحاب ، ومن أحسن القصد بعد الدخول تصدر في غرفة الوصل ؛

دخل عليّ كرّم الله وجهه ورضي الله عنه مسجد رسول الله ﷺ فرأى أعرابياً في المسجد يقول : إلهي أُريد منك شُويهة . ورأى أبا بكر الصديق رضي الله عنه في زاوية أخرى يقول : إلهي أُريدك . شتّان مابين المرادين ، شتّان مابين الهمّتين ، تلعب الآمال بالعقول ، تلعب بالهمم ، كل يطير بجناح همّته إلى أمله ومقصد قلبه ، فإذا بلغ غاية همّته وقف فلم يجاوزها قال تعالى : ﴿ قل كلّ يعمل على شاكلته ﴾ أي على نيّته وهمّته . انتهى .

وقد اتُّصف الصوفية ـ رضي الله تعالى عنهم ـ بعلوّ الهمّة لأنهم أوفر الناس حظاً من الاقتداء برسول الله ﷺ ، وأحقّهم بإحياء سُنّته وأخلاقه الشريفة ، سلكوا طريقته ، وأيّدوا حقيقته ، فتراهم مع علوّ الهمّة على جانب عظيم من لين الجانب ، وحُسن الطباع ، وصفاء المشارب :

هيّنون ليّنون أيسار بنوا يُسر ... سُوّاس مكرمة أبناء أيسارِ
لاينطقون عن الفحشاء إن نطقوا ... ولا يُمارون إن ماروا بإكثارِ
من تلقَ منهم تقُل لاقيتُ سيِّدهم ... مثل النجوم التي يسري بها الساري

* * *

رضي الله عنهم أجمعين ، ونفعنا بهم والمسلمين آمين .

﴿ الخاتمـة ﴾

﴿ نسأل الله حُسنها ﴾

﴿ في علم التصوف وفضله ، وعلوّ مقام أهله ﴾

علم التصـوف حقيقـة الأشياء ، وهـو الذي يكشـف للرجل حقيقة الخسيس والنفيس ، فيُعـرض بسببـه كل الإعراض عن الأشياء الفانية وأسبابها ، ويتعلّق بالحقيقة الباقية ويقف على بابها ، ولايصلح ذلك إلاّ بالعمل الصالح تحققاً بقول النبي ﷺ « من عمل بما يعلم ورّثه الله علم مالم يعلم » وقد أوضح العرفاء والعلماء شأن علم التصوف وبيّنوا مزاياه ، وسنأتي إن شاء الله في هذا الباب بما يسرّ قلوب أولي الألباب .

قال في (كشف الظنون) : علم التصوف هو علم يعرف به كيفية ترقّي أهل الكمال من النوع الإنساني في مدارج سعاداتهم ، والأمور العارضـة لهم في درجاتهم بقدر الطاقة البشرية ، وأمّا التعبير عن هذه الدرجات والمقامات كما هو حقه فغير ممكن ، لأن العبارات إنما وُضعت للمعاني التي وصل إليها فَهْمُ أهل اللغات ، وأما المعاني التي لايصل إليها إلاّ غائب عن ذاته فضلاً عن قُوى بدنه ، فليس بممكن أن يوضع لها ألفاظ فضـلاً عن أن يُعبَّر عنها بالألفاظ ، فكما أن المعقولات لاتدرك بالأوهـام ، والموهـومـات لاتـدرك بالخيالات ، والتخيّلات لاتـدرك بالحواس ، كذلك مامن شأنه أن يُعاين بعين اليقين لايمكن أن يدرك

بعلم اليقين ، فالواجب على من يريد ذلك أن يجتهد في الوصول إليه بالعيان دون أن يطلبه بالبيان ، فإنه طور وراء طور العقل :

علم التصوف علم ليس يعرفه ... إلاّ أخو فطنة بالحق معروف
وليس يعرفه من ليس يشهده ... وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف

* * *

وهذا ماذكره ابن صدر الدين ، وأما أبو الخير فإنه جعل الطرف الثاني من كتابه في العلوم المتعلقة بالتصفية التي هي ثمرة العمل بالعلم :

قال : ولهذا العلم أيضاً ثمرة تُسمى علوم المكاشفة لاتكشف عنها العبارة غير الإشارة ، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام : « إن من العلم كهيئة المكنون لايعرفها إلاّ العلماء بالله تعالى فإذا نطقوا ينكره أهل الغرّة » .

فرتب هذا الطرف في مقدمة ودوحة لها شُعب وثمرة وقال : الدوحة في علوم الباطن ، ولها أربع شعب ، العبادات ، والعادات ، والمهلكات ، والمنجيات . فلخّص فيه كتاب (إحياء العلوم) للغزالي ، ولم يذكر الثمرة فكأنه لم يذكر التصوف المعروف بين أهله .

قال الإمام القشيري : إعلموا أن المسلمين بعد رسول الله ﷺ لم يتسمَّ أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبة الرسول عليه الصلاة والسلام ، إذ لا أفضلية فوقها فقيل لهم الصحابة ، ولما أدركهم أهل العصر الثاني سُمّي من صحب الصحابة بالتابعين ، ثم اختلف الناس ، وتباينت المراتب ، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين الزهّاد والعُبّاد ، ثم ظهرت البدعة وحصل التداعي بين الفرق ، فكل

فريق ادّعوا أنّ فيهم زهّاداً ، فانفرد خواص من أهل السُّنّة المراعون أنفسهم مع الله سبحانه وتعالى ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف ، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المايتين من الهجرة . انتهى .

وأوّل من سُمّي بالصوفي أبو هاشم الصوفي المتوفى سنة خمسين ومائة .

قال السهروردي ـ قدس سره ـ في العوارف : والصوفي هو المقرب ، وليس في القرآن إسم صوفي ، وإسم الصفيّ ترك ووضع للمقرب على ماسنشرح ذلك في بابه ، ولايعرف في طرفي بلاد الإسلام شرقاً وغرباً هذا الاسم لأهل القرب وإنما يعرف للمتوسمين ، وكم من الرجال المقربين في بلاد المغرب وبلاد تركستان وماوراء النهر ولايُسمّون صوفية ، لأنهم لايتزيون بزيّ الصوفية ولا مشاحّة في الألفاظ ، فيعلم أنا نعني بالصوفية (المقرّبين) فمشايخ الصوفية الذين أسماؤهم في الطبقات وغير ذلك من الكتب كلهم كانوا في طرق المقربين ، وعلومهم علوم أحوال المقربين ، ومن تطلّع إلى مقام المقربين من جملة الأبرار فهو متصوف مالم يتحقق بحالهم ، فإذا تحقق بحالهم صار صوفياً ، وماعداهما ممن تميّز بزيّ الصوفية ونُسب إليهم فهو مُتشبِّه ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ .

وقد أتى سيدنا وقرّة أعيننا الإمام أبو العلمين السيد أحمد الرفاعي ـ رضي الله عنه ـ في كتابه البرهان بما تحيّر له الأفكار والأذهان ، من تفاصيل عجيبة ، وأساليب غريبة ، تذكر أساس هذا العلم الكريم ، وتدلّ على فَهْم صراطه المستقيم ، فقال ـ رضي الله عنه ونفعنا والمسلمين بعلومه آمين ـ :

العـزيز المقتـدر واحـد ، أظهـر القدرة على أشباح متفرقة ، وهياكل متباينة ، وهو واحد في ذاته ، غير متحيّز ، ولا منقسم ، ولا حالٌ ، ولا متّحـد ، ولكن تجلّ لعبـاده بأفعـاله وقدرته ، وجعل إليه طُرقاً وللطُرق أدلاّء ، ولكـل دليل آية مخصوصـة ، ولكـل طريق باب مخصـوص ، وحجـاب مضروب ﴿ وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب ﴾ وثم في الطُرُق حدود مضروبة ، وأعلام منصوبة ، لايمكن عبورها إلاّ بإذن ، فمن كان مأذوناً له في تجاوز الحد المضروب إلى ماوراءه فتح له الباب وأُدخل ، والدخول لايكون إلاّ مع الشرح ، والشرح سُئل عنه رسول الله ﷺ فقال : « هو نور يقذفه الله في القلب » قيل : يارسول الله ماعلامته ؟ فقال : « التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعـداد للمـوت قبل حلول الموت » وبالشرح النوراني تنفتح أبواب القلوب ، والرحمة باب من أبواب الله سبحانه يفتحها على قلب من يشاء ﴿ مايفتح الله للناس من رحمة فلاممسك لها ﴾ الآية والنبي ﷺ رحمة ﴿ وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين ﴾ وكما انفتحت أبواب السماء بالرحمة التي هي المطر انفتحت أبواب الوحي للنبي ﷺ الذي هو رحمة للعالمين ، وباب لدخول المتقين ، فكلما ظهرت من القدرة على ظاهر حجاب عن المظهر فمن جاوزه إلى ماوراءه من الأسرار كان من المكـاشفـين بعلم الملكوت المتنزهين في بحبوحة القدس ﴿ أُولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيهـا خالـدون ﴾ وإلى إرث الفـردوس دعـا مصباح الوجود وسراج الكـونـين ﷺ وجاء بما لم يأت به سواه من الأسرار العجيبـة ، والمعاني الغـريبـة ، واللغـة الفصيحة والاستعـارات الصحيحة الشريفـة ،

والتمثيلات المطابقة ، والإشارات الموافقة ، والرموز الغامضة ، والكشوف الواضحة ، والأحكام الكاملة ، والسياسات الشاملة ، والآداب الجامعة ، والأخلاق الطاهرة ، فمن كان بصيراً نظر إلى جمال باطن الصورة المحمدية الروحانية ، ورأى انبساط أنوارها على صفحات الآلاء الناسوتية الجسمانية بالسمت والوقار ، والهيبة والسكينة ، والإطراق والتبسم والبِشر ، وشاهد هذه النعوت الباطنة والظاهرة كلها لمظهرها لا بها ليخرج من حيِّز الذين وقفوا مع ظاهر الإبداء ، وحُجبوا به عن المبدي ، ويعلم أن الرسول ﷺ متولٍ في معناه صورته وحركاته وسكناته لا منه فيه شيء وأنه محو من أثبته لقيام المتولي له به ألا ترى كيف يقول له ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ فبرأه من فعله في فعله لئلا يُحال شيء على حركة الناسوت المسخر ، أو يُضاف فعل إلى الجسم المقدَّر المصوَّر ، أو يُثبَت تصرّف للمتولِّ المدبَّر ، فإذا نظر الناظر إليه بعين التصريف لا بعين التصرف ، وعلم حقيقة البادي والمبدى عليه ، وأنزل كل شيء في منزلته وضح له الحق الصريح من غير حمحمة ولا تلويح ، وميَّز السقيم من الصحيح ، واهتدى بهدى الله لا بهدى البشر ، وكان من المطَّلعين على سرّ القدر ، والمنزهين عن التقليد الذي هو مظنة الغرر ، ﴿ قل أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ﴾ من التمثيل بظواهر الأثر ، والامتناع من العيان بالخبر ، وذاك هو نقلك بالحكمة والموعظة الحسنة إلى معرفة الحق ليعرفوا به أهله ، ويعلموا أن المقلد لما يألف بغير هدى من الله تابع هواه وجهله ، وهدى الله عز وجل هو ماكشف لك عن حقائق الأمور ، وهو الذي ينكتب بقلم العقل على ألواح الصدور ﴿ كتب في

قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروح منه ﴾ فمن أُيّد بالروح عرف المؤيَّد بالروح وعَلِم أن عيسى أُيّد بروح القدس ، وأن محمداً ﷺ أُنزل عليه القرآن روح ، من عَلِم بهذا وذاقه كان من المؤيِّدين الذين يؤمنون بالكتب كلها ، وفيهم قيل : ﴿ والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ۞ أُولئك على هدى من ربهم وأُولئك هم المفلحون ﴾ هدى الله هو الهدى وليس بعده إلّا اتّباع الأهواء ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ماجاءك من العلم ﴾ اللدني والكشف الإلهي ﴿ إنك إذاً لمن الظالمين ﴾ الذين أنزلوا النفس عن رتبة الكشف إلى رتبة موافقة أرباب الأهواء ، الذين هم في ظلمات آرائهم الملطخة بأوضار الطبيعة ، المحجوبة في ظلمات الحس ومن كثّر سواد قوم فهو منهم وحشر معهم ، ومن وافق قوماً كان منهم ﴿ فماذا بعد الحق إلّا الضلال ﴾ وبعد الكشف إلّا الحجاب ﴿ فأعرض عن من تولّى عن ذكرنا ولم يُرد إلّا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ﴾ .

وقد علمت أن الحياة الدنيا مشغلة عن الحياة القصوى ، وإن المعرض عن الاستعداد للحياة الحقيقية نادم بعد مفارقة الحياة الدنيا محرّق بنار جهنم ، فيتذكر حين لاتنفعه الذكرى ﴿ فيقول ياليتني قدّمت لحياتي فيومئذ لايعذّب عذابه أحد ولايوثق وثاقه أحد ﴾ حتى يعلم أن الدار الآخرة هي الحيوان ، فلو كان يعلم لكانت الدار الآخرة دار حياته إذ هي حياة العلماء ، ولهذا اشترط لو كانوا يعلمون فتقدير الكلام لو كانوا يعلمون لكانت الآخرة دار الحيوان في حقهم ولكن جهلهم حجبهم ، وإلى ظلمات الصور أدخلهم ، وفي سجن الجسم المحصور بثلاثة أبعاد سجنهم ، فإليه يُردُّ وفيه يُعذَّب ، فلابدَّ من حشرها

وذلك هو الذي ذكره الشارع من حشر الأجساد وردّ الأرواح إليها عند من وفّقه الله سبحانه إلى الإيمان بذلك ، وشرح صدره لقبول تصديقه بإعلامه أن ماجاز ابتداؤه لايستحيل إعادته فالمنتزع أهون في الشاهد من المخترع ﴿ قل يحييها الذي أنشأها أوّل مرّة ﴾ ولايُحجب عن معرفة الله سبحانه ومعرفة ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر إلاّ من استحوذ عليه شيطانه وهواه فأضلّه عن الحق وأغواه حتى مقته الحق سبحانه وأخزاه وجعل الخلود في النار جزاءه ﴿ ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً ﴾ ﴿ أولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ فأصبحوا صمّاً بكمًا عمياً فهم لايعلمون ، وكيف يتدبّر القرآن من لايدري حقيقة القرآن ولا إنزال القرآن ولا مُنزل القرآن ولا المُنزل عليه القرآن ، والقرآن هو البحر المحيط وعلى سواحله العود والعنبر وجميع أصناف الطيب ، وأنواع المعادن تلقى في وسطه في الجزائر ، وله ظهر وبطن وحد ومطلع ، وهذه أربعة أركان بُني عليها فَهْمُ القرآن ، فالظاهر هو التنزيل ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ والباطن هو التأويل كما قال ﷺ : « اللهم فقهه في الدين وعلّمه التأويل » والحد هو الذي يتوقف عنده وهو الذي يفصل بين التشبيه والتعطيل ، والمطلع هو موضع إشراف المكاشفين على حقائق ما أُريد به بإلهام الملك وفطنة الروح ، ولايشهد معانيه ولايطلع على حقائقه إلاّ من كان له كشف ومشاهدة وقلب سالم مُسَلِّم وأسلم ﴿ قال أسلمت لربّ العالمين ﴾ ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ فأول المراتب معرفة التنزيل ، والثاني معرفة التأويل ، والتنزيل ينبغي أن يكون أمراً كما جاء لايُحرّف ولايُبدّل لأنه أساس التأويل ،

والتأويل منزل على التنزيل لايخرج به عن مطابقة التنزيل ، فلايعدّل بمعانيه إلى التعطيل ، ولايُجاد به عن موافقة طريق السُّنّة الواردة عن سيد المرسلين ، والرتبة الثالثة وهي الوسطى ، وهي الحد المانع الجامع يجمع بين ظاهر التنزيل وباطن التأويل ، ويمنع من التشبيه والتعطيل ؛

والرتبة الرابعة هي الاطّلاع عليه بالنور المبين ، الذي لايوجد إلاّ عند المتّقين ، وهو تعليم العزيز الرحيم ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ ﴿ واتّقوا الله ويعلمكم الله ﴾ فالله سبحانه معلّم الفهم ، والرسول معلّم الحكم والحكمة ويطلع على معالم الفهم ، ويوصل إلى مقام الاطّلاع بإرشاده إذ هو واسطة بين العباد وربهم ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون ﴾ فالرسول هادٍ بالواسطة لا بالتأصيل ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ والله تعالى هو الهادي ﴿ إنك لاتهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ وكذلك هو معلّم الدلالة ، والله سبحانه وتعالى معلّم الأصالة ﴿ ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون ﴾ ﴿ علّم الإنسان مالم يعلم ﴾ ﴿ وعلّمناه من لدُنّا علماً ﴾ ﴿ خلق الإنسان علّمه البيان ﴾ فرّق بين العلم والخلق ، فدلّ على أن علم الله سبحانه وهو صفته غير مخلوقة كتبه بقلم العقل على ألواح الصدور ﴿ بل هو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم ﴾ فالعقل مستمد من العلم الأزلي وهو القرآن الذي أُلقي إلى محمد ﷺ حصل للرسول بتعليم جبريل ، وتعليم جبريل هو تعليم الله عز وجل وتعليم الرسول ﷺ هو تعليم جبريل ، فإذا كان تعليم الرسول هو

تعليم الله سبحانه ، فالله سبحانه يعلّم الملائكة بلا واسطة والملائكة وسائط بين الرسل وبين الله سبحانه ، والرسل وسائط بيننا وبين الملائكة ، والله سبحانه معلّم الكل وهادٍ للكل والمبين للكل ، وإن كان الرسول مبيناً فهو في التبيين كما هو في الهداية ، شيخ أُقيم لتعريف الخلق ماندبهم إليه الحق وله ولاية الظاهر بالحكم ، ولله سبحانه ولاية الباطن بالتولي ﴿ لتُبيِّنَ للناس ما نُزِّل إليهم ﴾ ﴿ يريد الله ليبيِّنَ لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ﴾ فما من شيء أُضيف إلى الرسول ظاهراً في حال من الأحوال لإثبات الأحكام إلاّ وقد لقي باطناً لإثبات التوحيد ، حتى لايقف أحد مع ظاهر ما أُبدي إلى محمد دون النظر إلى الإبداء ، ومعرفة جريانه على ظاهر محمد ﷺ من المبدي عليه ، وهو الذي يردّ الأمر في الإفراد والإصدار إليه ﴿ وإنك لتُلَقَّى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾ فهو محل التلقي لا هو الملقي ولا إليه الإلقاء ﴿ وما كنت ترجو أن يُلقى إليك الكتاب إلاّ رحمة من ربك ﴾ وليت شعري ايش الكتاب من الكتابة ؟ سوى أنه متَّصف من حيث كان محلاً قابلاً لها لا من حيث أنها لم تزل فيه ، ولا هي صفته وإنما هي صفة الكاتب بدت في الكتابة لا من الكتاب وإليه تعود في الوصف لا إلى الكتاب ، فهي صفة الكاتب لا صفة المكتوب ، فذلك قلب محمد ﷺ كتاب كتب الله فيه القرآن كما يكتب الكاتب في اللوح ، وإن كانت الكتابة في الشاهد تنكتب بواسطة القلم في اللوح ، والقرآن انكتب بواسطة جبريل في لوح قلب محمد وكان بمنزلة القلم والمكتوب قديم وهو الكلام الأزلي ، والكاتب والمكتوب فيه مخلوقان كاللوح والقلم ، فإن قلب محمد ﷺ مخلوق وجبريل عليه السلام مخلوق ، وما كتبه الله عز وجل بواسطة جبريل قديم ، فالقرآن إذاً قديم وهو علم الله ، ولايبعد أن يكتب

في قلوب العباد على سبيل الحفظ والعلم لا على سبيل الحلول والانتقال لأن الله سبحانه هو الحافظ له لا العبد ﴿ إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ ويروى أنه لما خلق الله سبحانه وتعالى القلم قال له أكتب قال ما أكتب ، قال : اكتب علمي في خلقي . وعلم الله مكتوب في خلقه والإيمان مكتوب ﴿ كتب في قلوبهم الإيمان ﴾ ﴿ بل هو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم ﴾ ولاتسأل عن كيفية هذه الكتابة وكيف ارتسامها في الصدور فإن ذلك يستدعي فتح باب كبير من أبواب الملكوت ، فإن الكتابة تستدعي لوحاً ومداداً وقلماً وأصابعاً ويداً وقدرة وإرادة وعلماً وكاتباً ، وذلك من علوم المكاشفة إذ علم ذلك نهاية الأولياء ومبادي الأنبياء ، فإن النبي ﷺ أول ماكوشف بسر القلم حين رأى جبريل في صورته أول مرة وغطّه ، وقال : اقرأ فقال : « ما أنا بقارىء » الحديث المعروف ، أول ماكوشف من الوحي بمعرفة الكتابة والقلم والتعليم وخلق الإنسان ، وهذا مجمع العلم وخزانة الأسرار ، وهذا أصل لما وراءه ، فقال : إقرأ،قال : « وما أقرأ » قال : ﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * إقرأ وربك الأكرم * الذي علّم بالقلم * علّم الإنسان مالم يعلم ﴾ فإن كنت من أرباب البصائر ففي متفرّق كلامنا مايدلّك على معانيه ، فإن الكلام لم يخل من إشارة إليه ، وتنبيه عليه ، ومعرفته لاتحتمل التصريح فإن خوض غمرات أسراره خطير ، وفتح باب الأسرار عزيز ، وإفهام الخلق مالم يألفوا مسالكه من الأسرار عسير ، وبحره عميق يغرق فيه أكثر الجماهير إلاّ من تولّى الله عز وجل أمره ، وهو يتولّى الصالحين . انتهى .

وقال السهروردي أيضاً في عوارفه : ومن القلوب ماهي بمثابة الأخاذات ، أي الغدران جمع أخاذة وهي المصنع والغدير الذي يجتمع الماء فيه ، فنفوس العلماء الزاهدين من الصوفية والشيوخ تزكّت ، وقلوبهم صفت فاختصّت بمزيد الفائدة فصاروا أخاذات ، قال مسروق : صحبت أصحاب رسول الله ﷺ فوجدتهم كالأخاذات لأن قلوبهم كانت واعية فصارت أوعية العلوم بما رُزقت من صفاء الفهم .

أخبرنا رضيّ الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل إجازة ، قال: أخبرنا أبو سعيد محمد الخليلي ، قال: أخبرنا القاضي أبو سعيد محمد الفرخزاذي ، قال: أخبرنا أبو إسحاق أحمد بن محمد الثعالبي ، قال: أخبرنا ابن فنجوية ، قال: حدّثنا ابن حبان ، قال: حدّثنا إسحاق بن محمد ، قال: حدّثنا أبي ، قال: حدّثنا إبراهيم بن عيسى ، قال: حدّثنا علي بن علي ، قال: حدّثنا أبو حمزة الثمالي ، قال: حدّثني عبد الله بن الحسين ، قال: حين نزلت هذه الآية ﴿ وتعيها أذن [1] واعية ﴾ قال رسول الله ﷺ : « سألت الله تعالى أن يجعلها أذنك ياعليّ » قال عليّ : فما نسيت شيئاً بعد وماكان لي أن أنسى . قال أبو بكر الواسطي : آذان وعت عن الله أسراره ، وقال أيضاً : واعية في معادنها ليس فيها غير ماشاهدها شيء فهي

---

(١) أذن واعية على التوحيد ـ والتنكير للإيذان بأن الوعاة فيهم قلة ، ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم ، والدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله فهي السواد الأعظم عند الله ، وإنما سواها لايلتفت إليهم وإن امتلأ العالم منهم .
يقول محققه وناسخه هكذا وجدت هذه الحاشية في هامش الأصل كتبت بالحبر الأحمر فأثبتها كما هي بحروفها .

الخالية عمّا سواه ، فما اضطراب الطبايع إلاّ ضرب من الجهل ، فقلوب [1] الصوفية وعت لأنهم زهدوا في الدنيا بعد أن أحكموا أساس التقوى ، فبالتقوى زكت نفوسهم ، وبالزهد صفت قلوبهم ، فلما عدموا شواغل الدنيا بتحقيق الزهد انفتحت مسام بواطنهم ، وسمعت آذان قلوبهم ، فأعانهم على ذلك زهدهم في الدنيا ، فعلماء التفسير وأئمة الحديث وفقهاء الإسلام أحاطوا علماً بالكتاب والسُّنّة واستنبطوا منها الأحكام ، وردّوا الحوادث المتجددة إلى أُصول من النصوص وحمى الله تعالى بهم الدين ، ثم عرف علماء التفسير وجه التفسير وعلم التأويل ومذهب العرب في اللغة وغرائب النحو والتصريف وأُصول القصص واختلاف وجوه القراءة ، وصنّفوا في ذلك الكتب فاتّسع بطريقهم علوم القرآن على الأُمة ، وأئمة الحديث ميّزوا بين الصحاح والحسان ، وتفردوا بمعرفة الرُّواة وأسامي الرجال ، وحكموا بالجرح والتعديل ليتبيّن الصحيح من السقيم ، ويتميّز المعوج من المستقيم ، فينحفظ بطريقهم طريق الرواية والسند حفظاً للسُّنّة ، وانتدب الفقهاء لاستنباط الأحكام والتفريع في المسائل ومعرفة التعليل وردّ الفروع إلى الأصول بالعلل الجوامع ، واستيعاب الحوادث بحكم النصوص ، وتفرع من علم الفقه والأحكام علم أُصول الفقه وعلم الخلاف ، وتفرع من علم الخلاف علم الجدل ، وأحوج علم أُصول الفقه إلى شيء من علم أُصول الدين ، فكان من علمهم علم الفرايض ولزم منه علم الحساب والجبر والمقابلة ، وإلى غير ذلك فتمهدت الشريعة وتأيّدت واستقام الدين الحنيفي وتفرّع ، وتأصّل الهدى النبوي المصطفوي

---

(١) وفي نسخة (فآذان) .

فأنبتت أراضي قلوب العلماء الكلأ والعشب بما قبلت من مياه الحيا من الهدى والعلم قال الله تعالى : ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ﴾ قال ابن عباس الماء العلم والأودية القلوب ؛ قال أبو بكر الواسطي : خلق الله تعالى درة صافية ولاحظها بعين الجلال فذابت حياء منه فسالت فقال : ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية ﴾ فصفاء القلوب من وصول ذلك الماء إليها ، وقال ابن عطاء : (أنزل من السماء ماء) هذا مثل ضربه الله تعالى للعبد إذا سال السيل في الأودية لاتبقى في الأودية نجاسة إلّا كنسها وذهب بها ، كذلك إذا سال النور الذي قسم الله تعالى للعبد في نفسه لاتبقى فيه غفلة ولا ظلمة (أنزل من السماء ماء) يعني قسمة النور (فسالت أودية بقدرها) يعني في القلوب الأنوار على ماقسم لها في الأزل (فأمّا الزبَد فيذهب جفاء) فتصير القلوب منوّرة لاتبقى فيها جفوة ﴿ وأما ماينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾ تذهب البواطن ، وتبقى الحقائق ، وقال بعضهم : (أنزل من السماء ماء) يعني أنواع الكرامات فأخذ كل قلب بحظه ونصيبه (فسالت أودية) قلوب علماء التفسير والحديث والفقه (بقدرها) وسالت أودية قلوب الصوفية من العلماء الزاهدين في الدنيا المتمسكين بحقايق التقوى بقدرها ، فمن كان في باطنه لوث محبة الدنيا من فضول المال والجاه وطلب المناصب والرفعة سال وادي قلبه بقدره ، فأخذ من العلم طرفاً صالحاً ولم يحظ بحقايق العلوم ، ومن زهد في الدنيا اتسع وادي قلبه فسالت فيه مياه العلوم واجتمعت وصارت أخاذات . قيل للحسن البصري هكذا قال الفقهاء . فقال : وهل رأيت فقيهاً قط ؟ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا . فالصوفية أخذوا حظاً من علم

الدراسة ، فأفادهم علم الدراسة العمل بالعلم ، فلما عملوا بما علموا أفادهم العمل علم الوراثة فهم مع سائر العلماء في علومهم وتميّزوا عنهم بعلوم زائدة هي علوم الوراثة وعلم الوراثة هو الفقه في الدين ، قال الله تعالى : ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ﴾ فصار الإنذار مستفاداً من الفقه والإنذار إحياء المنذَر بماء العلم ، والإحياء بالعلم رتبة الفقيه في الدين ، فصار الفقه في الدين من أكمل الرتب وأعلاها ، وهو علم العالم الزاهد في الدنيا المتقي الذي يبلغ رتبة الإنذار بعلمه ، فمورد الهدى والعلم رسول الله ﷺ أوّلاً ورد عليه الهدى والعلم من الله عز وجل فارتوى بذلك ظاهراً وباطناً ، فظهر من ارتواء ظاهره الدين ، والدين هو الانقياد والخضوع مشتق من الدون فكل شيء اتضع فهو دون ، والدين أن يضع الإنسان نفسه لربه عز وجل ، قال الله تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ماوصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه ﴾ فبالتفريق في الدين يستولي الذبول على الجوارح ويذهب عنها نضارة العلم ، والنضارة في الظاهر بتزيّن الجوارح بالانقياد في النفس والمال مستفاد من ارتواء القلب ، والقلب في ارتوائه بالعلم بمثابة البحر ، فصار قلب رسول الله ﷺ بالعلم والهدى بحراً موّاجاً ، ثم وصل من بحر قلبه إلى النفس فظهر على نفسه الشريفة نضارة العلم وريّه فتبدلت نعوت النفس وأخلاقها ، ثم وصل إلى الجوارح جدول فصارت ريّانة ناضرة ، فلما استتم نضارة وامتلأ ريّاً بعثه الله تعالى إلى الخلق ، فأقبل على الأمّة بقلب موّاج بمياه العلوم واستقبلته جداول الفهوم ، وجرى من بحره في

كل جدول قسط ونصيب ، وذلك القسط الواصل إلى الفهوم هو الفقه في الدين . روى عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ قال : « ما عُبِد الله بشيء أفضل من فقه في الدين ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ولكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه » حدَّثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب إملاء قال: أخبرنا أبو طالب الزينبي ، قال: أخبرتنا كريمة ، قالت: أخبرنا أبو الهيثم ، قال: أخبرنا الفربري ، قال: أخبرنا البخاري ، قال: حدَّثنا سعيد بن حفص ، قال: حدَّثنا ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمن قال: سمعت معاوية خطيباً يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين وإنما أنا قاسم والله يُعطي » وإذا وصل ماء العلم إلى الفهم انفتح بصر القلب ، فأبصر الحق والباطل وتبيَّن له الرشد من الغي ، ولما قرأ رسول الله ﷺ على الأعرابي ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ قال الأعرابي : حسبي . فقال رسول الله ﷺ : « فَقُهَ الرجل » وروى عبد الله بن عباس « أفضل العبادة الفقه في الدين » والحق سبحانه وتعالى جعل الفقه صفة للقلب فقال : ﴿ لهم قلوب لايفقهون بها ﴾ فلما فقهوا علموا ، ولما علموا عملوا ، ولما عملوا عرفوا ، ولما عرفوا اهتدوا ، فكل من كان أفقه كانت نفسه أسرع إجابة وأكثر انقياداً لمعالم الدين ، وأوفر حظاً من نور اليقين ، فالعلم جملة موهوبة من الله للقلوب ، والمعرفة تميّز تلك الجملة ، والهدى وجدان القلوب ذلك فالنبي ﷺ قال : « مثل مابعثني الله به من الهدى والعلم » أخبر أنه وجد القلب النبوي الهدى والعلم ، فكان هادياً مهدياً وعلمه صلوات الله عليه منها وراثة معجونة فيه من آدم أبي البشر صلوات الله عليه حيث علم

الأسماء كلها والأسماء سمة الأشياء ، فكرّمه الله تعالى بالعلم وقال : ﴿ علّم الإنسان مالم يعلم ﴾ فآدم بما رُكّب فيه من العلم والحكمة صار ذا الفهم والمعرفة والفطنة والرأفة واللطف والحب والبغض والفرح والغم والغضب والرضا والكياسة ، ثم اقتضاه استعمال كل ذلك وجعل لقلبه بصيرة واهتدى إلى الله تعالى بالنور الذي وُهب له ، فالنبي عليه الصلاة والسلام بُعث إلى الأمة بالنور الموروث والموهوب له خاصة ، وقيل لما خاطب الله تعالى السماوات والأرض بقوله سبحانه ﴿ ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ﴾ نطق من الأرض وأجاب موضع الكعبة ، ومن السماء مايحاذيها . وقد قال عبد الله بن عباس : أصل طينة رسول الله ﷺ من سُرّة الأرض بمكة . قال بعض العلماء : هذا يشعر بأن ماأجاب من الأرض ذرّة المصطفى محمد صلوات الله عليه ومن موضع الكعبة دحيت الأرض فصار رسول الله ﷺ هو الأصل في التكوين والكائنات تبع له ، وإلى هذا الإشارة بقوله عليه السلام : « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين » وفي رواية « بين الروح والجسد » وقيل : لذلك سُمّي أُمّياً لأن مكة أُمّ القرى وذرّته أُمّ الخليقة وتربة الشخص مدفنه ، فكان يقتضي أن يكون مدفنه بمكة حيث كانت تربته منها ، ولكن قيل : الماء لما تموّج رمى الزبد إلى النواحي ، فوقعت جوهرة النبي ﷺ إلى مايحاذي تربته بالمدينة ، فكان رسول الله ﷺ مكياً مدنياً حنينه إلى مكة وتربته بالمدينة ، والإشارة فيما ذكرناه من ذرّة رسول الله ﷺ هو ماقال الله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرّياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم ﴾ وورد في الحديث أن الله تعالى مسح ظهر آدم وأخرج ذريته منه كهيئة الذر من مسام شعر آدم فخرج الذر كخروج العَرَق ، وقيل : كان المسح من بعض

الملائكة فأضاف الفعل إلى المسبب ، وقيل : معنى القول بأنه مسح أي أحصى كما تحصى الأرض بالمساحة ، وكان ذلك ببطن نعمان وادٍ بجنب عرفة بين مكة والطايف فلما خاطب الله الذر وأجابوا ببلى كتب العهد في رق أبيض وأشهد عليه الملائكة وألقمه الحجر الأسود ، فكانت ذرة رسول الله ﷺ هي المجيبة من الأرض ، والعلم والهدى فيه معجونان فبعث بالعلم والهدى موروثاً له وموهوباً ، وقيل : لما بعث الله جبريل وميكائيل ليقبضا قبضة من الأرض ، فأبت حتى بعث الله عزرائيل فقبض قبضة من الأرض ، وكان إبليس قد وطىء الأرض بقدميه فصار بعض الأرض بين قدميه وبعض الأرض موضع أقدامه ، فخلقت النفس مما مسّ قدم إبليس فصارت مأوى الشر ، وبعضها لم يصل إليه قدم إبليس فمن تلك التربة أصل الأنبياء والأولياء ، وكانت ذرّة رسول الله ﷺ موضع نظر الله تعالى من قبضة عزرائيل لم يمسها قدم إبليس ، فلم يصبه حظ الجهل بل صار منزوع الجهل موفراً حظه من العلم ، فبعثه الله تعالى بالهدى والعلم ، وانتقل من قلبه إلى القلوب ومن نفسه إلى النفوس ، فوقعت المناسبة في أصل طهارة الطينة ووقع التأليف بالتعارف الأول ، فكل من كان أقرب مناسبة بنسبة طهارة الطينة كان أوفر حظاً من قبول ماجاء به ، فكانت قلوب الصوفية أقرب مناسبة فأخذت من العلم حظاً وافراً وصارت بواطنهم أخاذات ، فعلموا وعملوا كالأخاذ الذي يسقى منه ويزرع منه ، وجمعوا بين فائدة علم الدراسة وعلم الوراثة بأحكام أساس التقوى ، ولما تزكت نفوسهم انجلت مرائي قلوبهم بما صقلها من التقوى، فانجلى فيها صور الأشياء على هيئتها وماهيتها ، فبانت الدنيا بقبحها فرفضوها ،

وظهرت الآخرة بحسنها فطلبوها ، فلما زهدوا في الدنيا انصبّت إلى بواطنهم أقسام العلوم انصباباً ، وانضاف إلى علم الدراسة علم الوراثة . انتهى .

قلت : وعلم الوراثة هذا هو العلم الذي يورثه الله قلوب من يشاء من عباده الذين يعملون بما يعلمون ، فتكون لهم تلك الوراثة نتيجة العلم الذي عملوا به بدليل الحديث الشريف الذي تقدم ذكره وهو : « من عمل بما يعلم ورّثه الله علم مالم يعلم » قلت : وهذا العلم المورث هو العلم اللدني الذي أفاضه الله على قلوب أنبيائه عليهم الصلاة والسلام وأهل العلم العاملون بما علمهم الله ورثة الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين بشاهد قول النبي ﷺ : « العلماء ورثة الأنبياء » ولما كان العلم لايتم إلاّ بالعمل ولاتحصل نتيجة العمل إلاّ بالصدق والإخلاص فيه أحسن الطائفة الصوفية رضي الله تعالى عنهم منار النيات في الأعمال ، وتجرّدوا من ذميم الأخلاق والخصال ، وسلكوا السبيل إلى الله بهمة عالية وقلب سليم ونفس مرضية وعزيمة رفيعة والْتفات عن الأغيار ، فأعقبهم ذلك شرف القرب من الملك الجبار ، فتراهم في الدنيا عيون نوع الإنسان ، وأعيان عصابة العرفان ، وفي الآخرة حيث الدفاتر تقرأ وتنتشر ﴿ في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ .

وقد أتى سيدنا السيد أحمد الكبير ـ رضي الله عنه ـ في كتابه البرهان بما فيه الكفاية في هذا الباب فقال ـ رضي الله عنه ـ : ركعتان من فقيه في دينه أفضل عند الله من ألْفي ركعة من فقير جاهل في دينه ، فإياكم وإهمال حقوق العلماء ، وعليكم بحُسن الظن فيهم جميعاً ، وأما أهل التقوى منهم العاملون بما علّمهم الله فهم الأولياء على الحقيقة فلتكن حرمتهم

عندكم محفوظة ، قال عليه الصلاة والسلام : « من عمل بما يعلم ورَّثه الله علم مالم يعلم » وقـال ﷺ : « العلماء ورثـة الأنبياء » الحـديث . هم سادات الناس وأشراف الخلق ، والدالون على طريق الحق ، لاتقولوا كما يقول بعض المتصوفة نحن أهل الباطن وهم أهل الظاهر ، هذا الدين الجامع باطنه لُبّ ظاهره ، وظاهره ظرف باطنه ، لولا الظاهر لما بطن ، لولا الظاهر لما كان ، ولما صح ، القلب لايقوم بلاجسد ، بل لولا الجسد لفسد ، والقلب نور الجسد ، هذا العلم الذي سمّاه بعضهم بعلم الباطن وهو إصلاح القلب ، فالأول عمل بالأركان وتصديق بالجنان ، إذا انفرد قلبك بحسن نيته وطهـارة طويته وقتلت وسرقت وزنيت وأكلت الربا وشربت الخمر وكـذبت وتكـبّرت وأغلظت القول فما الفائدة من نيتك وطهـارة قلبك ، وإذا عبدت الله وتعففت وصمت وصدّقت وتواضعت وأبطن قلبك الرياء والفسـاد فما الفائدة من عملك ، فإذا تعيّن لك أن الباطن لُبّ الظاهر والظاهر ظرف الباطن ولافرق بينهما ولا غِنى لكلاهما عن الآخر ، فقل نحن من أهل الظاهر وكأنك قلت ومن أهل الباطن ، قل نحن من أهل ظاهر الشرع ، وقد ذكرت باطن الحقيقة ، أي حالة باطنة للقوم لم يأمر ظاهر الشرع بعملها ، أيّ حالة ظاهرة لم يأمر ظاهر الشرع بإصـلاح البـاطن لها ، لاتعملوا بالفـرق والتفـريق بين الـظاهر والباطن فإن ذلك زيغ وبدعة ، لاتهملوا حقوق العلماء والفقهاء فإن ذلك جهـل وحمق ، لاتـأخـذوا بحلاوة العلم وتبطلوا مرارة العمل فإن تلك الحـلاوة لاتنفع بغير تلك المرارة ، وإن تلك المرارة تنتج الحلاوة الأبدية ﴿ إنا لانضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ نص قرآنيّ يشهد لكم بالمكافاة على

الأعمال ، والإخلاص أن يكون العمل لله لا لدنيا ولا لآخرة مع حُسن الظن به سبحانه وتعالى في كل حال من الأحوال ، وعمل من الأعمال ، وقول من الأقوال ، إيماناً به وامتثالاً لأمره وطلباً لمرضاته .

أي سادة تقولون قال الحارث ، قال أبو يزيد ، قال الحلاّج ، ماهذا الحال ؛ قبل هذه الكلمات ، قولوا : قال الشافعيّ ، قال مالك ، قال أحمد ، قال نعمان ، صححوا المعاملات البينية وبعدها تفكهوا بالمقولات الزائدة ؛ قال الحارث وأبو يزيد لاينقص ولايزيد ، وقال الشافعي ومالك أنجح الطرق وأقرب المسالك ، شيّدوا دعائم الشريعة بالعلم والعمل وبعدها ارفعوا الهمة للغوامض من أحكام العلم وحكم العمل ، مجلس علم أفضل من عبادة سبعين سنة أي من العبادات الزائدة عن المفروضات التي يتعبد الرجل بها بغير علم ﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون ﴾ ﴿ أم هل تستوي الظلمات والنور ﴾ أشياخ الطريقة وفرسان ميادين الحقيقة يقولون لكم خذوا بأذيال العلماء ، لا أقول لكم تفلسفوا ولكن أقول لكم تفقهوا ، « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » ما اتخذ الله ولياً جاهلاً ، ولو اتخذه لعلّمه ، الولي لايكون جاهلاً في فقه دينه ، يعرف كيف يصلّي ، كيف يصوم ، كيف يُزكّي ، كيف يحج ، كيف يذكر ، تيقن علم المعاملة مع الله ، فمثل هذا الرجل وإن كان أمياً فهو عالم ولايقول له جاهل إلاّ من جهل العلم المقصود ، ليس العلم علم البديع والبيان والأدب الذي عناه الشعراء والجدل والمناظرة ، العلم المختصر علم ما أمر الله به ونهى عنه ، والعلم الجامع الأتم علم التفسير والحديث والفقه ، والفنون اللفظية والقواعد النظرية التي وُضعت وسمّاها

واضعوها علوماً هي فنون تدخل تحت قول القائل العلم بالشيء ولا الجهل به ، صمّوا أسماعكم عن علم الوحدة وعلم الفلسفة وما شاكلها فإن هذه العلوم مزالق الأقدام إلى النار ـ حمانا الله وإياكم ـ الظاهر الظاهر ، اللهم إيماناً كإيمان العجائز ﴿ قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ لاتقطعوا الوصلة مع العلماء جالسوهم خذوا عنهم ، لاتقولوا فلان غير عامل خذوا من علمه واعملوا به ودعوه وعمله إلى الله ، الأولياء رضي الله عنهم يأخذون الحكمة لايبالون من أي لسان ظهرت ، وعلى أي حجر كتبت ، وبواسطة أي كافر وصلت ﴿ ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلاً ﴾ الأولياء قناطر الخلق يعبر الموفقون عليهم إلى الله تعالى ، أولئك العاملون المخلصون الخالصون استخلصهم تعالى لعبادته وقرّبهم من حضرته ، فما حجب قلوبهم حجاب الغين طرفة عين ، أخرجوا البين من البين أقاموا طلاسم الكتم على الأسرار ، وقاموا الليل وصاموا النهار ، بعضهم غلب عليه الفكر ، وبعضهم غلب عليه الذكر ، وبعضهم جمع شتات الأمر ﴿ رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ أوصيكم كل الوصية بعد علم واجبات الدين بصحبتهم فإنها ترياق مجرّب ، عندهم رأس الأمر كله ، عندهم الصدق والصفاء ، والذوق والوفاء ، والتجرّد من الدنيا ، والتجرّد من الأخرى ، والتجرّد إلى المولى ، وهذه الخصال لاتحصل بالقراءة والدرس والمجالس لاتحصل إلاّ بصحبة الشيخ العارف الذي يجمع بين الحال والمقال ، يدلّ بمقاله ، وينهض بحاله ﴿ أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده ﴾ .

وقال رضي الله عنه في محل آخر من كتابه المذكور : ياأخي لاتحرد مني ،

انقطعت وأنت تظن الوصل ، ورأيت أنك عالم وأنت على طائفة من الجهل ، فقد فاتك السوم ، وسبقك القوم ، وعمك اللوم ، لا أقول لكم انقطعوا عن الأسباب ، عن التجارة ، عن الصنعة ، ولكن أقول انقطعوا عن الغفلة والحرام في كل ذلك ، لا أقول لكم اهملوا ولاتلبسوا الثوب الحسن ، ولكن أقول إياكم والاشتغال بالأهل عن الله ، وإياكم والزهو بالثوب على الفقراء من خلق الله ، وأقول لاتظهروا الزينة فوق مايلزم بثيابكم تنكسر قلوب الفقراء ، وأخاف أن يخالطكم العُجب والغفلة وأقول نقوا ثيابكم ﴿ قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ وأقول نقوا قلوبكم وطهروها فذلك أوْلى من تنقية الثياب « إن الله لاينظر إلى ثيابكم ولكن ينظر إلى قلوبكم » وكذلك أو مثل ذلك قال لنا سيدنا عليه أفضل الصلوات والتسليمات : « حاربوا الشيطان ببعضكم » بنصيحة بعضكم ، بخُلق بعضكم ، بحال بعضكم ، بقال بعضكم ، قال تعالى : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ وقال تعالى : ﴿ الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ يقاتلون الشيطان والنفس وعدوّ الله ، يقاتلون الشيطان كيلا يقطعهم عن الله ، يقاتلون النفس كيلا تشغلهم بشهواتها الدنيّة عن عبادة الله ، يقاتلون عدوّ الله لإعلاء كلمة الله ، ونشر علم الدلالة على الله ﴿ أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم الغالبون ﴾ عظّموا شأن العلم تعظيماً يقوم بواجباته لأنه درك حقائق الأشياء مسموعاً ومعقولاً ، أعطوا الإيمان حقه فهو إقرار باللسان ، واعتقاد بالجنان ، إلزموا حكم الإسلام فهو متابعة الشريعة ، والإعراض عن الطبيعة ، تحققوا بالمعرفة فهي أن تعرفوا الله بالوحدانية ، طهّروا النيّة فهي الخطرة في القلب فلايطّلع عليها

أحد غير الله ، أتقنوا الأدب فهو وضع الشيء في موضعه ، أوجزوا الموعظة فهي إرشاد أصحاب الغفلات ، أبلغوا بالنصيحة فهي الاطّلاع على حفظ طريق الزهد ، أُصدقوا في المحبة فهي نسيان ماسوى المحبوب ، أكملوا الأدب في الدعاء فهو رفع الحاجات إلى رفيع الدرجات ، شيّدوا منار التصوف فهو ترك الاختيار ، أتقنوا طريق العبودية فهي ترك الدنيا ، وترك الدعوى ، واحتمال البلوى ، وحب المولى ، مهّدوا سبيل القرب فهو الانقطاع عن كل شيء سوى الله ، تحققوا بالصدق فهو موافقة السر والعلانية ، عظّموا قدر نعمة العافية فهي نفس بلا بلاء ، ورزق بلاعناء ، وعمل بلا رياء ، قفوا عند حد الاستقامة فهي أن لايختار على الله شيء ، تحروا الحلال فهو الذي لايضمنه آكله في الدنيا ولايؤاخذ لأجله في الآخرة ، سددوا منهاج الطاعة فهي طلب رضاء الله في الأقوال والأفعال والأحوال ، خذوا بعروة الصبر فهو إيقاف القلب عند حكم الرب ، طهروا العزلة والخلوة فهما التباعد عن أبناء الدنيا بترك الطمع وهجر اختلاط الناس قلباً وإن كان المرء بينهم بشخصه ، ألا إن الوليّ من ولّى وجهه عن النفس والشيطان والدنيا والهوى ، وولّى وجهه وقلبه إلى المولى ، وأعرض عن الآخرة والأولى ، ولم يطلب إلاّ الله تعالى ، وإن القانع من رضي بالقسمة ، واكتفى بالبُلغة . انتهى .

أقول : هذه الخصال الحميدة ، والأخلاق السعيدة ، هي حال الصوفية ومقامهم ، ومذهبهم ونظامهم ، أرشدهم الله إليها ، وطبعهم عليها ، فهم العلماء الربانيون ، والعاملون المخلصون ، والعارفون الخالصون ، طرحوا الأغيار ، واشتغلوا بالله الواحد القهار ، شعارهم

الذكر ، وفعالهم موافقة الأمر ، ودرعهم الصبر ، ورأس مالهم الفكر ، وغنيمتهم الشكر .

هم المخلصون القائمون بربهم ... وما نظروا الدنيا ولا طلبوا الأخرى
تعالت بهم في مذهب الحق همة ... نتيجتها بين القضايا هي الكُبرى

* * *

أخذوا بإثر رسول الله ﷺ القدم على القدم ، وانطبعت أرواحهم على الفنا بمحبته فأنتج لهم ذلك البقاء المحض بعد العدم .

سلكوا سبيل محمد خير الورى ... وتمكنوا بالأتباع لأمره
فتحققوا بطريقه وتنوّروا ... بهُداه فاغترفوا الندى من بحره

* * *

اللهم بحرمتهم عندك ، وبقربهم منك ، وبجاه وجوههم المباركة لديك ، إحفظ لنا إيماننا ، وأصلح أحوالنا ، وازرع حَبَّة التوفيق والهداية في قلوبنا ، وفرّج بلطفك وكرمك جميع كروبنا ، ويسّر بعنايتك أمورنا ، واشرح بنورك صدورنا ، واسترنا في الدنيا والآخرة ، وأصلح عواقبنا بفيوضات كرمك الزاخرة ، واشملنا بنفحة ذيل نبيك سيدنا وسيد المخلوقين ، محمد رسولك الصادق الأمين ، واحشرنا تحت لوائه ووالدينا والمسلمين ، واغفر لنا وارحمنا بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين ، واختم لنا بخير ، إنك على كل شيء قدير وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

تمّ الكتاب بلطف الله الملك الوهاب في ٢٧ شوال من شهور سنة ١٣٠٤ .

ولنا

تجلّى بقلبي تجلّى * وقدره فيه جلّا * قد هام فيه غراماً * وعن سواه تخلّى

لازمه

أضاء فيه جناني * وطاب معنى بياني * فلو عنى ترجماني * إذا معانيه تُتلى

في كل طوري سميري * حبي ووجدي عشيري * قد دُكّ طور ضميري * لمّا حبيبي تجلّى

فعنه حالي يُقلّ * بحقّ فتحٍ مُسلسل * له الفؤاد تقفّل * وفي شانيه ضلّى

لازال يُبدي شهودي * له معاني وجودي * وعند كشف البرود * منه دنى فتدلّى

أوقات جمع انكساري * لعزّة وافتقاري * أحيا شؤون مناري * وصرت للحب أهلا

وطرت من فرق جمعي * وحال أصلي وفرعي * حتى رشفت بدمعي * بُرد المقام المُعلّى

وسرت بالفهم عني * إليّ حالاً ومنّي * وصار ذوقي فنّي * وفيه شأني تحلّى

وقد تباهى مقامي * بأهل تلك الخيام * وعن فجاج السلام * عزمٌ سماعي تولّى

وتمّ بابن الرفاعي * بُرهان جمع انقطاعي * ولذّ صوت سماعي * به وطرفي تملّى

أحرزت منه بيانا * سما ﷺ علا شانا * يُقال : تنساه أنا * أقول حاشا وكلّا

به شؤون قبولي * وفيه معنى وصولي * ذا شأني للرسول * عليه ربّي صلّى

* * *

﴿ ويناسب هذا المقام ذكر قصيدة لي ﴾ مدحت بها ساداتنا الأقطاب الأربعة أعني سيدنا ومولانا صاحب اليد والبرهان المؤيد حضرة السيد محيي الدين أحمد الرفاعي الحسيني ، وسيدنا الغوث الجليل حضرة السيد الشيخ عبد القادر الجيلاني الحسني ، وسيدنا الغوث الخطير حضرة السيد أحمد البدوي الحسيني ، وسيدنا الغوث الشهير حضرة السيد إبراهيم الدسوقي الحسيني ، رضي الله عنهم ونفعنا بهم

﴿ وهي ﴾ :

نزّه جنابك عن مقام القاصر ... واسلك طريق القوم غير مكابر

واحفظ مقادير الشيوخ فإنهم ... فازوا بمعرفة الكريم الغافر

سلكوا طريق الهاشمي محمد ... وتشبثوا قلباً بذيل الطاهر

وتسلقوا بعد الصحابة ذروة الـ ... ـعليا وطالوها بعزم باهر

وتسلقوا حتى لعهد الأربع الـ ... أقطاب قادات الطريق الطاهر

﴿ أعني الرفاعي الذي آثاره ... ظهرت لبادٍ في الأنام وحاضر ﴾

علم الشيوخ هزبر غابات الهدى ... غوث الوجود بكل خطب قاهر

سلطان كبكبة الأكابر تاجهم ... فحل الرجال بسيرة ومآثر

خضعت لهيبته الأسود وردّ حد ... دّ السيف مقلوب النصال الباتر

والنار تخمد والسموم كأنها الـ ... ـماء الزلال لوارد أو صادر

وسما بلثم يمين خير الأنبيا ... رتباً علت هام الهلال الزاهر

وأتى بأخلاق تورثها عن الـ ... ـمختار والسلف الشريف الفاخر

وروى عن الطهر البتول نيابة   وعن الحسين وشبله والباقر
أخذ التواضع والخضوع طريقة   قامت حقيقتها بركن عامر
هو أول الأقطاب منزلة إذا   حدت منازلهم بغير تفاخر
﴿واذكر أخاه الباز سلطان الحمى   عين الرجال الغوث عبد القادر﴾
شيخ تطيلس ظاهرا بمفاخر   دلَّت على حال الغني الشاكر
وافى لها بعد السلوك بحالة   قد حملت عبث الفقير الصابر
وبها انجلى مثل العروس بحلّة   حسنية قد رصِّعت بجواهر
سارت مآثره مسير الشمس في ال   أقطار ظاهرة لعين الناظر
هو غوثها المندوب يوم ملمة   ولكسر مضنى الكرب أكرم جابر
كم من عنايات له ومكارم   وعوارف وأثائر وبشائر
شهدت له كل الرجال بأنه   غوث الضعيف على الزمان الجائر
شِيَمٌ عن الكرار والحسن ابنه   وصلت له من كابر عن كابر
أحواله في الأولياء شهيرة   وجميله أمواج بحر زاخر
﴿ واذكر أخاه السيد البدوي من   تُروى غرائب سرُّه بتواتر ﴾
غوث البرية أحمد المولى أبو الـ   ـفتيان ذو الشرف العظيم الظاهر
هو ملجأ العاني الأسير وموئل الـ   ـلاجي الكسير وركن ظهر الحائر
ما أمَّ مشهده الكريم عويجز   إلاّ وقابله بعزم ناصر
أمضى السلوك على السطوح بغيبة   تركته للأخرى بحال الحاضر
شأن وأحوال لصولته سرت   في الخافقين على جناح الطائر
موروثة عن جده المولى الحسين وأفرغت فيه بفيض وافر
رفعت له بين الأكابر راية   تسمو على فلك الأثير الدائر
لله من سلطان برهان علت   أحكام دولته بغير عساكر

تبعتـه قادات الشيوخ تمسكـاً بجنـابـه والقـوم أهـل بصـائـر

﴿واذكر أخاه السيد الغوث الدسو قي الحسيني الحمى للعـائـر﴾

ذو الفتق والرتق الذي ساد الأولى وعـلا يصيت في البـرية سائـر

دانت له أهل الكمال وأصبحت تثني عليه صدورهـا بمحـاضـر

وبشوكـة التصريف ضربة عزمه كم مرة قطعت حبـال الفـاجـر

هو قطبها المخطوب للخطب الذي يلوي الـرقـاب قراع بأس غادر

مولى من الســادات أهـل البيت أعيـــان الـوجـود بباطن وبظاهـر

قطب تسلسـل في البـرية مجده من طاهـر عن طاهـر عن طاهـر

تجلى به الكـرب الثقيلة والرضا برحـابـه سهم الفقير الـزائـر

مولاي إبـراهيم غوث زمـانـه بجبوحـة الاحسـان وبل الماطر

هو رابع الأقطاب من أبوابهم ملجـا العفـاة بكـل هول صادر

وهمُ لدى أهـل الحقيقـة واحـد والكـل من بيت النبي العـامـر

صلى عليه الله ما لمع الضحى وبـدت كواكب آلـه للبـاصـر

* * *

﴿ وقد أنشدت ببغداد ﴾ في المقام المبارك القادري أيضاً ﴿ هذه القصيدة ﴾ الفريدة والدرّة النضيدة ﴿ وهي ﴾ :

للغوث عبد القادر الجيلاني طرنا بأجنحة من الأشجان
وإلى ثرى عتباته جئنا لنيل الأمن والآمال والإحسان
فهو ابن بنت محمد خير الورى وحفيد حيدرة العليّ الشان
الباز الأشهب عقد سلسلة ضيا ضئضئي سدرة أصلها السبطان
وسليل آل عن مراتب قدرهم وسموها يتقاصر القمران
غوث شموس سماء طلعته انجلت في الشرق ثم سرت إلى الأكوان
وإمام إرشاد بكعبة هديه طافت شيوخ العجم والعربان
وله كرامات عجائب سرها تبدو لغاية آخر الدوران
ولكم له من نفحة وعناية حلّت عقال الخائف اللهفان
سلطان كبكبة الرجال وصاحب القدم الرفيع وفارس الميدان
والسيد السند الجليل المرتجى لدفاع خطب نوائب الحدثان
مولاي محيي الدين باز الله قطب الوقت وارث جده العدناني
وعليه دار رحى الطريقة في الورى ورحى العلا والفضل والعرفان
علم الحمى في الشرق عنقا مغرب[1] بحر الحقائق واضح البرهان
غياث من ناداه يوم كريهة ومغيث ناديه بكل زمان
شيخ الشيوخ العارفين بربهم وإمام أهل الوجد والإذعان
وأجل أرباب الخشوع وعين أصحاب الخضوع وسيد الأعيان

(١) قوله عنقا مغرب بمعنى أنه نادر الوجود .

وأمير جيش الصالحين وصاحب الـعزم المتين الهيكل الصمداني

ورئيس ديوان الرجال بحضرة الـ أسرار بل قنديلها النوراني

والجهبذ الفرد الغيور الضيغم الشهم الهمام العارف الرباني

قطب تفرّد مظهراً وعناية في الصالحين فما له من ثاني

عظمت مراتبه بأصل طاهر وببيت عز شامخ الأركان

ومن العبا شملته نفحة وصلة نبوية حسنية العنوان

وعليه من عليا عليّ المرتضى سرُّ الولاية باهر اللمعان

هو ملجئي في النائبات وموئلي وحماي من زمني إذا عاداني

ووسيلتي للمصطفى ولآله وذريعتي للواحد الديّان

وبه ألوذ وأستظلّ بظله أبداً ليحصل في المخاف أماني

حسبي بذا البازي بنجح جناحه تسمو يدي ويفك عقد رهاني

لازال رحب ضريحه مثوى القبو ل ومهبط الرحمات والرضوان

ماطاب من ذكريه قلب متيم ذي غربة ناء عن الأوطان

أوما بحسن الظن مدت راحة للغوث عبد القادر الجيلاني

* * *

(وكتبت) مرّة على ركن من أركان مقامه الكريم المسهم بأنوار التكريم :

ربطت بحبل عنقا الشرق حبلي ومنه لجأت بالحصن الجليل

هو الكشاف للبلوى سريعاً هو الجيلي فداه أنا وجيلي

* * *

(لطيفة) رأيت ببغداد رجلاً مجذوباً فداخلني من معاملته لي هيبة عظيمة وخفت منه فكتبت لشيخي وقرّة عيني وتاج رأسي المولى العارف بالله تعالى السيد محمد مهدي الرواس الصيادي الرفاعي قدس الله سره وروحه ونفعنا به عريضة و (هذا نصها) :

أمولاي ياقطب الزمان ومن به	يفرّج عن قلب المسكين همه
لقد راعني مجذوب طور بحاله	واخشى بأن يعدو إلى العبد سهمه
فلاحظ دقيقاً أنت قوة ظهره	وجاريه كي يحمى من الخبط فهمه

(فأجاب) رضي الله عنه بما نصه :

أيخشى بروز الحال من طور طارق	محب بمعنى حالنا ضاء فهمه
وهل تصرع الأحوال من أنا شيخه	ويزعجه من طارق الدهر همه
ويرهب من شيخ العواجز أحمد	أبوه وعبد القادر الفحل عمه
لعمرك حاشا أن يمسك صائل	بسهم ولو أدلاه كالبرق عزمه
يصول وقد يرميك بالسهم إنما	يرد عليه من يد الغيب سهمه

* * *

﴿ وقلت في واقعة ﴾

أذكر ساداتنا الأقطاب الأربعة وأتعرض لجلالة

الأولياء جميعاً رضي الله عنهم ونفعنا بهم :

صدور القوم (سيدنا الرفاعي) هزبر الحضرة الغوث الكبير

(وعبد القادر) الجيلي شيخ الشيوخ العارف الأسد الشهير

وسامي الهمة (البدوي) ذخري أبو الفتيان ضيغمها الغيور

وجحجاح الحمى القطب (الدسوقي) بعيد الغاية القرم الخطير

همُ في القوم أربعة بدور بهم بدجا الملمة نستنير

صدور الأولياء بلا نزاع وأهل الله كلهم صدور

* * *

﴿ وقلت ﴾

رفعت يدي والقلب راح مناجياً أغث ياعظيم الطول واقبل دعائيا
لجأت إليك ارحم صميم ضراعتي وحاشاك ما خيبت يارب لاجيا
تفضل على كسري بجبر وداوني بنصر فقد أعيى الأطباء دائيا
وخذ بيدي ياكاشف الضر إنني أخذتك لي ذخراً ولياً وواقيا
دعوتك والجلى أحاطت بزلتي وشنت أمامي خيلها وورائيا
وأثقلني كربي وضاقت مناهجي وإنك يا رباه تعلم حاليا
قطعت حبال السر عن كل حادث وجئتك موثوق الحوادث شاكيا
تناهبني الأسقام حتى كأنني أشابه مرطاً مسه الدهر باليا
بليت بأنواع الهموم لهمة علت بي فمزق بانتصار بلائيا
وأصبحت كالضب المحاط بموج يرى طامياً حيناً وآخر عاليا
وكالحوت في قفر تغلغل حره ولم يلف إلا أنت يارب راعيا
أعالم أسرار العباد تولني رضيتك ياربي ولياً مواليا
تنكرت الأيام حتى كأنها غدت بانقلابات الشؤون لياليا
وصار دنيُّ الطبع والعرق عاليا وعزم كريم الذات والبيت واهيا
ونحرير علم الدين والرأي جاهلاً وجاهل معنى العلم بالزعم قاضيا
وبات أعالي القوم في وهدة العنا وطاول أبناء الأداني الأعاليا
وسنُّ سفيه الحي أصبح ضاحكاً وطرف شريف الطور للهم باكيا
وكم يشهد الشهم الغيور بواعثاً تثير به أسقامه ودواعيا

كأن بني الأيام بُكْمٌ إذا دُعـوا ... لحق صراح ما أجابوا المنـاديا

عمـاة وأهل الحق بين ظهورهم ... ولـكنهم طيشـاً يرون المــرائيا

يعادون للحق الصديق وكم وكم ... يوالــون للغي الجلي الأعـاديا

إلـهـي تداركـني بلطفــك إنني ... ضعيف وقد حملت ضعفي المساويا

ومـا أنـا إلاّ من بني الدهر واحد ... أروح وأغـدو عن حقـوقك لاهيا

نعم إنـنـي مابتُ بالســرِّ داعياً ... سواك على وزري وما رحت راجيا

جعلت لقلبي من تجلّيك حضرة ... تنـاجيك فاجعلني بذكـرك ناجياً

ونـور حياتي بالخشـوع وبالرضا ... وأكمــل على دين النبيِّ ممـاتيا

ولاتُقْصِني عن إثر أشرف مرسل ... لأقضي وألقى المصطفى الطهر راضيا

عليه صلاة الله ما لاح بارق ... وعـطر مسكي الـرياض البـواديا

وآل وصحب والـرفـاعي من غدا ... أراه بأحـكــام الـطريق أمـاميا

* * *

يقول ناسخه ومحققه طفيلي مائدة الآل والمستشرف بأعتابهم عند نوّابهم لخدمة النعال ، أفقر الورى وأحقر من ترى عبد الحكيم بن سليم عبد الباسط السقباني الدمشقي : قد فرغت من نسخه وتحقيقه عصر يوم الجمعة ١٠ ربيع الأنور من شهور سنة ١٣٩٠ هجرية الموافق ١٥/٥/١٩٧٠ ميلادي أسأل الله الكريم المنان أن ييسّر طبعه على أكمل وضع ، ليتناسب حسن طبعه ، مع حُسن أُسلوبه ووضعه ، وأن يجعل فيه النفع العام ، والإصلاح الظاهر التام ، في سائر البلاد وعلى مدى الأيام ، آمين وصلّ الله وسلّم وبارك على حبيبه سيدنا محمد وعلى آله المحبيين المعظمين ، وأصحابه الكرام الراضين المرضيين والحمد لله رب العالمين .

الفهـرس

قلت: في محبة الآل الكرام، السادة الأطهار الأعلام
رضي الله عنهم

مودة أهل البيت فرض كما يُدرى ... وحُبُّهُمُ حبل السلامة في الأخرى

فجدهمُ الهادي ووالدهم علي ... وأُمُّهُمُ خير النسا البَضعةُ الزهرا

وهم روح هذا الكون في كل حضرة ... مآثرهم تُتلى وآياتهم تُقرا

وقد نزل القرآن حول بيوتهم ... وفي (قل تعالوا) زادهم ربهم قدرا

وفي آية القُربى وفي (هل أتى) أتى ... لمجدهمُ شأنٌ سما في الورى ذِكرا

هُمُ الناس أهل البيت والخيف والصفا ... وزمزم والميزاب والذِّكر والذكرى

سُلالة مصباح النبيين سيِّد الـ ... ـوجود ختام المرسلين أبي الإسرا

عليهم سلام الله إني مُحِبُّهم ... بحقٍّ وأرجو منهمُ العطف والبشرى

فهم ملجأ المسكين والحِصن في البلا ... وهم آية التصريف والأمر والإجرا

وهم زُبدة البحر الذي فيض جوده ... سقى الفُلك والأملاك والأنبيا طُرًّا

عليه صلاة الله والآل ما انجلى ... مُحيا الثنا سِرًّا بهم فاضا جهرا

* * *

وقلت أمدح الإمام شيخنا السيد محمد مهدي الصيادي الرفاعي الرواس رضي الله عنه ونفعنا به :

للسيد المهدي * نيابة النبي * ودولة المعالي * عن جده علي
شمس الكمال الزاهي * سلطان أهل الله * نرى جمال الله * في ذلك الولي
ذو المشهد المقبول * والصارم المسلول * أنموذج الرسول * في المحضر الكوني
قد جاء للأتباع * بأشرف المساعي * عن جده الرفاعي * قام بذاك الزيّ
أشاع في البلاد * مآثر الصيادي * وركنه في الوادي * بالجانب الغربي
ذو الراحة السيالة * والهمّة الفعّالة * وروحه الجوالة * في العالم العلوي
آدابه تخفيه * وربه يبديه * بمهجتي أفديه * من ظاهر خفيّ
فوجهه والفجر * وعزمه والنصر * لابد هذا البدر * يُجلي بكل حي
فيوضه كالبحر * بكل آن تجري * قامت به لو تدري * روح العليّ الحي
ستملأ البرية * أنواره القدسية * فاربط حبال النيّة * بركنه القوي
قامت له الإشارة * وصحّت البشارة * وتمت العبارة * في المحفل الغيبي
هذا منار السر * وغوث هذا العصر * جلا نظام الأمر * في نشره والطيّ
طابت به القلوب * وزالت الكروب * وانجلت الغيوب * عن سره الخفي
به مناط الأمر * في كل أمر يجري * وحجتي في حشري * محبة المهدي
أعلى منار الحق * في غربنا والشرق * وناب بين الخلق * عن جده النبي
تهدى له صلاتي * بمسك روح الذات * لتنتفي صفاتي * بالحال الأحمدي

* * *